مظاهر الحضارة الماديّة في الشعرِ الجاهلي

إعداد

ماهر أحمد علي المبيضين

المشرف

الأستاذ الدكتور حسين عطوان

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيار ٢٠٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة وأُجيزت بتاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠٠٢م

أعضـــــاء لجنـــــة المناقشـــــة	**التوقيـــــــــــع**
- الأستاذ الدكتور حسين عطـــــــــوان، مشرفاً	.....
- الأستاذ الدكتور عبد العزيـــز الدوري، عضواً	.....
- الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، عضواً	.....
- الأستاذ الدكتور سمير الدروبـــــــي، عضواً	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى روح والدي في الملأ الأعلى،

بعد أن حال الأجل بينه وبين رؤية هذه الثمرة. .

وإلى والدتي،

أحقّ الناس بحسن صحابتي، ثمرة من ثمار غرسها الطيّب. .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

بعد الشكر لله عزّ وجلّ أولاً، فإنّني أتقدّم بجزيل الشكر وعظيم العرفان من الأستاذ الدكتور حسين عطوان؛ المشرف على هذه الأطروحة، الذي قبلني تلميذاً ينهل من علمهِ الثَّر، فقد أولاني كل اهتمام ومتابعة، ولم يدَّخر جهداً في تقديم النصح والإرشاد والتوجيه، فكان بحقّ نعم الموجّه الذي أفادني وأعانني بآرائه وتحليلاته العلمية فيما يتعلّق بموضوع الدراسة، فجزاه الله عنّي كلّ خير.

وأتوجّه بالشكر الجزيل من الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدُّوري، والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، والأستاذ الدكتور سمير الدروبي، الذين تجشَّموا مشقّة وعناء قراءة هذه الأطروحة، ووضعهم الملحوظات القيّمة التي من خلالها سأقوِّم ما اعوجَّ فيها بإذنه تعالى، كما أقدّم شكري للأستاذين الفاضلين: الأستاذ الدكتور إحسان عبّاس، والأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، على ما قدّماه لي من نصحٍ وتوجيه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
- الإهداء	ج
- الشكر والتقدير	د
- فهرس المحتويات	هـ
- الملخّص	ز
- المقدّمة	١-٥
- التمهيد	٦-١٣
- **الفصل الأول: المظاهر الحضارية الماديّة الاجتماعية:**	**١٤-٩٤**
أولاً: نماذج من أنواع الملابس وسمتها الحضارية	١٥-٣٤
ثانياً: الحُلِيّ وأصنافه	٣٥-٤٨
ثالثاً: صناعة الطيب وأصنافه	٤٩-٦١
رابعاً: أواني الطعام والشراب	٦٢-٨٧
خامساً: آلات الموسيقا	٨٨-٩٤
- **الفصل الثاني: الصناعات والحرف:**	**٩٥-١٦٢**
أولاً: المصنوعات الخشبية وأدوات النجارة	٩٦-١١٤
ثانياً: صناعة الحِياكة والنّسيج	١١٥-١٢٦
ثالثاً: صناعة الأسلحة وآلات الحرب	١٢٧-١٤٩
رابعاً: حرفة الزراعة: أساليبها وأدواتها	١٥٠-١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **الفصل الثالث: البناء والعمارة:** **١٦٣-٢١٢**

أولاً: مواطن البناء والعمارة ١٦٤-١٧٢

ثانياً: أنواع البناء والعمارة ١٧٣-٢٠٢

ثالثاً: مواد البناء والعمارة ٢٠٣-٢١٢

- **الفصل الرابع: الكتابة: مَوادّها وأدواتها:** **٢١٣-٢٤٧**

أولاً: شيوع الكتابة وموضوعاتها في الجاهلية ٢١٤-٢٢٧

ثانياً: مَوادّ الكتابة وأدواتها ٢٢٨-٢٤٢

ثالثاً: الكاتِب ٢٤٣-٢٤٧

- الخاتمة ٢٤٨-٢٥٣

- المصادر والمراجع ٢٥٤-٢٦٨

- الملخص باللغة الإنجليزية ٢٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخّص

مظاهر الحضارة المادية في الشعر الجاهلي

إعداد

ماهر المبيضين

المشرف

أ. د. حسين عطوان

أكَّدت الدراسة أنّ الشعر الجاهلي صوَّر مظاهر الحضارة الماديّة للعرب في العصر الجاهلي في بيئاتهم المختلفة، إذ تجلّت صورة الحضارة الماديّة بوضوح. وهذه المظاهر هي: المظاهر الحضارية الاجتماعية، والصناعات والحرف، والبناء والعمارة، والكتابة: موادّها وأدواتها.

أمّا المظاهر الاجتماعية، فقد تمثّلت في الملابس وطريقة صنعها ومادتها الخام الأولية، ومعرفة العرب لأنواع كثيرة من الحُلِيّ بأشكاله المختلفة، بحيث توافرت مادّتها الخام في مختلف بيئات الجزيرة العربية.

وعرف العرب صناعة الطيب وأدوات حفظه، وصناعة أدوات وأواني الطعام والشراب، إذ بدا المظهر الحضاري المادي جليّاً في طريقة الصنع، وتعدّد الأشكال لمثل هذه الأواني، وزيادة على ذلك، فقد عرفت بعض البيئات العربية كثيراً من آلات الموسيقا، التي كانت في أغلبها فارسيّة الصنع.

والتفت الشعراء الجاهليون إلى مظهر حضاري آخر، يتمثّل في كل ما عرف العرب من الصناعات والحرف، بما يتناسب وحياتهم المعاشية، إذ اشتهرت صناعة الحياكة والنسيج، بما توافر لها من مواد خام أوليّة في مختلف البيئات العربية، وعرفوا كذلك صناعة الأسلحة وآلات الحرب اللازمة لخوض معاركهم والدفاع عن أنفسهم، وعُرِفت عندهم مختلف أنواع المصنوعات الخشبية وأدوات النجارة، زيادة عمّا شهدته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض المناطق العربية من استقرار أدّى إلى شيوع حِرفة الزراعة، وما رافقها من وسائل حضارية استعملت في حِراثة الأرض وسقي المزروعات، والطرق التي ساهمت في الحفاظ على الزروع والثمار.

وبرز المظهر الحضاري المادي في شيوع فنّ البناء والعمارة، إذ شاع هذا الفن في مختلف البيئات العربية، وبخاصّة في بلاد اليمن التي توافر فيها مواد خام أوليّة ساعدت في إخراج الأبنية المختلفة إخراجاً هندسياً، فصوّر الشعراء أنواع المباني من قصور، وحصون، وقناطر، وغيرها.

وانتشرت الكتابة بين العرب في العصر الجاهلي، فقد صوّر الشعراء الجاهليون معرفة العرب الكتابة، وتضمّن الشعر حديثاً عن الكاتب وأدوات الكتابة التي تجلّى فيها المظهر الحضاري المادي؛ لأنّ الكتابة حرفة لها صانع وأدوات.

وتبيّن من جزئيات الدراسة أنّ العرب في عصر ما قبل الإسلام عرفوا ضروباً متعدّدة من مظاهر الحضارة التي صوّرها الشعراء الجاهليون.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد:

يُعدُّ العصر الجاهلي من العصور التاريخية التي تأصّلت فيه جذور الحضارة العربية العريقة، تلك الحضارة التي اتّسمت بطابع مميّز، فتعدّدت مجالات الحياة التي اهتدى إليها الإنسان الجاهلي بعقليته المتطلّعة لما هو أفضل، إذ إنها استطاعت أن تفكّر وتجلو الظلام عن حياة في غاية الشدّة والقساوة التي بدت جليّة في بيئتهم وظروف الطبيعة من جهة، ودستور القبيلة وتلك المنازعات الطاحنة من جهة أخرى.

وعلى الرغم من كل هذه الإشكاليات وغيرها التي اعترضت حياة العربي في ذلك العصر، إلاّ أنّه استطاع بإصراره على التحدّي أن يوجد لنفسه مقومات الحياة، وأن يضع لنفسه حضارة تتلاءم وظروف معيشته وبيئته، ولمّا كانت الحضارة ظاهرة إنسانيّة عامّة فإنها على هذا الأساس تعدُّ ترجمة لأي مجهود يبذله الفرد، أو تبذله الجماعة بصرف النظر عن مقدار هذا المجهود والشكل الذي يتمّ فيه الإنتاج، وقبل الإطلالة على مظاهر الحضارة الماديّة عند العرب في العصر الجاهلي، لا بُدَّ من تحديد المصطلح أولاً ليتسنّى الكشف عن وجود مظاهر الحضارة وفهمها عن طريق الاعتماد على الشواهد الشعرية، والمظان التاريخية والأدبية.

مفهوم الحضارة في اللغة والاصطلاح:

يتبادر إلى الذهن أنّ الحضارة تُعدّ خلافاً للبداوة وحياة الترحّل من مكان لآخر، أي أنها دَلالة على الاستقرار ومزاولة النشاطات المتعدّدة، والسلوك الإنساني المتطلّع نحو كل ما هو أرقى وأفضل، وتكاد تتّفق المعاجم اللغوية على هذا المعنى الدال. فقد جاء في المعاجم تحت مادة حضر "والحضر" خلاف البدو. والحاضر: خلاف البادي. وفي الحديث لا يبع حاضر لبادي. الحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالبادية...، والحضارة: الإقامة في الحضر؛ عن أبي زيد. وكان الأصمعي يقول: الحَضارة، بالفتح، قال القطامي:

فَمَنْ تكن الحضارة أعجبتــــه فأيّ رجالِ بادية ترانـــــــا

والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وفي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار..."[1].

والمعنى اللغوي للحضارة الدّال على الاستقرار في الأمصار لا ينفي بالضرورة وجود ملامح حضارية بسيطة عند البدو، وبخاصة أنها ترجمة لنشاطات الإنسان وتحرّكاته، ولهذا فإنّ المعاني الاصطلاحية للحضارة والتي كثرت حولها الدراسات تكون أعمّ وأشمل من المعنى اللغوي لأنّه يعطي الحضارة أبعاداً أوسع لتشمل جميع السلوك الإنساني وممارساته في شؤون حياته المختلفة.

ولعلّ ابن خلدون من العلماء الذين وقفوا عند مفهوم الحضارة وقفة متأنّية، إذ عالجها ضمن إطار الحديث عن العمران، وتفنّن الإنسان وكلفه بالصنائع، إذ أشار إلى هذا المفهوم بقوله: "والحضارة كما علمت هي التفنّن في التّرف واستجادة أمواله والكلف بالصنائع التي تُؤَنّق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيّئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل.."[2].

ويبدو في حديث ابن خلدون عن مقوّمات الحضارة أنّه يربطها ربطاً واضحاً بالاستقرار وترسّخ الدولة. بمعنى أنّ الحضارة في الأمصار تتوافر لها مجموعة من

---

[1] معجم لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤، مادة (حضر)؛ وتاج العروس السيد محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق إبراهيم الترزي، مكتبة حكومة الكويت، ١٩٧٢، مادة (حضر).

[2] مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ص٤٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقومات تكفل لها الديمومة والتطوّر في آن واحد، جلّ هذه المقوّمات أساسه العمران والتفنّن في أنواع الصناعات[1].

والناظر في دراسات المحدثين عن الحضارة يجدهم قد ذهبوا في تحديد دِلالتها مذاهب شتّى، تميل في أغلبها إلى ربطها بالاقتصاد من جانب، وبالثقافة من جانب آخر، وهي في الحقيقة تشمل على كل نتاج الإنسان في شتّى مجالات الحياة، ومن ذلك قول ول ديورانت: "الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنّما تتألّف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنّه إذا ما آمن الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع..."[2].

ومن الدارسين من يلتقي مع ابن خلدون في ربط الحضارة بالاستقرار؛ لأنّ الإقامة هي التي تؤدّي إلى وجود مقوّمات حضارية، فمنهم من أشار إلى ذلك بقوله: "ولكن الحضارة استعملت فيما بعد لمعنى متطوّر متقدّم، يشمل متطلبات حضاريّة تقدّرها حياة الإقامة، حيث يقود الاستقرار إلى أمور حضارية تتعلّق بنواحي الحياة المتكاثرة في الجوانب كافة، المعاشية والاجتماعية والفكرية، والعمرانية والإنسانية الأخرى عموماً"[3].

---

[1] مقدمة، ابن خلدون، ٤٦١.

[2] قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود، ط٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨١، ج٢، ص٣.

[3] أضواء على الحضارة والتراث، عبد الرحمن علي، الجزائر، شركة شهاب للنشر والتوزيع، ص٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ الدراسات الحديثة التي تمَّ الرجوع إليها، تجعل من الحضارة شيئاً عاماً ومشتركاً يدخلها في جملة من الظواهر الاجتماعية ذات طابع مادي وعلمي وفني، لها علاقة واضحة بكل معاني التطور البشري والإنساني[١].

وعلى الرغم من هذه التحديدات لمفهوم الحضارة اصطلاحاً، تظهر رؤية خاصة يمكن في ضوئها أن تحدد ملامح حضارية في العصر الجاهلي، تلك النظرة التي لا تجعل الحضارة مرهونة بزمن ومكان محدّدين، بمعنى أنها ليست مرهونة بزمن أو قرن من القرون[٢]. وهذا يعني أنّ حضارة أي عصر من العصور قد استمدّت تطورها وديمومتها من جذور حضارية تأصّلت سابقاً.

وفي ضوء التعريفات المتعدّدة للحضارة، ووجهات النظر المتقاربة في أكثرها عن مفهوم الحضارة، يمكن الكشف عن اتجاه عام ينظر إلى الحضارة على أنها "نشاط الإنسان في شتّى المجالات بشكل شامل، ويجعلها تشتمل على كثير من جوانب الحياة الإنسانية المختلفة، بحيث تصبح الحضارة مفهوماً عاماً يتناول جل قدرات الإنسان العقلية والنفسية والعملية المتجهة نحو الرقيّ والتقدّم في جميع مناحي الحياة"[٣].

ولمّا كانت الحضارة على هذه الشاكلة التي تمسّ قدرات الإنسان الإبداعية في شتّى مجالات الحياة فإنّه يُطمأن إلى أنّ العرب في العصر الجاهلي قد أوتوا نصيباً وافراً من مقوّماتها، وبخاصة تلك المظاهر المادية المحسوسة لجوانب كثيرة، ارتبطت بظروفهم الخاصة، وما أملته عليهم بيئتهم، واتصالهم بغيرهم من الأمم المجاورة بحكم موقع الجزيرة العربية.

---

[١] الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، نصر محمد عارف، ط٢، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤، ص٤٨.

[٢] المرجع السابق نفسه، ص٤٧.

[٣] تاريخ الحضارة الإنسانية، محمد خريسات، وآخرون، دار الكندي، إربد، ١٩٩٩، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مظاهر الحضارة المادية في العصر الجاهلي:

في ضوء التعريفات السابقة للحضارة بمفهومها الواسع يمكن الوقوف عند ملامح حضارية عامة، ومظاهر ماديّة خاصّة في العصر الجاهلي، يمكن إجمالها في جملة من المظاهر الاجتماعية والصناعية والحربية والعمرانية[١].

وإذا كانت الحضارة ظاهرة إنسانية لا يخلو منها عصر من العصور، ولا شعب من الشعوب، فإنّ العصر الجاهلي بظروفه القاسية، وبيئته الجافة تشكلت لديه حضارة ملائمة للبيئة الجاهلية، فالعرب كغيرهم من الأمم لهم بيئة جغرافية ساهمت في تكوين شكل حضاري نتج عنه مظاهر حضارية متعدّدة.

وتؤكّد كثير من الدراسات ما للبيئة الجغرافية من أثر بالغ في التوجيه الحضاري لدى شعب من الشعوب "لأنّ الإنسان يأخذ مادة حضارية مما حوله، والظروف الطبيعية التي تحيط به لها أعظم الأثر في حفز همّته إلى العمل والإنشاء والابتكار، أو في تنشيط همّته"[٢].

والعرب في الجزيرة العربية لم يكونوا في عزلة عمّا يحيط بهم من الأمم، فثمّة اتّصال بينهم تمّ عن طريق التجارة، والبحث الدائم عن مقوّمات الحياة، وبعد أن تتحقّق هذه المقوّمات تتجلى مظاهر حضارية على مستوى من الرقي، وهو رقي في شتّى المجالات المعيشية ومتطلبات الحياة المختلفة في ذلك العصر، فإنّ عصر ما قبل الإسلام اتّسم بروح الحضارة القوية المؤثرة المتطوّرة، وهي تبدو في حضارة العربي في اليمن

---

[١] حضارة العرب في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٨٤، ص١٩.

[٢] الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع٢٣٧، ١٩٩٧، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحضرموت والحجاز وأطراف الجزيرة العربية، ثمّ استمرت نحو التطـوّر والابتكـار فيما بعد[1].

وتميّزت جزيرة العرب بموقع جغرافي طبيعي جعلها مَهْداً لكثير مـن المظـاهر الحضارية، ولموقعها المتميّز هذا سميت جزيرة العرب لإحاطة البحار بها من أقطارها وأطرافها[2]. وثمّة صفة ظاهرة للجزيرة العربية، فالقسم الأكبر منها تتخلّله البادية ذات الواحات والأغوار، والوديان أدّى هذا إلى وجود سكان البدو، وسكان الحضر[3].

ولعلّ طبيعة جزيرة العرب، وهذا الموقع العام، أدّى إلى وجود تلـك المظـاهر الحضارية المادية التي تتلاءم وحياة العرب في العصر الجاهلي بمختلف بيئاتها.

ويظهر أنّ القدماء الذين اعتنوا بدراسة شؤون البلدان وطبيعتها الجغرافيـة قـد تنبهوا لِوجود مثل هذه العناصر الحضارية في كل بيئة من بيئات العرب فـي العصـر الجاهلي، وبخاصة بلاد اليمن، ومما وصفت به بلاد الـيمن علـى سـبيل المثـال لا الحصر: "واليمن معدن العصائب والعقيق والأدم، والرقيق فإنها تخرج آلات الصـيادلة والعطر كله حتى المِسْك والزَعْفران والبَقْم والسَّاج، والسَّاسَم، والعَاج، واللؤلؤ والديباج، والجَزْع، واليَواقِيت والأبَنُوس، والنَّارْجِيل، والقِنْد، والاسْكَندَروس، والصَبْر، والحَديـد، والرَّصاص، والخَيْزَران، والغَضَار..."[4].

---

[1] أصالة الحضارة العربية، ناجي معروف، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥، ص١٧.

[2] صفة جزيرة العرب، الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، (ت٢٨٠هـ)، تحقيق محمد بن علي الأكـوع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩ ص٤٧؛ ومعجم البلدان، يـاقوت الحمـوي، مـادة جزيـرة، ودراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعـة، الإسـكندرية، ص٦٤.

[3] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٦٥.

[4] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي المعروف بالبَشاري، وضع مقدّمته محمد مخـزوم، دار إحيـاء التراث، بيروت، ١٩٨٧م، ص٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار القدماء إلى الجوانب الحضارية الأخرى من عمران وصناعات، وبينت كثير من الدراسات الحديثة ما كان عليه العرب في الجاهلية من جوانب ثقافية ومعرفية قادتهم إلى إبداع صنع لهم حضارة، وقد عثر المستشرقون وعلماء الآثار والرَّحّالون على نصوص وآثار منقوشة أو مكتوبة في اليمن والحجاز وبقية أجزاء جزيرة العرب تدلّ على المستوى الحضاري، وهناك ما يثبت رقي الهندسة المعمارية وإتقان نظام الري في اليمن. ويبدو جليّاً بناء المدن في الجزيرة العربية، حيث بُنيت القصور، وأقيمت السدود، فضلاً عن مهارتهم في الصناعات والحرف المتعدّدة[1].

ويمكن القول بأنّ ثمّة ظروفاً خاصة ارتبطت بحياة العرب في العصر الجاهلي كانت الدافع الرئيسي لوجود الجوانب الحضارية المتعددة، فالإنسان العربي في العصر الجاهلي كان دائب البحث عن مقوّمات الحياة، يبحث عن أسباب الاستقرار، بشعور واضح من القلق والاضطراب وانعدام الأمن، فطبيعة الحياة والحروب والمنازعات مثلاً تتطلب وجود صناعة الأسلحة والتفوّق والتسابق في صناعتها، والبحث عن لقمة العيش كذلك أدّى إلى صناعة أدوات زراعية لاستخدامها في الزراعة، ولهذا راجت عندهم زراعات متعدّدة، وهكذا فإنّ حاجة العربي إلى العيش سواء أكان ذلك في البادية، أم في أماكن التحضر التي تبدو أشدّ إلحاحاً على طلب مقومات الحضارة، هي التي صبغت العصر الجاهلي بصبغة حضارية.

ويمكن الإشارة إلى أنّ المظاهر الحضارية، تظهر بجلاء في أماكن الاستقرار، أو ما يسمّى بالمناطق الحضارية التي تكون مهيئة لقيام حضارة في غاية من الأهميّة، إلاّ أنّ الشعر الجاهلي كشف كذلك عن سمات حضارية بسيطة في بعض البيئات التي

[1] أصالة الحضارة العربية، ناجي معروف، ص١١٧؛ والحضارة دراسة في أصول وعوامل ثباتها وتطوّرها، حسين مؤنس، ص٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اتّسمت بالبداوة، كما يبدو هذا عند الحديث عن أواني الطعام والشراب، أو صناعة دِعامات بيوت الشَعَر، وغير ذلك.

ووفقاً لمعطيات الحضارة ومقوّماتها، فإنّ ثمّة جوانب يمكن تناولها في هذه الدراسة تكشف عن مظاهر حضارية ماديّة ظهرت في بيئات العرب في العصر الجاهلي، منها ما هو متعلّق بالحياة الاجتماعية يتمثّل في صناعة الملابس وتعدّد أنواعها، والحَلْي وأصنافه المتنوعة وطريقة صياغة أشكال كثيرة منه، وصناعة الطيب وأصنافه، وأواني الطعام والشراب وتعدد أشكالها وإحكام صنعها، وآلات الموسيقا.

ومن جملة هذه المظاهر الحضارية المادية ما عُرِف عند العرب من صناعات وحِرف، منها حرفة الحِياكة والنَّسيج وسمتها الحضارية، وصناعة الأسلحة والمعدّات الحربيّة، وحرفة النجارة والمصنوعات الخشبيّة، وحرفة الزراعة أساليبها وأدواتها.

ويمكن أن تبدو الصورة الحضارية فيما عرفته البيئات العربية من تطوّر في العِمران، شمل القصور، والحصون، والأديرة، فضلاً عن استخدام أدوات ومواد أوليّة استعان بها البنَّاء في فن العمارة.

ويبدو الملمح الحضاري أيضاً في جانب آخر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة العرب الكتابة وأدواتها، إذ يمكن دراسة هذه الأدوات، التي يستعين بها الكاتب في صناعته؛ لأنّها تشكّل صورة حضارية ملموسة.

ولعلّ دراسة هذه الجوانب الهامّة من حياة العرب في العصر الجاهلي تكشف ما كان عليه العرب من حضارة ورُقي، إذ التفت الشعراء إليها واستطاعوا أن يعبّروا عن مضامينها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

يُعدُّ العرب كغيرهم من الشُّعوب والأمم لهم واقعهم وظروفهم الخاصّة بهم، وكل جانب من جوانب الحياة يخضع لتأثيرات نابعة من البيئة والمناخ والموقع الجغرافي، ورؤية الباحث الواقعية التي انطلق منها في هذه الدراسة تؤكّد مقدرة العرب في العصر الجاهلي على التفاعل مع واقعهم وظروفهم، استجابة لمقوِّمات الحياة ومعطياتها.

وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن المظاهر الحضارية الماديَّة للعرب في العصر الجاهلي، إذ تحاول أن تُوضّح جوانب الحضارة الماديَّة المختلفة، والتي جاءت مُعبّرة عن واقع العرب وملائمة لطبيعة حياتهم، وبخاصّة أنّ هذه الجوانب الحضارية تُعدُّ سمة بارزة لعصر ما قبل الإسلام. وانبثقت الدراسة عن رغبة الباحث في دراسة حضارة عصرٍ عاش أهله حياة قاسية، وظروفاً صعبة، رافقها شُعورٌ دائم باليأس تارة والأمل والتحدّي تارة أخرى، حتى أثبت الإنسان العربي في ذلك العصر قدرته على الاستمرار والتحدّي، والوصول إلى هدف يُترجم طموحاته رُغم هذا الصّراع المُلازم بين البقاء والفناء، تلك الثُنائية الضدِّية الجدليّة التي كانت تشغل هاجسه آنذاك.

ولعلَّ هذا الواقع الذي عاشه العرب في العصر الجاهلي كوَّن لهم حضارة مُلبِّية لآمالهم، فجاءت على قدر تحدّيهم؛ ولهذا فقد تولّدت الرّغبة في دراسة الشعر الجاهلي الذي جاء مُعبّراً عن الطُّموح، ومُبرزاً حضارة مُوغِلة في التاريخ؛ حتّى تجلّت صورة الحضارة العربية التي صُبِغت بها البيئة العربية في ذلك العصر.

ولمّا تعدّدت مظاهر الحضارة وتشعَّبت، فقد تمّ الاقتصار على دراسة مظاهر حضارية مادية، إذ إنّ الدراسة بُنيت على أربعة فصول وتمهيد، تناول التمهيد مفهوم الحضارة في اللغة والاصطلاح، وبيّن جانباً من واقع العرب في العصر الجاهلي،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مشيراً إلى المقوّمات التي أعطت البيئة العربية في ذلك العصر بُعداً حضـــارياً ملائمـــاً لمعطيات الحياة، وتبيّن في ضوء ذلك المظاهر الحضارية المادية التي يمكن دراســـتها من خلال استقراء الشعر الجاهلي.

وخُصّص الفصل الأول منها للبحث في مظاهر حضارية اجتماعيـــة ماديـــة؛ أي تلك التي ارتبطت بواقع الحياة الاجتماعية للعرب، فتمّ تناول نماذج من أنواع الملابـــس للوقوف عند السِّمة الحضارية لها، والكشف عن أنواع الحُلِيِّ وأصنافه، وصناعة الطِّيب وأدوات حفظه، وتمّ البحث في معرفة العرب لكثير من أواني الطعام والشراب وأسمائها المختلفة وطريقة صُنعِها، كما تمّ الحديث عن آلات الموسيقا، التي عرفت فـــي بعـــض البيئات العربية.

وتناول الفصل الثاني دراسة مظهر حضاري مـــاديّ آخـــر، صـــوَّره الشـــعر الجاهلـــي بوضوح، يتمثّل هذا المظهر في جملة من الصناعات والحرف التي عرفهـــا العرب في ذلك العصر، فمنها حرفة النجارة والمصنوعات الخشـــبية، والأدوات التـــي استعان بها النجّارون للنهوض بكثير من المصنوعات الخشبية التي احتاج إليها العـــرب في تدبير شئون حياتهم، مثل صناعة القوارب والسفن، والأبواب والكراسي وغيرها.

ومن هذه الحرف كذلك، صناعة الأسلحة وآلات الحرب المختلفة التـــي كانـــت الحاجة إليها كبيرة في عصر المنازعات والحروب، وحرفة الحياكة والنَّسيج التي توافر لها مجموعة من المقومات في البيئة العربية، ثمّ حِرفة الزِّراعة والبحث فـــي أدواتهـــا وأساليبها، من حيث حِراثة الأرض وأساليب ريِّها وتعهّدها بالرِّعاية، وقد جاءت صورة الحرف والصناعات جليّة في أشعار الجاهليين، ومعبّرة عن واقعهم الحضاري.

وعرض الفصل الثالث من الدراسة مظهراً حضارياً آخر، يتعلّـــق بفـــنِّ البنـــاء والعمارة، وهذا الجانب من أكثر المظاهر إلصاقاً بالحضارة المادية، وهو الأمر الـــذي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشار إليه ابن خلدون في مقدّمته، إذ جعله أمراً ضرورياً لازماً لِرُقي البلدان وازدهار حضارتها، فكلّما كانت البلاد مشتملة على ضروبٍ من الأبنية والعمارة، كانت أقرب إلى الحضارة والتّرف والرُّقي، ومن هنا فقد تمّ في هذا الفصل دراسة فنّ البناء من حيث تتبُّع أشهر مواطنه، ودراسة أنواع العمارة وأشكالها من قصور وحصون وأديرة وغيرها، ومن ثمّ الإشارة إلى جانب في غاية الأهمية دَلالة على الحضارة، يبدو هذا في تلك المواد التي استعان بها البنَّاءون في إخراج البناء إخراجاً هندسياً مُميّزاً.

وبحث الفصل الرابع في الكتابة وأدواتها؛ لأنّها تُشكّل مظهراً حضارياً فكرياً يدل بوضوح على ثقافة العرب واطلاعهم في ضوء معرفة الكتابة والقراءة، وهي تُشكّل مظهراً حضارياً مادياً؛ لأنّها حِرفة لها صانع تخيَّر لها موادَّ وأدوات استعان بها في تجويد حرفته؛ ولهذا جعلها ابن خلدون من جملة الصَّنائع.

وقد تمّ في هذا الفصل دراسة الجزئيات التالية: معرفة الكتابة وموضوعاتها عند عرب الجاهلية، والكاتب أو الصانع الذي اتّخذ من الكتابة مهنة وحِرفة، ثمّ الحديث عن أهم الأدوات التي استعان بها الكاتب في الكتابة عليها أو بها، وقد عكس الشعر الجاهلي صورة هذه الجزئيات التي تُمثّل جانباً مهماً من حياة العرب.

وكانت دراسة هذه الفصول بجزئياتها وفق منهج واضح يمكن أن يُسمّى بالمنهج التاريخي التحليلي، الذي اعتمد على دراسة الأخبار والروايات والقصص التاريخية، لاستنباط الوقائع الدَّالة على حضارة العرب في العصر الجاهلي، ثمّ جاء الجانب التحليلي متمثّلاً في استقراء النماذج الشعرية ودراستها، وهي النماذج التي صوّر فيها الشعراء الجاهليون المظاهر الحضارية المادية، فقد كان الشعر الجاهلي صورة صادقة ومُعبّرة عن الواقع الحضاري، وفي جملة الشواهد الشعرية التي تمَّت دراستها تبيّن أنها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت ذات أهميّة كبيرة في تصوير هذا الجانب المُضيء من حياة العرب في عصر ما قبل الإسلام.

ومن جملة الإشكاليات التي واجهت الدراسة قلّة النّماذج الشعرية التي تصوِّر جزئية أو أكثر من جزئيات الدّراسة، ومن ذلك الحديث عن أدوات الزراعة على سبيل المثال، وما لاحظه الباحث من تكرار في النماذج الشعرية التي جاءت تُبيّن مَلمحاً حضارياً مُعيناً، وبخاصة ما ارتبط بحديث الشعراء عن الملابس والحُلي والأسلحة.

ويمكن الإشارة إلى بعض الدراسات التي تناولت جزئية أو أكثر من جزئيات الدراسة أذكر منها: دراسة واضح الصَّمد، الموسومة بالصناعات والحِرف عند العرب في العصر الجاهلي. وهي دراسة تاريخية اعتمد فيها الباحث على الدراسات التاريخية والروايات والأخبار التي أكّدت معرفة العرب في العصر الجاهلي كثيراً من الصناعات والحِرف.

ومنها كذلك دراسة خليل الرفوع الموسومة بمظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي، إذ كشفت الدراسة عن نشاط اقتصادي مزدهر في كثيرٍ من البيئات العربية في العصر الجاهلي، وقد أفادت الدراسة منها في معرفة المظاهر الاقتصادية التي ساهمت في إبراز الجوانب الحضارية.

ومن الدراسات السابقة أيضاً دراسة ليلى العمري الموسومة بمجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي. أشارت الباحثة إلى سِمات حضارية اجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي تمثّلت في صِناعة الملابس، وما نهض به الصَّاغة في صِناعة أشكال متنوّعة من الحُلِيِّ، وأشارت الباحثة كذلك إلى ما عُرِف عند العرب من أنواع الطَّيب وأشكاله، والأدوات التي اتُّخِذت لحفظه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما يتعلّق بمصادر الدراسة ومراجعها، فقد تمّ الاعتماد على مصادر ومظانّ كثيرة تتّصل بموضوعات الدراسة مثل: دواوين الشعر الجاهلي، وكتب المجاميع والمختارات الشعرية المختلفة، والمعاجم اللغوية، وكتب البلدان، وأفادت الدراسة من مراجع أدبية وتاريخية كثيرة، أغنتها بما توافر فيها من معلومات أسهمت في التَّوصّل إلى نتائج مهمّة، أذكر منها: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي، والملابس العربية في الشعر الجاهلي ليحيى الجبوري، ودراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام للسيد عبد العزيز سالم، وغيرها من الدراسات الحديثة التي بحثت في تاريخ العرب قبل الإسلام، وتلك المراجع التي اعتنت بدارسة الحضارة العربية قبل الإسلام، وبخاصة تلك التي تناولت بالدراسة حضارة بلاد اليمن قبل الإسلام.

وأخيراً، أرجو من الله العليّ القدير أن أكون قد وفّقت فيما قدّمت، إنّه نِعم المولى ونِعم المجيب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجمهورية العربية السورية
جامعـــــــة دمشـــــــق
كليـــــة طـــــب الأســـــنان
قســـم التيجـــان والجســـور

دراسة مقارنة سريرية ومخبرية لقوى الضغط المؤثرة على بعض أنظمة التعويضات الخزفية الخالية من المعدن

A CLINICAL AND EXPERIMENTAL COMPARATIVE STUDY OF COMPRESSIVE STRENGTHS AFFECTING SOME OF CERAMIC FREE METAL PROSTHETIC SYSTEMS

بحث علمي أعد لنيل درجة الدكتوراه في علوم طب الأسنان
اختصاص التيجان والجسور

بإشراف الأستاذ الدكتور
فندي الشعراني
أستاذ في قسم التيجان والجسور
كلية طب الأسنان - جامعة دمشق

المشرف المشارك الأستاذ الدكتور
رفيع جـبرة
أستاذ في المعهد العالي
للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا

إعداد
الباحث الدكتور محمد عميد عبد الكريم

2004

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

المظاهر الحضارية المادية الاجتماعية

أولاً: نماذج من أنواع الملابس وسمتها الحضارية.

ثانياً: الحُلِيّ وأصنافه.

ثالثاً: صناعة الطيب وأصنافه.

رابعاً: أواني الطعام والشراب.

خامساً: آلات الموسيقا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

المظاهر الحضارية المادية الاجتماعية

تعدّدت المظاهر الحضارية المادية عند عرب الجاهلية، وكانت تأتي في مجملها استجابة لظروف البيئة، وطبيعة الحياة التي كان يعيشها الإنسان العربي في ذلك العصر، إذ يمكن أن تكون متطلبات الحياة على الرغم من بساطتها بمثابة دلائل ظاهرة للعيان تكشف عن جوانب حضارية استوعبها الشعر العربي الجاهلي، وعبّر عن مضمونها، ويمكن تناول جوانب هذه الحضارة الملازمة للحياة الاجتماعية عند العرب على النحو الآتي:

أولاً: نماذج من أنواع الملابس وسمتها الحضارية:

عُرفت الملابس بأنواعها المتعدّدة قبل العصر الجاهلي عند كثير من الأمم السابقة، وتطوّرت من حيث صناعتها ونسجها بمرور الزمن لِكي تتناسب وطبيعة الحياة في كل عصر من العصور، ومن المعروف أنّ حياة العربي في الجاهلية تتّسم بالبساطة في طرق معيشتهم، وهذا ينعكس على كل ما يتعلّق بمقوّمات الحياة عندهم، والملابس بأنواعها المتعددة هي جانب مهم من جوانب حياتهم البسيطة، ولهذا فإنّها على درجة من بساطة الحياة نفسها في بداية أمرهم، ولكنها بعد ذلك أخذت صناعتها تتطوّر حيناً بعد حين وبخاصة بعد أن اطلع العرب على حضارة الأمم المجاورة لهم، واتّسع نطاق التجارة بين عرب الجاهلية والأمم الأخرى، فهم أيضاً بحاجة إلى مواد خام يمكن من خلالها صناعة أنواع متعدّدة من الملابس داخل الجزيرة العربية، وأيّاً كانت طريقة الحصول على الملابس فتعدّد أنواعها وصناعتها أمر في غاية الأهمية للدلالة على مظهر حضاري مادي يرتبط بحياة العربي الاجتماعية، والشعر الجاهلي مصدر وثيق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دال على هذا المظهر وذلك أنّ الشعراء تحدّثوا عن أنواع الملابس والمواد الخام التي كانت تصنع منها في العصر الجاهلي.

وكشف الشعر أيضاً عن صناعة النسيج والحياكة والخياطة، كما كشف عن أدوات هذه الصناعة. وأهمّ أنواع الملابس التي اشتمل عليها الشعر الجاهلي، والتي تدلّ على حضارة ذلك العصر هي:

- **الأَتْحمِيُّ:** والأتحمية ضرب من البرود اليمانية، فيها خطوط خُضر وحمر[1]، وهي عند العرب من الثياب التي تلبسها المرأة، إذا متّعها زوجها[2]، ويبدو أنّ مصدر هذا النوع من الملابس منسوب إلى أتحم، وهو موضع باليمن[3]، وكانت بلاد اليمن قديماً من أكثر البلاد تحضّراً وشهرةً بأنواع الصناعات والحرف، ومنها اطلع العرب على حضارات غيرهم.

وقد وصف الشعراءالنساء اللاتي لبسن هذا النوع من الثياب، ومن ذلك قول بِشْر ابن أبي خازم في وصف صاحبته[4]:

فيَا لكِ حَاجَةً وَمِطالَ شَوْقٍ وقَطْعَ قَرِينَةٍ بَعْدَ ائْتِلافِ

كأنَّ الأَتْحميَّةَ قَام فيها لِحُسْن دَلالِها رَشَأٌ مُوافِي

ويبدو أنّ هذا الضرب من الثياب كان بحاجة إلى عُمّال مهرة يشرفون على حياكته وصناعته، وإلى مادة خام توافرت في بلاد اليمن، وهي مصدر هذا النوع من

---

[1] لسان العرب، ابن منظور: مادة (تحم)، والمخصص، ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧: ٧٣/٤.

[2] معجم الملابس في لسان العرب، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥: ٣٧.

[3] معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري، ت٤٨٧هـ)، تحقيق مصطفى السقا، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧: ١٠٤.

[4] ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢: ١٣٢-١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثياب، إذ يتم غزله ثمّ يصبغ وينسج فيأتي موشياً ومعصباً، وهذا ما يبدو في قول علقمة الفحل يتحدث عن بعض أنواع الملابس[١]:

سَمَاوَتُهُ أَسْمَالُ بُردٍ مُحَبَّـــــرٍ وصَهْوَتُهُ من أَتْحُميٍّ مُعَصَّـــــبِ [٢]

ويبدو أنّ هذه الثياب كانت تصبغ باللون الأحمر في أغلب الأحيان، ومنها طريقة الصبغ التي تعقب عملية الغزل والعصب، وهي مرحلة بحاجة إلى خبرة وإتقان تعطيها طابعـاً حضارياً مميّزاً، يظهر هذا في قول خفاف بن ندبة[٣]:

وَمَعشُوقَة طلَّقتُها بِمُرُشَّـــــةٍ لها سَنَنٌ كالأَتحَمي المُخـــــرّق [٤]

وتبدو الأتحميَّة كالعباءة تُلفُّ على الجسد وتكون ساترة لـه عـن أي شـيء، يقـول الشَّنْفرى[٥]:

ويَومٍ من الشّعْرَى يذُوبُ لُعابُهُ أفاعِيهِ في رَمْضائِه تَتَمَلْمَـــلُ [٦]

نَصَبْتُ لهُ وجْهي ولا كِنَّ دُونَهُ ولا سِيْرَ إلاّ الأَتَحَمِيُّ المُرَعْبَلُ [٧]

- **البُرُود:** يبدو أنّ بلاد اليمن قد اشتهرت على وجه الخصـوص بكثيـر مـن أنـواع الملابس، ومنها البرود، وهذا عائد إلى تحضّرها وكثرة ما بها من مـواد خـام قابلـة لصناعة أنواع متعدّدة من الملابس، والبرود من ثياب المرأة التي تبـدو فيهـا معـالم حضارية بارزة سواء أكان ذلك في طريقة صنعها أم في تلك الخطوط والرسومات التي توشّى بها حتّى إنّها عرفت بجودتها وغلاء ثمنها، وقد أشارت المعاجم إلى أنّ البرد من

---

[١] ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصّقال ودرية الخطيب، ط١، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩: ١١٩.

[٢] المحبر: المزين والمنمّق.

[٣] الأصمعيات، الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السـلام هـارون، بيروت، ١٩٥٥: ٢٣.

[٤] المرشّة: الطعنة التي اتسعت فتفرّق دمها.

[٥] ديوان الشنفرى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١، ١٧.

[٦] الشعرى: كوكب يطلع فترة الحر الشديد.

[٧] الكِنَّ: الستر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثياب هو ثوب مخطوط وخصّ بعضهم به الوشي، وفيه لُمَع سِواد وبياض يمانية[1]. ومما يجدر ذكره بأنّ هذا النوع من الثياب لم تكن ترتديه غير النساء المترفات، إذ يدلّ على ذلك غلاء ثمنه[2].

ووصف الشعراء النساء المُترفات في الجاهلية ممن كنَّ يرتدين هذا النوع من الملابس، ومن ذلك قول طرفة بن العبد[3]:

جَازتْ البيدَ إلى أرْحُلِنـــــا آخِرَ اللّيلِ بِيَعفُورٍ حَـــــذِرْ [4]
ثُمّ زَارَتْنِي وصَحْبِي هُجَّـعٌ في خليطٍ بَين بُرْدٍ ونَمِـــــرْ [5]

ثمّ يصف طرفة امرأة تلبس برداً لكنه يبرز مفاتنها، وهذا يدلّ على أنّ للبرد ألواناً متنوعة، قال[6]:

نَدَامايَ بيضٌ كالنجوم وقَيْنَـــةٌ تروحُ علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَـدِ
رَحيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رفيقة بِجَسِّ النَّدامى بضّةُ المُتَجـرّدِ

ويتكرر المعنى نفسه عند النابغة الذبياني في تشبيهه قوائم الفتيات بِرَقْم البُرود اليمنية، وبخاصة البُرود التي تأتي من الحَال، وهي بلد من بلاد الأزد باليمن[7].

---

[1] لسان العرب: مادة (برد)، ومعجم الملابس في لسان العرب: ٣٧، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو هلال العسكري، تحقيق عزة حسن، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩: ١/١٩٩.

[2] الملابس العربية في الشعر الجاهلي، يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩: ٧٩.

[3] ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصّقال، مطبوعات مجمع اللغة العربي، دمشق، ١٩٧٥: ٥٢.

[4] اليَعفور: الظَّبي الذي يميل إلى الحُمْرة.

[5] النّمر: جمع نَمِرة وهي ضرب من الثياب.

[6] ديوان طرفة: ٢٩.

[7] ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر، الشركة التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦: ٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغالباً ما ارتبط حديث الشعراء عن البرود بحديثهم عن نوع آخر من الملابس سيأتي الحديث عنه لاحقاً وهو المجاسد، ومن ذلك قول قيس بن الخطيم[1]:

مِنَ اللّائِي إذا يَمْشِينَ هَوْنــاً تَجَلْبَبنَ المجاسِدَ والبُـــــرودا
كأنَّ بُطُونهُنَّ سُيوفُ هِنْـــدٍ إذا مَا هُنَّ زَايَلْنَ الغُمُـــــودا

ويبدو الملمح الحضاري في وشي هذا النوع من الثياب وما يستدير به من حواشٍ، فضلاً عن الطريقة التي تتم بها صناعتها، قال الأعشى مصوّراً ذلك[2]:

يُخَلَّى سبيلَ السيفِ إنْ جالَ دونها وإن أنذرت لم يَفْنَ شيئاً تديرُها
كأنَّ هُجاج العِرْقِ في مُسْتَدَارِها حواشِي بُرودٍ بين أَيْدٍ تُطيرُهــا

ولعلَّ الأيدي التي باشرت صناعة هذا النوع من الثياب قد تفنّنت في صناعته وجعله على طرائق متنوعة، ومن ذلك ما جاء في شعر جِران العَوْد النُّميري الذي يشبّه بطن المرأة الخميصة بِبُرد مسلسل[3]:

لأن يَتَجلَّى الليلُ عنها خميصةً كأنَّ حشاها طيُّ بردٍ مُسلْسَــلِ

وهناك نماذج أخرى دالّة على براعة العرب بصناعة هذا النوع من الثياب[4].

- **الجِلْباب:** والجلباب نوع من الملابس أيضاً كثر الحديث عن وصفه في الشعر، وهذا النوع تلبسه المرأة غالباً، إلاّ أنّ ثمّة نوعاً منه يلبسه الرجال وبخاصّة ما يختصّ به الفارس أحياناً، ويبدو أنّه ثوب أوسع من الخِمار دون الرداء تُغطي به المرأة رأسها

---

[1] ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٢: ١٤٦.

[2] ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، ١٩٥٠: ٤٢١.

[3] ديوان جران العود النُميري، صنعة أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق نوري حمودي القيسي، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٢: ٣٢.

[4] انظر على سبيل المثال: الاختيارين، الأخفش الأصغر، تحقيق فخر الدين قباوة: ١١٩، والمفضليات، المفضل الضبّي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٦، بيروت، ١٩٦٣: ٢٢٣، وديوان الأعشى: ٣٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصدرها، وقيل: هو ثوبٌ واسع دون الملحفة تلبسه المرأة، وقيل أيضاً: هو الملحفة[1]. ويمكن أن يكون ثوباً أو ملحفة على درجة كبيرة من السَّعة، أو ثوباً فضفاضاً يدلّ على ذلك ما جاء في التنزيل من ذكر للجلابيب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها النَّبي قُلْ لأزواجكَ وبَناتك ونِساءِ المؤْمِنين يُدنِين عليهنَّ مِنْ جَلابيبهن﴾[2]. قال ابن السِّكيت: قالت العامرية: الجلباب الخمار، وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها واحدها جلباب، والجمع جلابيب[3]. وأياً كان الجلباب من هذه الأوصاف، فإنّ مادّته الأولية توافرت أيضاً بكثرة وانتشرت صناعته في الجزيرة العربية ولبسته المرأة، وقد جاء وصفه في الشعر الجاهلي بصورة جليّة من بين الملابس التي تضمّنها الشعر، ومن ذلك قول ابن مقبل يصف الفتاة المنعّمة[4]:

خَوْدٌ منعَّمةٌ كأنّ خُلافَها وَهْناً إذا فُرِرَتْ إلى الجلبَابِ

ويظهر أنّ الجلباب رداء واسع يشمل الصدر أيضاً ويغطّي جسد المرأة، يبدو هذا في قول امرئ القيس يصف رحيل قوم المحبوبة[5]:

كأنَّهنَّ غدّاةَ البينِ إذْ رحَلُوا مِنْها إذا شُقَّ عنهنَّ الجَلابيبُ

ويختلف الجِلْباب عن لباس المرأة الذي ترتديه وقت النوم، وهو ما يُسمّى بالمِفْضل، ويبدو هذا في قول الأعشى يتحدّث عن إحدى مغامراته مع النساء، وقد دخل على الجارية ترتدي مِفْضَلها وقد تحلَّلت من جلبابها، يقول[6]:

---

[1] اللسان: مادة (جلب)، والمخصص: ٣٩/٤.

[2] الأحزاب: ٥٩.

[3] اللسان: مادة (جلب)، ومعجم الملابس في لسان العرب: ٤٦.

[4] ديوان تميم ابن مقبل، تحقيق عزة حسن، دمشق، ١٩٦٢: ٢٢٥.

[5] ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨: ٤٣٩.

[6] ديوان الأعشى: ٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنْ تَعْهديني ولَي لِمَّـــــــةٌ فإنَّ الحوادِثَ أَلْوَى بِهَـــــــا
وَقَبْلَكِ ساعَيْتُ في رَبْـــرَبٍ إذا نامَ سامِرُ رُقَّابِهـــــــــا [1]
تُنازِعُني إذ خِلْتُ بُردَهـــا مُفَضَّلَةً غَير جِلبابِهَـــــــــا [2]

وكانت أجود أنواع الجلابيب تصنع من الحرير، وقد حصل عليه العرب عن طريق التجارة، حتى إنّ تجارته راجت في الجزيرة العربية، كما أنّ بلاد اليمن قد اشتهرت بذلك، ويبدو ذلك في حديث ابن مقبل عن الظَعن، يصف نساءً وقد لبسن جَلابيب الحرير التي لُفَّ عليها المَلاءة من نسجٍ واحد، يقول[3]:

بَلْ هَلْ تَرى ظُعناً كُبيشَة وسْطها مُتَذَنِّباتٌ الخَلِّ مـــن أوْرَالِ [4]
لَبِستْ جلابيب الحرير وخَـدّرت بالرَّيطِ فوق نواعجٍ وجِمَـــالِ [5]

ويمكن أن يكون الجِلباب متّصلاً مع الخمار الذي يُغَطِّي وجه المرأة كذلك، إذ تبدو هذه الصورة عند القتّال الكلابي، عندما تتكّر بزيّ امرأة، وأبدى للقوم بنانه المُخضّب، فقال[6]:

أَلا هَلْ أَتَى فِتيان قومي أَنَّنـــي تَسمَّيْتُ لَمَّا اشتدّتْ الحَربُ زَيْنَبـا
وأدْنَيْتُ جِلبابي عَنْ نبْتِ لِحْيتي وأبدَيْتُ لِلقومِ البَنانَ المُخضَّبَـــــا

وفي ضوء وصف الشعراء الجاهليين للجلباب يتّضح أنه كان يُظهِر المرأة في صورة حسنة، أي أنّه يعطيها مظهراً جماليّاً حسناً، وهذا ما يبدو في قول الأعشى يصف فتاةً جسمها ممتلئ مديد قد كساه الحُسن كأنّ أسفله كثيبٌ من الرمال، يقول[7]:

---

[1] الربرب: القطيع من البقر.
[2] المفضلة: أن تلبس الجارية ثوباً وقت النوم.
[3] ديوان ابن مقبل: ١٣١.
[4] أورال: الطريق النافذ.
[5] الريطة: الملاءة من نسج واحد.
[6] ديوان القتّال الكلابي، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩: ٣٥.
[7] ديوان الأعشى: ٤١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هِرْكَوْلَةٌ مثلُ دِعْصِ الرَّمْلِ أسفلُها مَكسُوّةٌ من جَمال الحُسنِ جِلبَابا [1]

– **الدِّرْع:** هذا النوع من الملابس خاص بالمرأة كذلك، له طرائق متعدّدة في الصناعة، وقد ورد في الشعر باسم آخر هو القميص، وهو بذلك قميص المرأة والثوب الصغير الذي تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها، وجاء في تهذيب اللغة فيما يخصّ الدِّرع، بأنّه ثوب تجوب المرأة وسطها وتجعل له يدين وتخيط فرجه[2]. وروى القرطبي، أنّه كان للمرأة في الجاهلية الأولى قميص من الدرع غير مخيط الجانبين[3].

ويبدو أنّ صانعي هذا النوع من الملابس بَرعوا في إخراج أشكالٍ متنوعة منه من حيث طريقة الصنع، وإضافة أشياء أخرى كالأزرار والألوان، وفي هذا إشارة واضحة على ملمس حضاري مادي؛ ولهذا جاء ذكر الدِّرع والمِدْرع في الشعر الجاهلي كثيراً، ومن النماذج التي جاء فيها ذكره، قول علقمة الفحل يصف امرأة[4]:

صِفْرُ الوِشَاحين مِلءُ الدِّرعِ خَرْعَبَةٌ كأنّها رَشَأٌ في البيتِ مَلْزُومُ

ويتكرر المعنى نفسه عند الأعشى في وصف محبوبته التي تملأ الدرع، ويغطّي أردافها القميص[5]:

صِفْرُ الوِشَاحِ مِلءُ الدِّرعِ بَهْكَنَةٌ إذا تأتّى يَكَادُ الخَصرُ يَنْخَزِلُ

---

[1] هركولة: عظيمة الوركين، ودِعص الرمل: كثيب الرمل.

[2] لسان العرب: مادة (دَرع). والملابس العربية في الشعر الجاهلي: يحيى الجبوري: ١٣٢.

[3] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠: ١٨٠/١٤، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، دار المعرفة، بيروت: ٢٦٠/٣.

[4] ديوان علقمة: ص٦١.

[5] ديوان الأعشى: ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو وصف الدِّرع كذلك في حديث امرئ القيس عن بعض من مغامراته الليلية عندما دخل على عشيقته، إذْ يصف دِرعها، ولعلّ هذا النوع مختصّ بلباس المرأة صغيرة السن، يقول[1]:

دَخَلتُ على بيضاءَ جُمٍّ عِظامُها تُعَفِّي بِذَيلِ الدِّرعِ إذْ حُيْتُ مَوْدِقي[2]

ويظهر أنّ الدّرع يُزيّن المرأة ويجعلها تبدو بمظهر يرضي عنها زوجها، حتى إذا ما خلعته أضحت بصورة مستهجنة في نظره، يدلّ على ذلك هجاء جِران العَوْد النميري لزوجته[3]:

إذا ابْتُزَّ عَنْها الدِرعُ قيل: مُطَّرَدٌ أحَصُّ الذُّنابَى والذِّراعيْن أرْسَخُ

وورد في الشعر الجاهلي أيضاً المِدْرع والمِدْرَعة، ويبدو أنهما نوع من الدِّرع، وتكون المِدْرعة مصنوعة من الصُّوف، تكون على أشكال متنوعة، أكثر ما يلبسها الرجال[4]. وممّا جاء في وصفها، قول ابن مقبل يتحدّث عن المِدْرع الذي شُقَّ منه الرّدن[5]:

شَقَّتْ قُسيَّان وازْورَّت، وما عَلِمت مِنْ أهلِ تُربَانَ مِنْ سُوءٍ ولا حَسَنِ[6]

واشْتَقَّتْ القُهبَ ذاتَ الخَرجِ من مَرَسٍ شَقَّ المُقَاسِمِ عنهُ مِدْرَعَ الرَّدْنِ[7]

ومن الملاحظ أنّ هذا النوع من الملابس تلبسه المرأة في مناسبات كثيرة، حتى في الأحزان عندما تفقد عزيزاً عليها، ويبدو هذا في قول ابن مقبل أيضاً[8]:

---

[1] ديوان امرئ القيس: ١٧١.

[2] تُعَفِّي: تُدرِّس وتُغطِّي. والدرع: قميص المرأة الحَدثة، ومَوْدِقي: مَسْلكي.

[3] ديوان جران العود: ٢.

[4] المخصص: ٣٦/٤، والملابس العربية في الشعر الجاهلي: ١٣٤.

[5] ديوان ابن مقبل: ٢٨١.

[6] تُربَان: قرية قريبة من مكّة.

[7] القُهب: جمع قَهْب، وهو الجمل المُسِنّ، ومَرس: موضع بني نمير.

[8] ديوان ابن مقبل: ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخَوْقاءَ جَرْداءَ المسارحِ هَوْجَــلٍ بِها لاسْتِداءِ الشَّعْشَعاناتِ مَسْبَــحُ [1]

يُبكّي بِها البومُ الصَّدى مِثلَما بَكَى مَثَاكيلُ يَفْرينَ المَدارِعَ نُـــــوَّحُ [2]

وتتكرر صورة المدرع والمدرعة كذلك في الشعر الجاهلي[3]، وهي في حقيقة الأمر ثياب تدلّ على مقدرة صانعيها وحرصهم على تصميمها وإخراجها على صور متعدّدة، ممـــا يكسبها مظهراً جماليّاً يدلّ على حضارة مادية مترفة في العصر الجاهلي.

- **الرَّيْطة:** هي نوع من الملابس، وتعدّ نوعاً من المَلاحِف التي كانت تتّصف بـــالطول، فهي تصنع على عدّة أشكال، منها ما يكون قطعة واحدة، ومنها ما يكون خلاف ذلـــك، وقد جاء في المعاجم أنها تسمّى المُلاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لِفْقَين، وقيل هو كل ثوب ليّن دقيق، والجمع رَيْط ورِياط، وقال الأزهري: لا تكون الريطة إلاّ بيضـــاء، ومنها ما يكون قطعة واحدة غير ذات لفقين كلها نسج واحد[4].

إنّ هذا التنوّع في شكل الريطة وصباغتها باللون الأبيض، حتى أنهـــا اختصّـــت بهذا اللون يدلّ على ما يبذل في صناعتها من جهد واضح، وعلى دقّة متناهية في الذوق والتصميم، ممّا يعطيها بُعداً حضارياً لافتاً، في بيئة عربية جاهليـــة لا يفصـــلها عـــن مقوّمات الحضارة فاصل، ولا هي بمنأى عن التحضّر. ولم يغفل الشعر ذكر هذا النوع من الملابس، فهذا المُرّار[5] بن منقذ يصوّر المرأة المرفّهة المنعّمة ويرسم لهـــا مشـــهداً

---

[1] الخوقاء: المفازة والأرض الواسعة الجوف لا ماء فيها. والشعشعانات: النَّاقة الجسيمة.

[2] االمثاكيل: جمع مثكلة، وهي المرأة التي فقدت وحيدها. ويفرين: يقطعن.

[3] انظر على سبيل المثال ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق عبد الحفـيظ الســطلي، ط٢، دمشــق، ١٩٧٧: ٥١٣.

[4] لسان العرب: مادة (ريط)، والمخصص: ٧٧/٢، وفقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك ابن محمد، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبـــي، القـــاهرة، ١٩٣٨: ٢٥٣، ومعجم الملابس في لسان العرب: ٦٥.

[5] الشاعر هو المُرّار بن منقذ بن عبد بن عمرو بن مهدي بن مالك بن حنظلة، انظر المفضليات: ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يــدلّ على أنها متحضرة تلبس أنواعاً من الملابس، كل نوع منها يناسب موقفاً محدّداً، يذكر من بينها لبس الرَّيْط، يقول[1]:

يبَهظُ المِفضَلَ من أرْدافِهـــــا ضِفرٌ أُردِف أنْقَاء ضِفِـــــــرْ [2]

وإذا تَمشِي إلى جَاراتَهـــــا لم تكُنْ تَبلغُ حتّى تَنْبَهِـــــــرْ

لا تَمسُّ الأرضَ إلاّ دُونَهـــــا عن بَلاطِ الأرضِ ثوبٌ مُنْعَفِـــرْ

تَطأُ الخَزَّ ولا تُكرِمُـــــــهُ وتُطيلُ الذّيلَ منهُ وتَجَـــــــرّْ

وترىَ الرَّيطَ مَواديعَ لَهـــــا شُعُراً تلبَسُها بَعدَ شُعُـــــــرْ [3]

ويصف الأفوه الأودي المرأة الحسناء في خدرها وهي تلبس هذا النوع من الملابس وقد ضُوعِف في نسج الريطة، أي أنها أحكمت الصنع على أيدي مهرة، يبدو هذا في قوله[4]:

مِنّا مُسافٍ يُسافي النّاسَ ما يَسَروا في كَفِّهِ أكعُبٌ أو أقدُحٌ عَطُـــــفُ

تَتْبعُ أسلافَنا عِينٌ مُخـــــــدّرةٌ من تحتِ دَوْلجَهِنَّ الرّيطُ والضّعفُ [5]

ومن الملاحظ، أنّ أغلب أنواع الملابس هي من بلاد اليمن التي توافرت فيها كل مقوّمات الحضارة والتحضّر، وأكثر ما تحتاج إليه صناعة الملابس توافر فيها، وعــن طريق التجارة وصلت المواد الخام إلى معظم أطراف الجزيرة العربية وخارجها.

---

[1] المفضليات: ٩١-٩٢، والاختيارين: ٣٥٩.

[2] يبهظ: يملأ، والمفضل من الملابس: ما تلبسه المرأة في خلوتها، وضفر: جمع ضفرة وهي الرحلة العظيمة.

[3] المواديع: جمع ميدع وهو الثوب يصان به الثوب، وشُعُر: الثوب يلي الجسد.

[4] ديوان الأقوه الأودي، هدارة بن عمر بن مالك، تحقيق محمد التونجي، ط١، دار صادر، بيــروت، ١٩٩٨: ٩٥.

[5] العِين مفردها العيناء وهي الحسناء العينين. والدَولج: المخذع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهر صورة الريط في حديث ابن مقبل عن الكرم والفخر بلبس أفخر أنواع الملابس اليمانية غالية الثمن، ممّا يدل على أنّ هذا النوع من الملابس صناعة يمنية خالصة، ويبدو أنّ الرَّيط من ملابس الرجال أيضاً، يقول[1]:

مَقَارٍ حينَ تَنْكفِئُ الأفاعي إلى أحجَارِهِنَّ من الصَّقيعِ
تَرى الرَيطَ اليَمانيَ دانِيَاتٍ على أقْدامِهِمْ وَقْتَ السُّروعِ

وتتكرّر الصورة نفسها عند ابن مقبل، وكأنّ هذا النوع وغيره من الملابس كان مدعاة للفخر مما يعطيها أيضاً بعداً حضارياً مادياً شهده العصر الجاهلي، يقول[2]:

وإنّا لَنَزَّالونَ تَغشى نِعالَنَا سَوابِغُ من أصنافِ ريْطٍ ورَفرَفِ [3]
مَكاريمُ للجيرانِ بادٍ هَوانُنا ذواتُ الذُرى منها سَمينٌ وأعجُفُ [4]

وحديث الشعراء عن هذا النوع من الملابس ينبئ عن بيئة متحضّرة في جوانب متعدّدة من حياتها، وصورة الحضارة المادية الاجتماعية يكشف عنها حديثهم عن النساء المترفات، وهذا دليل على التنعّم الذي لا يمكن أن يظهر في بيئة منعزلة عن مقوّمات الحضارة، يقول سُلْمى بن ربيعة بن عامر الضبي يصف النساء اللواتي تنعمن بهذه الملابس[5]:

والبيضَ يَرفُلْنَ كالدُّمى في الرَّيطِ والمُذهَبِ المَصُونِ [6]
والكُثْرَ والخَفْضَ آمِناً وشِرَعَ المِزهَرِ الحَنون

---

[1] ديوان ابن مقبل: ١٦٥.
[2] نفسه: ١٩٨.
[3] الرفرف: الدقيق من الديباج.
[4] ذوات الذرى: النوق ذوات السنام.
[5] شرح حماسة أبي تمام، التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة: ٧٠٤/٢.
[6] الرفل: الخُيلاء، والمزهر: العود.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من لَذَّةِ العيشِ والفَتـــــــى للدّهرِ، والدّهرُ ذو فُنُـــــــونِ

وهكذا لم يغفل الشعراء الحديث عن هذا النوع من الملابس، إذ تكرّرت صـــورة الريطة بأشكالها المختلفة التي تلبسها المرأة والرجل على حدّ سواء، وما جاء في حديث الشعراء عن وصف النساء المُترفات والمُنعّمات وقد لَبِسنَ الرَّيط يدلّ علـــى التحضّـــر والتنعُّم[1].

– **السّابِرِيّ:** ارتبط هذا النوع من الملابس باليمن، إذْ ورد ذلك فـــي الشـــعر الجـــاهلي منسوبة إلى اليمن، إلاّ أنّ المعاجم أشارت إلى أنّه نوع من الثياب الرقاق، فكل رقيـــق سابِرِيّ نسبة إلى سَابُور على غير القياس، وهي كُوْرة في بلاد فارس[2].

وأيّاً كان مصدر وجوده فإنّ معرفته عند العرب يدل علـــى اتصـــالهم بغيـــرهم كالفرس مثلاً، وهذا يعلي من شأن الحضارة عندهم. وفي المثل: (عرض سَابِرِيّ) يقوله من يُعرض عليه الشيء عرضاً لا يبالغ فيه؛ لأنّ السَّابِرِي من أجود الثياب يُرغب فيـــه بأدنى عرض[3].

وجاء ذكر السَّابِرِي في الشعر الجاهلي كثيراً، ومن ذلك قول حاتم الطائي[4]:

دِيارَ التي قامَتْ تُريكَ وقَد خَلَتْ وأقْوَتْ من الزّوارِ كَفّاً ومِعصَمَـــا
تهادى عليها حَلْيُها ذاتُ بهجَـــةٍ وكَشْحَاً كطَيِّ السّابِريّة أهْضَمَـــــا

---

[1] انظر في ذلك: ديوان ابن مقبل: ٢٥٥، ٣٠٦، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق إحسان عبـــاس، ط٢، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢: ٨، وديوان بشر بن أبي خـــازم: ١٩٣، وشـــرح أشـــعار الهذليين، أبو سعيد السُكّري، الحسن بن الحسن، تحقيق عبد الستّار أحمد فراج، مكتبة العروبة، القـــاهرة، ١٩٦٥: ٥٩٩/٢.

[2] لسان العرب: مادة (سَبر)، والملابس العربية في الشعر الجاهلي: ١٥١–١٥٢.

[3] المصدر السابق: مادة (سبر)، ومعجم الملابس في لسان العرب: ٦٨.

[4] ديوان حاتم الطائي، صنعة عيسى بن مدرك الطائي، رواية هشام الكلبي، تحقيق عادل سليمان، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠: ٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير ابن مقبل إلى أنها ثياب يمانية، يبدو ذلك في وصفه الناقة[1]:

دّلوقُ السُّرى يَنضُو الهماليجَ مَشيُها كما دَلَقَ الغِمدُ الحُسامَ المُهنَّـــــدا [2]

غدّت عن جَبينٍ تَمزُقُ الطيرُ مَسْكهُ كَمزقِ اليماني السّابِريَّ المُقّـــدَّدا

كما تتكرّر صورة هذا النوع أيضاً عند جران العود النميري في حديثه عــن محبوبتــه التي يصف رقّة العيش معها مشبّهاً ذلك برقّة السابرية من الثياب، يقول[3]:

وآخرُ عَهْدِي من حُمَيدةَ نَظـــرَةٌ وقدْ حانَ من شَمسِ النّهارِ خُفُــوقُ

بِبَزِّيَّةٍ لا يَشْتكِي السّيرَ أهلُهـــــا بِها العَيشُ مثلُ السّابريِّ رقيـــقُ

ومما يلاحظ أنّ صانعي هذا النوع من الملابس كانوا يتفنّنون في توشيته برسوم متنوعّة تعبّر عن أشكال ذات صفة جمالية، وفي هذا تبدو سمة حضارية تكمــن فــي طريقــة التطريز، وهذا ما يبدو في قول امرئ القيس عندما يذكر مسامرته مع محبوبتــه التــي أخذت تدني عليها ثوبها المطرّز[4]:

فَبِتنا تَصُدُّ الوحشُ عنّا كأنّنـــــا قتيلانِ لم يَعلمْ لنا الناسُ مَصْرَعـــــا

تَجافى عن المأثورِ بيني وبينها وتُدْني عليها السّابريَّ المُضلَّعَـــــا

وفي الشعر الجاهلي الذي صوّر هذا المظهر الحضاري المادي المتمثل فــي هــذا النوع من الملابس، تبدو صورة السّابري وقد صنعته أيدي الصنّاع بطرائــق متعــدّدة، بعضها موشّى بأجمل الرسوم، وبعضها مخطّط كنسيج العنبكوت، وفــي هــذه الهيئــة وغيرها سمّة حضارية مادية لا يمكن أن تغفل، ومن ذلك قول خُراشة بن عمرو العبسي

---

[1] ديوان ابن مقبل: ٦٧.

[2] دلوق السُّرى: أي تتقدم وتندفع في السرعة. والهماليج: جمع هملاج وهي الناقة الحسنة السير في ســرعتها وهو فارسي معرّب.

[3] ديوان جران العود: ٥٣.

[4] ديوان امرئ القيس: ٢٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصوّر المها بألوانها الناصعة وظهرها الأبيض، وكأنّها قد لبست ثوباً سَابِرياً، وهذا الوصف فيه دِلالة على ما تُوشَّى به الثياب السَّابِرية، يقول[1]:

مُلَمَّعَةً بِالشَّامِ سُفْعَاً خُدُودُهَا كأنّ عَليها سَابِرِياً مُذَيَّلا

والسَّابِري ثوب رقيق شفَّاف، دَلالة على رقّة القِماش الذي يُصنع منه، وقد جاء وصفه بهذه الرِّقة في قول حُميد بن ثور يشبِّه الحُوار وقت ولادته بالثوب السّابِري الرّقيق الشفّاف، يقول[2]:

فَجاءَتْ بِمِثْلِ السَّابِرِيِّ تَعَجَّبُوا لَهُ والثَّرى ما جَفَّ عَنْهُ سُهودُها

ومن أنواع الملابس التي تحدّث عنها الشعراء (المَجَاسِد)، وهي جمع المِجْسَد وهو القميص المشبّع بالزعفران، أو الأحمر، والمِجْسد ما يلي الجسد من الثياب[3]، والثوب المُجسَّد هو المشبّع عُصْفراً أو زَعْفَراناً، والمجسْد كذلك ما أُسبِغ صبغة من الثياب، وجمعه مجَاسِد، وقال ابن الأعرابي: المَجاسِد جمع مِجْسَد (بكسر الميم)، وهو القميص الذي يلي البَدَن[4].

ويبدو الملمح الحضاري في طريقة صُنع هذا النوع من الملابس، وفي الطريقة التي تتم بها صباغة المَجاسِد بالزعفران والعُصفر، إذ يتّضح مقدار ما يبذله الصانع من جَهد في إحكام صنعته.

والتفت الشعراء الجاهليون إلى المجاسِد، إذ صوّروا النساء المُترفات وقد لبسن المِجسَد مقروناً بالبُرود، دِلالة على الترف والتّنعم، يبدو هذا في قول قيس بن الخطيم يصف النساء المُترفات وقد تَجَلْبَبْن المجاسِد والبُرود، يقول[5]:

---

[1] المفضليات: ٤٠٥، وانظر الملابس العربية في الشعر الجاهلي، يحيى الجبور: ١٥٢.

[2] ديوان حُميد: ٧٥، والملابس العربية في الشعر الجاهلي: ١٥١.

[3] المخصص: ٣٧/٤، واللسان: مادة (جَسَد).

[4] فقه اللغة: ٢٤٢، وانظر الملابس العربية في الشعر الجاهلي: ٢٩٣.

[5] ديوان قيس بن الخطيم: ١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنَ اللّائِي إذا يَمْشِينَ هَوْنــاً تَجَلْبَبنَ المجاسِدَ والبُـــــرودا
كأنَّ بُطُونهُنَّ سُيوفَ هُنْـــدٍ إذا مَا هُنَّ زَايَلْنَ الغُمُـــــودا

ولمّا كانت المَجاسِد تُشبّع بالصّبغ والزَّعفران قيل للزعفران جِســاداً، ويبــدو أنّ المادّة الخام المتعلّقة بأدوات الصبغ توافرت في الجزيرة العربية، وبعضها كان يُجلــب من البلاد المجاورة، ومن أجودها ما كان مصنوعاً من الكتّان، فقد وصف حسّــان بــن ثابت النساء وقد اجتبْنَ الزعفران في النُّقب ولبسن الرَّيط عليها المجاسِد المصنوعة من الكتّان، يبدو هذا الوصف في قوله[1]:

قَد دَنَا الفِصحُ فَالولائِـــــــدُ يَنظِمْن سِراعاً أكلَّةَ المَرْجَـــــانِ
يَجْتَنينَ الجَادِيَّ في نُقَبِ الــرَّيْــ ــطِ عليها مَجاسدُ الكِتَّـــــــانِ [2]

وغالباً ما كانت المجاسد تُذكر إلى جانب الحُلِيّ والطيب دِلالة على جودتها وغلاء ثمنها، ورائحتها الذكية التي تخرج منها، بفضل أصباغ الزعفران، يبدو هذا فــي قــول الحطيئة، يصف المرأة المُترفة[3]:

إلى طَفْلَةِ الأطْرَافِ زَيَّنَ جِيْدَهَــا مَعَ الحُلِيّ والطِّيبِ المُجاسِدُ والخُمُر

وتظهر صورة المَجاسِد في قول سالم بن دارة من بني غطفان يُحرِّض قومه على الأخذ بالثأر، وقد اتّخذ من صورة النساء المُرَفّهات اللواتي يلبسنَ المَجَاسِد مُحرِّكاً لهم، فهم إنْ لم ينهضوا بأخذ الثأر، فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحّلوا، ويلبسوا المجَاسِد، يقول[4]:

---

[1] ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت: ٤٧٥.

[2] الجاديّ: الزعفران.

[3] ديوان الحطيئة: ١٠٤.

[4] شرح حماسة أبي تمام: ٤٢٣/٢، وانظر حول هذا المعنى: المفضليات: ٢٢٣، وديــوان الأعشــى: ٢٤١، ومجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي، ليلى العُمرى: رسالة جامعيــة، الجامعــة الأردنيــة، ١٩٩٥، ص٢٥٢ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنْ أنْتُمُ لم تَطْلُبُوا بأخِيكُـــــــــمُ فَذَرُوا السِّلاحَ وَوَحِّشُوا بِالأَبْــرَقِ

وَخُذُوا المَكَاحِلَ والمَجاسِدَ والْبِسُوا نُقَبَ النِّساءِ فَبِئسَ رَهْطُ المَرْهَــقِ

ومن أنواع الملابس كذلك **النِّصْع**، وهو ضَرْب من الثياب شديد البياض، وعمّــمَّ بعضهم به كل جلد أبيض أو ثوب أبيض، وقال الأصمعي: كل ثوب خالص البياض أو الصَّفرة أو الحُمْرة، فهو ناصع[١]. وهذا النوع من الملابس اليمانية التي تمّت صــناعتها ووضع الوشي عليها، وتبدو صورتها في قول لبيد يشبّه بياض ثور الــوَحْش ببيــاض الثوب[٢]:

فاجْتازَ مُنْقَطع الكَثيبِ كأَنّــــهُ نِصْعٌ جَلَتْهُ الشّمسُ بعدَ صِــــوَان

ويصوّر المُرَقِّش الأكبر مِجْدَاف السفينة بأنّه نِصْع يماني شديد البياض، يقول[٣]:

كأنّه نِصْعٌ يَمانٍ وبالـــــــــ أكْرُعِ تَخْنِنٌ كَلَوْنِ الحُمَــــــــمْ[٤]

ويمكن القول بأنّ العرب في العصر الجاهلي قد عرفــوا أنواعــاً كثيــرة مــن الملابس، وتفنّنوا في طريقة صنعها، وحصلوا على مواد أولية مــن داخــل الجزيــرة العربية وخارجها تمكّنهم من النهوض بصناعة أفخر الملابس، وفي ذلك كلّــه تتجلّــى صورة الحضارة المادية الاجتماعية، وقد تضمّن الشعر الجاهلي حــديثاً عــن المــواد الأولية، فقد استخدموا أنواعاً من جلود الحيوانات التي تعيش في الجزيرة العربية، مثل جلود الأرانب التي كانت تُصنع منه ملابس كِبار السِّن، يبدو ذلك في قــول النابغة[٥]:

تَرَاهُنّ خلفَ القَوْمِ خُزْراً عُيونُها جُلُوسَ الشيوخِ في ثيابِ المَرانِبِ[٦]

---

[١] لسان العرب: مادة (نَصع)، ومعجم الملابس في لسان العرب: ١٢٦.

[٢] شرح ديوان لبيد: ١٤٦.

[٣] المفضليات: ٢٢٧.

[٤] الأكرع: جمع كراع وهو مسترق الساحر.

[٥] ديوان النابغة: ٤٦.

[٦] المرانب: الملابس التي صنعت من جلود الأرانب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك استُعْمِل الصُّوف في صناعة عدة أنواع من الملابس من مثل الكساء، والنَّمــرة والبُرود وغيرها.

وتحدّث الشعراء الجاهليون كثيراً عن لباس النساء المُتْرفات أو ممن هــنَّ مــن الطبقة المُتْرفة، إذ اختصّت المرأة المُنعّمة بملابس خاصّة، ومادّتها الأولية التي كانــت تصنع منها هي الحرير بأشــكاله وأنواعــه المختلفــة كالــديباج، والــدِّمقس المُفَتّــل والخُسْرواني. وبفضل تحضّر العرب واتصالهم بالأمم الأخرى حصلوا علــى الحريــر وصنعوا منه أفخر أنواع الملابس، ويبدو أنّه قد وصل إليهم عن طريق الفرس الــذين نقلوه إلى بلاد الشام بحكم تجارتهم مع الصين وهي مصدر الحرير[١].

وممّا جاء في وصف الحرير، قول امرئ القيس[٢]:

ويَوْمَ عَقَرتُ للعَذارى مَطيّتي فَيا عَجَباً من رَحْلِها المُتحمّــلِ

تظلُّ العّذارى يَرتمينَ بِلَحْمِها وشَحْمٍ كهُدبِ الدّمَقسِ المُفتّــلِ [٣]

ومن أنواع الحرير الديباج الذي تفوح منه رائحة طيّبة بعد أن تُصنع منه الملابس، يقول ابن مقبل[٤]:

ومُستكبرٍ من باتَ حَاجِبَ بَابــــهِ من النّاسِ إلاّ ذا المهابةِ يُحجَــــبِ

بَدا كَعتيقِ الطيرِ قاصرَ طَرفِــــهِ مُسَربَلَ ديبَاجِ القميصِ المُطَيَّــــبِ [٥]

---

[١] المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، دوزي، رينهارت، ترجمة أكرم فاضل، دار الحرمين، بغداد، ١٩٧١، ٧٦، وانظر: الملابس عند العرب في شمال ووسط الجزيرة العربية، محمود محمد أحمد، رســالة جامعية، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، ١٤.

[٢] ديوان امرئ القيس: ١١.

[٣] الدمقس: الحرير الأبيض، وانظر حول هذا المعنى: ديوان الأعشى: ٤٠٥، وديوان عــامر بــن الطفيــل، تحقيــق كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٣: ٦٥.

[٤] ديوان ابن مقبل: ١٠.

[٥] العتيق: الكريم والرائع من كل شيء. وعتيق الطير: البازي والصقر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو ذلك أيضاً في قول الأعشى[1]:

وَكُلُّ زوجٍ من الدّيباجِ يَلبَســـــهُ أبُو قُدامةَ مَحْبُوَّاً بِذاكَ مَعَـــا [2]

فالديباج لفظ فارسي معرّب يعدّ نوعاً من أنواع الحرير.

وقد ذُكِر الحرير في الشعر الجاهلي بكثرة، ممّا يدلّ على استخدامه مادة أوليـة يمكن من خلالها صناعة أفخر أنواع الملابس، ويدلّ كـذلك علـى اتصـالهم بغيـرهم واطّلاعهم على حضارات الأمم الأخرى عن طريق التجارة، ممّا ساهم في تجلّي صورة الحضارة في بلادهم، ومما جاء ذكر الحرير قول الأعشى[3]:

هُوَ الوَاهِبُ المُسمِعاتِ الشَّـرو بَ بَيْنَ الحَريرِ وبَينَ الكَتَـــــــنْ

وغالباً ما كان يُذكر الحرير في الشعر الجاهلي إلى جانب المَجاسِد والبُرود وهي الملابس الفاخرة التي تُعدّ مادتها الأولية من الحرير، ومن ذلك قول الشاعر[4] عمرو بن سُمَيٍّ المنقري[5]:

ولو أنّي أشاءُ كَنْنتُ نفســـــي وغَاداني شِواءٌ أو قدِيـــــرُ

ولاعَبني على الأنماطِ لُعْـــسٌ عليهنّ المَجاسِدُ والحريـــــرُ [6]

---

[1] محبوا: من الحباء وهو العطاء.

[2] اللعس: جمع لعساء وهي التي تضرب شفتها إلى السواد، وانظر حول هذا المعنى: ديوان عدي بـن زيـد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر، بغداد، ١٩٦٥: ٩٦، والأصمعيات: ٦٠.

[3] ديوان الأعشى: ٢١.

[4] هو عمر بن سنان بن الأهتم بن سُمي السّعدي، كان سيّداً من سادات قومه. انظر المفضليات: ١٢٥.

[5] الاختيارين: ٤٢٣.

[6] اللعس: جمع لعساء وهي التي تضرب شفتها إلى السواد، وانظر حول هذا المعنى: ديوان عدي بـن زيـد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر، بغداد، ١٩٦٥: ٩٦، والأصمعيات: ٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشير الروايات التاريخية إلى أنّ مصدر الحرير الذي كان يرد إلى الجزيرة العربية هو الصين، وبلاد فارس، ولكن صناعة الملابس من الحرير كانت تتم في أحيانٍ كثيرة في البلاد العربية وبخاصة بلاد اليمن[1].

إنّ هذه النماذج من أنواع الملابس التي عبّر عنها الشعر الجاهلي لدليل على مظهر حضاري مادي تجلّت صورته بوضوح عند العرب في العصر الجاهلي.

[1] مروج الذهب، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، تحقيق يوسف أسعد داغر، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥: ١٦٥/١، ومختصر كتاب البلدان، ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد، ط١، دار أحياء التراث العربي، ١٩٨٨: ٢١٨، ٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: الحُلِيّ وأصنافه:

اتّصل العرب في العصر الجاهلي بغيرهم من الأمم، وبحكم هذا الاتّصال تأثّرت البيئات العربية في العصر الجاهلي بالمظاهر الحضارية للأمم الأخرى وبخاصة حضارة فارس. والحُلِيّ بأنواعه المتعددة هو مظهر حضاري اجتماعي بدت صورته جليّة في بيئات مختلفة في العصر الجاهلي، وبخاصة أنّ العرب تميّزوا بذوقهم ومقاييسهم الجمالية التي تتعلّق بالمرأة؛ ولهذا كثرت الألفاظ الفارسية المُعرّبة في الشعر الجاهلي التي تدلّ على تأثّر العرب بغيرهم من الأمم، وعلى وجود هذا الملمح الحضاري المادي في بيئات العرب[1].

وعلى الرغم من تأثّر العرب بغيرهم في هذا الجانب، إلاّ أنّ بلاد العرب توافرت فيها مواد أولية تدخل في صناعة أنواع مختلفة من الحُلِيّ، تتمثل في الأحجار الكريمة، وبعض المعادن الأخرى، منها ما يستخرج من حيوانات البحر، وعظام بعض الحيوانات.

ويَزخر الشعر الجاهلي بوصف حُلِيّ النساء، فقد تكرّر فيه ذكر الذهب، والمَرْجان، واللؤلؤ، والعُقود، والأساور. وتجدر الإشارة إلى أنّ مهنة الصِّياغة قد عُرِفت في العصر الجاهلي وإن كانت قد وصلت إليهم من الأمم الأخرى، وورثوها عن الحضارات السابقة، وقد عثر علماء الآثار على معادن وقطع من الحُلِيّ في الجزيرة العربية. وعُثِر كذلك على معادن الذهب والفضة والنحاس في العربية الجنوبية[2].

---

[1] مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ٢٢٤.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ودار النهضة، بغداد، ١٩٦٩: ٥٦١/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير جواد علي إلى أنّ الحليّ من أهم أعمال الصَّائغ عند الجاهليين، إذْ يقوم بصنعه من الذهب أو الفضة، ويزيّنه ببعض الأحجار الكريمة في بعض الأحيان، ثمّ إنّ بعض القبائل العربية قد اشتهرت بهذه الصناعة، منها بنو قينقاع في منطقة يثرب[1].

ولمّا كانت صياغة الحُلِيّ معروفة لديهم، فإنّ الصَّاغة عملوا على صناعة أشكال مختلفة من الحُلِيّ منها ما يُعلّق على الصَّدر، ومنها ما يُوضع في الأيدي، أو في الأصابع، ومنها ما يوضع في الساق، أو في الأذن وغير ذلك، ويمكن تتبّع بعض هذه الأشكال في الشعر الجاهلي، وهي تدلّ على جانب حضاري مادي مهم في حياة العرب في العصر الجاهلي، ومعظم هذه الأنواع كانت تُصاغ من الذهب، والشُّذور، واللؤلؤ والمَحال. وقبل الحديث عن أصناف الحليّ، لا بُدّ من الإشارة إلى بعض النماذج الشعرية التي جاء فيها ذكر المواد الأولية التي تتكوّن منها أصناف الحليّ، ومن ذلك قول عمرو بن معديكرب[2]:

وأعزَّ مصقُولاً وعَيْني بِجُؤْذِرٍ ... وَمُقلّداً كمُقلَّدِ الأدْمَانِ

سَنّتْ عليه قلائدَ مَنظومةً ... بالشّذر واليَاقوتِ والمَرْجَانِ

ويقول علقمة بن عبدة مشيراً إلى المَحال واللؤلؤ[3]:

مُبْتلّةٌ كأنّ أنضاءَ حَلْيها ... على شَادنٍ من صَاحَةٍ مُتربَّبِ

مَحالٌ كَأَجْواز الجَرادِ ولُؤلؤٌ ... من القَلَقِيِّ والكبيسِ المُلَوَّبِ [4]

ويظهر من خلال حديث الجغرافيين عن أرض الجزيرة العربية، أنها اختصّت بمثل هذه المواد التي جاء ذكرها في الشعر، يقول الأصطخري: "من ذلك اللؤلؤ الجيد

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٦٢/٧.

[2] ديوان عمر بن معديكرب، جمعه وحقّقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٤: ١٨٥.

[3] ديوان علقمة: ٨٠.

[4] المحال: الشذر من الذهب، والقلقي: جنس من اللؤلؤ، والكبيس: ما حُشي وطلي من الطيب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القَطَري يكون بناحية لا يوجد مثله، وقد وُجد في جزيرة النُّعمان، لؤلؤة لا يُعلم أنّه وُجد في مَغَاصِ اللؤلؤ مثلها في كبرها وصفائها واستواء خَلْقها وأمرائها، وتُسمّى اليوم عند الملوك باليَتيمة لانفرادها عن النَّظائر. والزَّبرجد، وهو يوجد في جزيرة ابن العُويْنر والحَوْراء، وتُسمى تلك الجزيرة زَبرْجدة. والعَقيق يكون ببلاد العرب بِرِقِّه وأجوده الصِّيني. والجَزع، أجوده اليماني، ويؤتى به أيضاً من الصين وليس مثله"[1].

ويشبّه مُليح بن الحكم الهذلي بشرة صاحبته بِلمعان الذهب وصفائه، يقول[2]:

نقِيّةٌ بَيْنَ المِحْجَرينِ كأنّمـــــا كَسَت مُذهَباً مُجرى الدّموعِ الهَوامِلِ [3]

ومما جاء فيه ذكر الشُّذور واللؤلؤ والياقوت قول سُحَيم الحَسْحاس يصف جيد صاحبته الذي زينته القلادة[4]:

وجيدٍ كجيدِ الرّيم ليسَ بِعاطِـــلٍ من الدُّرِّ والياقوتِ والشّذرِ حَاليـا

كأنّ الثُّريّا عُلِّقتْ فوقَ نحرَهـــا وجمرَ غَضىً هَبّت له الرِّيحُ ذَاكِيا

وغالباً ما كان الشعراء ينسبون المواد التي تُصنع منها أصناف الحُلِيّ إلى مواقع وجودها، ومن ذلك قول المرقش الأصغر يتحدث عن حَلْي النساء[5]:

تَحَلّيْنَ ياقُوتاً وشَذراً وصِبغَـةً وجَزْعاً ظَفارياً ودُرّاً تَوائِمـــا [6]

وصناعة أصناف الحُلِيّ من مواده الأولية الشائبة بحاجة إلى صاغة مَهَرة، وقد عُرف هؤلاء في بلاد العرب، على الرغم من ورود إشارات إلى أنّ هذه المهنة لم تكن

---

[1] جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، (ت٤٨٧هـ)، تحقيق، عبدالله يوسف الغنيم، مطبعة دار ذات السلاسل ، الكويت، ١٩٧٧: ٢٥.

[2] شرح أشعار الهذليين: ١٠٢٣.

[3] المُذهب: الشيء المطلي بالذهب.

[4] ديوان سحيم، عبد بني الحسحاس، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠: ١٧.

[5] شعر المرقش الأصغر: ٥٣٥، وانظر: مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٣٦-١٣٩.

[6] ظفار: قرية من قرى حِمْير باليمن ينسب إليها الجزع الظفاري، انظر: معجم البلدان: ٦٠/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكسب الصائغ مكانة اجتماعية مرموقة، يدلّ على ذلك قول عمرو بن كلثوم في هجاء النعمان بن المنذر[1]:

لحَى اللهُ أدْنانا إلى اللُّؤمِ زُلفَـــةً وأعجَزَنا خالاً وألقانا أبَـــــــاً

وأجْدَرُنا أن يَنْضُحَ الكير خالُـــهُ يصُوغُ القروطَ والشّنُوف بيَثْرِبا

ويظهر أنّ معدن الفضّة كذلك كان من المعادن الهامة في صناعة الحُلِـيّ، وقد توافر هذا المعدن في الجزيرة العربية، إذ تشير المصادر إلى أنّه كان يستخرج من بعض المواقع في بلاد اليمن، وبخاصة الرضراض[2].

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ بلاد اليمن كانت تزخر بالمعادن التي استغلت في الصناعة، فالمصادر تشير إلى أنها كانت مليئة بمناجم الذهب الخالص، ويدلّ على ذلك ما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر: "ما أصنع بالمال، وتراب أرضي ذهب وفضة"[3]. وأشار الألوسي إلى أنّ معدن عَشَم، ومعدن ضِنْكان باليمن هما معدنا ذهب جليلان[4].

وتبدو هذه المعادن من أهم خيرات اليمن وهي التي تمدّ باقي البلاد العربية بهذه المواد الخام، وقد أشار إلى ذلك المقدسي بقوله: "واليمن معدن العَصَـائِب، والعَقيـق، والأدَم، والرَّقيق، فإلى عُمان يَخْرج آلات الصـيادلة والعِطـر كلُّـه حتـى المسـك، والزَّعفران، والبَقَّم[5]، والسَّاج، والسَّاسَـم[6]، والعـاج، واللؤلـؤ، والـدِّيباج، والجَـزْع،

---

[1] ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١: ٢٤.

[2] صفة جزيرة العرب، الهمذاني: ٢٠٢.

[3] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي: ٨٨.

[4] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي، تحقيق بهجت الأثـري، ط٢، دار الكتـب العلمية، بيروت: ٤١٥/٣، وانظر: السيرة النبوية، سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، المكتبـة العلمية، بيروت: ٦٣/١.

[5] البَقَّم والسَّاج: من أنواع الشجر.

[6] السَّاسَم: نوع من الشجر يتخذ منه السِهام، وقيل الأبنوس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واليَواقيت، والأبنُوس، والنَّارجيل[1]، والقِنْد[2]، والاسكندروس، والصبر، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار[3]، والصَّندل[4]، والبِلَّور، والفُلفُل، وغير ذلك. وتزيد عدن بالعنبر، والشَروب، والدِّرق، والحَبش والخَدْم، وجلود النُّمور، وما لو استقصيناه طال الكتاب ..."[5].

وأهم أنواع الحُلِيّ التي اشتمل عليها الشعر الجاهلي هي:

- **الجَزْع:** يعدّ الجَزْع ضرباً من الخَرز، وقيل: هو الخرز اليَمانِي، وهو الذي فيه بياض وسواد، تُشبّه به الأعين، واحدته جزْعة، قال ابن بَرِّيْ: سُمِّي جَزْعا لأنّه مُجَزّع أي مُقطّع بألوان مختلفة. أي قُطِعَ سواده ببياضه[6].

قال امرؤ القيس يصف نفور ثور الوحش[7]:

فأدبَرْنَ كالجَزْعِ المفُصَّلِ بينَهُ بِجيدٍ مُعِمٍّ في العَشيرةِ مُخوِلِ

وتفنّن الصَّاغة في صناعة الجَزْع وتزيينه، وجعله بألوان متعدّدة، أشهرها الأبيض والأسود، قال لبيد في ذلك[8]:

وكُنتَ إمَامنا ولنا نِظامَاً وكانَ الجَزْعُ يُحفظُ بالنِّظامِ [9]

---

[1] النَّارجيل: جوز الهند.

[2] القِنْد: ماء يحصّل من تقطير الثمار.

[3] الغَضار: الصلصال، ومنه يتخذ الخزف.

[4] الصَّندل: أشجار مشهورة بخشبها المتين.

[5] أحسن التقاسيم: ٩٧، وانظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، سيد عبد العزيز بن سالم: ٩٠-٩١.

[6] لسان العرب: مادة (جزَع).

[7] ديوان امرئ القيس: ٥٧.

[8] شرح ديوان لبيد: ٢٠٨-٢٠٩.

[9] النظام: الخيط الذي يُنظم عليه اللؤلؤ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واشتهرت اليمن بالجَزْع، وبخاصة قرية ظِفار من بلاد حِمْيَر، أو أنها منسوبة إلى ظِفار أسد مدينة باليمن[١]، ولهذا سُمي بالجَزْع اليَمانِي، قال المرقش الأصغر يتحدث عن زينة النساء[٢]:

تَحَلَّيْنَ يَاقُوتاً وشذْراً وصيغَـــــــةً وجزعاً ظفارِيَّاً ودُرَّ تَوائِمـــــــا

سَلَكْنَ القُرى والجَزعُ تُحدَى جَمالُهُمْ وَوَرَّكنَ قُوداً واجتَزَعنَ المخارِمَا [٣]

وغالباً ما كان الشعراء يشبّهون العيون بالجَزْع الذي لم يثقب، يقول علقمة[٤]:

كأنَّ عيونَ الوحشِ حَوْلَ خَبائِنا وأرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لَمْ يُثَقَّــبِ

ويُتَّخذ من الجَزْع أصناف متنوعة من الخَرَز، منها ما يسمى بالوَدْع، وهو خَرَز أبيض أجوف يستخرج من البحر، تُعلّق الخرزة منه لرفع العين، وفي ذلك يقول ابن مقبل[٥]:

كأنّها مَارنُ العِرْنَينِ مُفتصَـــلُ مِنَ الظِّباءِ عليه الوَدْعُ منظُــومُ

– **الخَلْخال:** وهو صنف من أصناف الحُلِيّ الذي اتخذته المرأة لِتزيَّن به ســاقيها، وقــد جاء حديث الشعراء عن الخلخال في معرض حديثهم عن مفاتن المرأة الممتلئة الساقين التي لا يتحرّك خَلْخالها، ومما جاء في ذلك قول مُليح بن الحكم الهذلي في معشوقته[٦]:

مُهضَّمَةُ الأحشاءِ ممكورَةُ السَّوى قُطوفُ الخُطا خلْخالُها غيرُ جائِلِ

---

[١] معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٦٠/٤.

[٢] شعر المرقش الأصغر: ٥٣٥، والمفضليات: ٣٤٥.

[٣] القد: اسم موضع. والمخارم: أطراف الطرق في الجبال.

[٤] ديوان علقمة: ٩٧.

[٥] ديوان ابن مقبل: ٢٢٩، وانظر حول ذلك، الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، الــدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣: ٦٩/١٤.

[٦] شرح أشعار الهذليين: ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُصاغ الخلخال من الذهب أو الفضة، ويُحْشى بمادة القَار، ولا يزال أهل البادية يتحلون به، وكانت تُعلّق به الأجراس الصغيرة لسماع رنين خاص[١].

ويصف المُرار بن منقذ المرأة الشّابة الضخمة الحسنة الدّل في الشّباب وقد لبِست الخَلْخال سبعين مثقالاً فيحجز عنها فينكسر من امتلاء الساقين، يقول[٢]:

وهْيَ بَدَّاءُ إذا ما أَقْبَلَـــــــــــتْ ضَخْمَةُ الجسمِ رَدَاحٌ هَيْدَكُـــرْ [٣]

يُضربُ السَّبعونَ في خَلخَالِهـــــا فإذا مَا أكْرَهَتْهُ يَنْكَسِـــــــــرْ [٤]

ولعلَّ أكثر النساء اللواتي لبسنَ الخلاخل في الجاهلية المغنّيات، ولهذا جاء وصفهنّ في الشعر، ومن ذلك قول ابن مقبل يصف الفتاة المغنية وقد صَدَحتْ بصـــوتها وركضـــت بساقيها وقد بدا خَلْخالها[٥]:

وغِناءِ مُسْمِعَةٍ صَرَرْتُ لِصوْتِهـــا ثَوبي، ولَذَّةِ شاربٍ وفِضَـــــالِ

صدَحَتْ لَنا جَيْداءُ تركُضُ ساقُهـــا عندَ الشُّروبِ مجَامِعُ الخَلْخَـــالِ

ومن أصناف الخَلْخال وأسمائه الحِجْل، وقد ورد في قول الأفوه الأودي يفخـــر بنســـاء قومه اللواتي لم يرَ ما يلبسن من حِجْل في الساق[٦]:

سَقى دِمنَتينِ لَم نجدْ لهُما أهْـــــلاً بِحَقلٍ تَلُمْ يا عَزَّ قدْ رابَني حَقْـــــلا

نُقاتِلُ أقواماً فَنَسبِي نِسَاءهـــــــم ولمْ يرَ ذو عِزٍّ لنِسوَتِنا حِجْـــــــلا

---

[١] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٦٣/٧.

[٢] المفضليات: ٩١،

[٣] الرّداح: الثقيلة الطويلة من النساء، والهيدكر: الشّابة الحسنة الدّل في الشباب.

[٤] السبعون: يعني سبعين مِثقالاً، فيعجز عنها فينكسر من امتلاء الساقين.

[٥] ديوان ابن مقبل: ٢٥٨.

[٦] ديوان الأفوه: ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال بشر بن أبي خازم يصف الحجْلين في ساق محبوبته[1]:

نَبيلةٌ مَوْضِعِ الحِجْلينِ خَـــوْدٌ وَفي الكَشْحَينِ والبَطنِ اضْطمــارُ

ومن أسماء الخلخال كذلك، الخَدَمة، وربّما كانت من سُيور يُركَّب فيها الذهب والفضة، والجمع خَدَام، وقد تسمى الساق خَدَمة حملاً على الخلخال لكونها موضعه[2].

ويصف الأعشى العَذارى اللواتي يكشفن عن السيقان فتبدو الخَدَمة، يقول[3]:

في مَحَلٍّ منَ الثُغورُ غُـــــزاةٍ فإذا خالَطَ الغُوارُ السَّوامـــــا

كانَ مَنّا المُطاردون عنِ الأخـــ ـــرى إذا أبْدَتْ العذارى الخِداما

ويربط النابغة الذبياني الخدام بحديثه عن الأكف، فيقول[4]:

بُرزُ الأكُفِّ من الخَدامِ خــوارِجٌ من خَرْجِ كل وَصيــلةٍ وإزارِ [5]

– **السِّوَار:** جاء في المعاجم أنّ السِّوارمن الحُلِيّ معروف، والمسَوَّر: موضع السِّــوار كالمَخدّم لموضع الخَدَمة. وجاء في التهذيب، أنّ الأساور من فضّة[6]. ولعــلّ المظهــر الحضاري يبرز في طريقة صِياغة أشكال مختلفة من هذه الأساور، ولهذا كثر الحديث عنها في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول الأعشى يصف المرأة وقد لَبست بكفِّها ســواراً زيّنها، وبدا بنانها كهدب الحرير المُفتّل[7]:

وألْوَتْ بِكَفٍّ في سِوارٍ يَزينُهــــا بَنانٌ كَهُدَّابِ الدِّمَقسِ المُفَتَّــــلِ

---

[1] ديوان بشر: ٦٥.
[2] اللسان: مادة (خدم)،
[3] ديوان الأعشى: ٢٤٩.
[4] ديوان النابغة: ١٠٩.
[5] الوصيلة: ثوب أحمر يجلب من اليمن.
[6] اللسان: مادة (سور).
[7] ديوان الأعشى: ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللسِّوار في الكفّ مظهر جمالي لافت للنظر، يَبدو له لمعان في اليدين، تظهر هذه الصورة في قول عدي بن زيد[1]:

قَد آنَ أن تَصحُو وتُقْصَرْ وقَدْ أتَى لِمَا عَهِدْتَ عُصُرْ

عَن مُبْرِقانٍ باليَدَيْنِ وتبـ ـدو بالأكُفِّ سُورُ

وللمرأة في الجاهلية طريقة خاصّة في لبس السِّوار، وما تضعه في تجويفاته، حتى إنّها كانت تلبس في مِعْصَمها سوارين أو أكثر، وفي هذا يقول جران العود النميري[2]:

مِلُّ السِّوارَينِ والحِجلَينِ مِئزرُها بِمَتنِ أعْفَرَ ذي دَعْصَينِ مَكفُولُ

ومن أصناف السِّوار الذي اتّخذته المرأة حِلْية في معصمها، القُلْب، وهو شكل من أشكال السوار يكون على لفّةٍ واحدة أو إدارة واحدة[3]. ومن ذلك ما جاء في قول ابن مقبل، يصف المرأة التي عمَّها الخَلْخال والقُلْب[4]:

وَقَدْ دَقَّ مِنْها الخَصْرُ حتَى وِشَاحُها يَجُولُ، وقَدْ عُمَّ الخَلاخِيلُ والقُلْبُ

وفي موضع آخر، يشير حُميد بن ثور إلى عملية إدارة القُلْب، فيقول[5]:

طَوتْ دونَ مِثْلِ القُلْبِ منها أَلِفَّةً كأرْدّيةٍ مِن بِركَةٍ تَسْتَجيدُها [6]

وورد في الشعر، الإشارة إلى الصَّائغ الذي كان يعمل على صياغة القُلْب، وفي هذا يبدو المظهر الحضاري المادي، إذ كان يسمّى الصَّائغ السَّوْذقانيّ، يبدو هذا في قول حُميد بن ثور[7]:

---

[1] ديوان عُدي بن زيد: ١٢٧.

[2] ديوان جران العود: ٥٦، وانظر المفضليات: ٩٢.

[3] اللسان: مادة (قلب)، والمخصص: ٤٩/٤.

[4] ديوان ابن مقبل: ٣٥١.

[5] ديوان حُميد بن ثور: ٣٤.

[6] بِركة: اسم مكان مشهور بصناعة الأردية.

[7] ديوان حُميد بن ثور: ٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعادَى يَداها بالنَّجاءِ ورجلُهـــا أبُوضُ النَّسَا بالمنسمين خَســـوقُ

وأظْمَى كقُلْبِ السَوذقانيِّ نازعَتْ بِكفَّيَّ فَتْلاءُ الذِّراعِ نُغُـــــــوقُ [1]

ويظهر أنّ المرأة التي كانت تخضّب يديها بالحنّاء كانت تبدو أكثر جمالاً حـين تُـزيِّن المعصم بالقُلْب، وفي هذا يقول جران العود[2]:

بحْثَ الكَعابِ لِقُلبٍ في مَلاعِبهـا وفي اليَديْنِ من الحِنّاءِ تَفصيـلُ

ومن أشكال السِّوار، الوَقْف، وهو نوع من الأسْوِرة المزخرفة، تظهر صورته في قول ابن مقبل مشيراً إلى مهارة الصانع الذي أحكم صياغته، وقد لبسته المـرأة التـي زيّنت يدها بالوشم[3]:

ربيِّبٌ لمْ يُفلِّكهُ الرِّعاءُ ولـــــم يُقصرْ بِحَومَلَ أقْصَى سِربهِ وَرَعُ

إلاّ مَهاةً إذا ما ضاعَها عَطَفـتْ كَما حنَى الوَقْفَ للموشِيَّةِ الصُنَـعُ [4]

ومن ذلك اليَارَق، وهو من أسماء الأسورة فارسي معرّب، أصله (يَارَه) ولعـلّ ورود هذه اللفظة في الشعر الجاهلي يدلّ على اطلاع العرب علـى حضـارة غيـرهم كالفرس، وهذا الأمر فيه ملمح حضاري مادي. وقد ورد ذكر اليَارَق في قول شِبْرُمة بن طفيل[5]:

لَعمري لَرِئْمٌ عندَ بابِ ابْنِ مُحرزٍ أغَرُّ عليه اليَارَقانِ مَشُـــــوفُ [6]

أحَبُّ إلينا من بِيوتٍ عِمادُهـــا سُيوفٌ وأرماحٌ لهُنَّ خَفيـــــفُ

---

[1] الأظمى: المذاب من الرماد الأسود. والنَّغوق: البُغَام.

[2] ديوان جران العود النميري: ٤٢.

[3] ديوان ابن مقبل: ١١٠.

[4] الصُنع: الحاذق الماهر في صناعته.

[5] شرح حماسة أبي تمام: ٤١٣/١.

[6] المشوف: المصقول، المجلو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُنضَّد اليارقان بالدُّر الذي يزيده جمالاً، أو يحلّى بأنواع من الخرز، وفيه يقول الأعشى يصف صاحبته[1]:

إذا قَلَّدتْ مِعْصماً يَا رَقَيْـــــــــ ـــنِ فُصِّل بالدّر فَصلاً نَضيـــــرَا

وحُلَّ زَبَرجَدةٌ فَوقَـــــــــــهُ وياقوتةٌ خِلتَ شيئاً نَكيـــــــــــرا

ومن اللافت للانتباه أنّ في هذا التعدّد لأشكال الأسورة دِلالة واضحة على براعة الصاغة في العصر الجاهلي، ومقدرتهم على صناعة الحليّ وطليه، وفي هذا كله تتجلّى السمة الحضارية لذلك العصر.

– **القِلادة:** حظيت القِلادة بجانب وافر من الشعر الجاهلي، وقد كانت القلائد تُصنع مـــن الذهب والفضّة والأحجار الكريمة والزَّبرجد واللؤلؤ، ثمّ يقوم الصائغ بتزيينهـــا بـــأنواع الخَرز والدُّر فيخرج منها أشكال متنوعة، اتّخذتها المرأة لِتُزيّن بها جيدها، وقـــد كـــان الجاهليون يضعون قلادة في عُنق البُدْن، مثل عُرْوة مَزادة، أو خَلْق نَعْل أو غير ذلـــك؛ لِيُعْلم أنها هَدْي، يدلّ ذلك على أنّ القِلادة كانت تُطلق على أمور كثيرة عندهم[2].

وممّا جاء في الشعر عن القلائد قول أبي ذؤيب الهذلي في حديثه عن بناته[3]:

وقَام بَناتي بالنّعال حَوَاسِـــــراً فألصَقنَ وقْعَ السِّبتِ تحتَ القلائدِ

وأكثر ما كانت ترد لفظة العقد بمعنى القِلادة، يبدو ذلك في قول عنترة يتحـــدّث عن القلائد التي كانت تُصنع من الدُّر، إذ توضع في سِلْك تُوصل بـــه حُبيبـــات الـــدُّر والخَرز[4]:

---

[1] ديوان الأعشى: ٩٥، وانظر: ديوان ابن مقبل: ١٦٢، وشرح أشعار الهذليين: ١٢٥٩/٣.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٦٢/٧.

[3] شرح أشعار الهذليين: ١٩١/١.

[4] ديوان عنترة بن شداد العبسي، تحقيق محمد سعيد مولوي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣: ٢٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أفَمِن بُكاءِ حَمامةٍ في أيكَـــــةٍ ذَرَفتْ دُموعكَ فوقَ ظهرِ المحمَلِ

كالدُّرِّ أو فَضَض الجُمانِ تقطّعتْ فيهِ عقائِدُ سِلكِهِ لَم يُوصَـــــــلِ

ويظهر أنّ أكثر أنواع القلائد الثمينة، تلك التي كانت تصنع مــن الأحجــار الكريمــة واللؤلؤ، وفي ذلك يقول حُميد بن ثور الهلالي[1]:

تَجوبُ الدُّجى كُدْرِيَّةٌ دونَ فَرخِهــا بِمَطلَى أريكٍ سَبْسَبٌ وسُهــــــوبُ

كأنَّ الجُمانَ الفَصلَ نِيطــت عُقُودُه لَيالِيَّ جُمْلٌ للرجالِ خَلُــــــــــوبُ

وكانت الخيوط تستخدم لوضع حبّات الدرّ والخرز، ويسمّى الخيط نظاماً، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم في حديثه عن الثور[2]:

وأصبحَ ناصِلاً مِنها ضُحَيَّـــــــا نُصولَ العِقدِ أسْلمهُ النّظـــــــامُ

ويصف النابغة الذبياني جِيد المرأة الذي زُيّن بالعقد المَصوغ من الأحجار الكريمة والدرّ واليَاقوت والزَّبرجد، فيقول[3]:

بالدُّرِّ والياقوتِ زُيِّن نحْرُهــا ومُفصَّلٍ من لُؤلؤٍ وزبرْجِـــدِ [4]

وتشير المصادر القديمة التي اعتنت بالحديث عن الجزيــرة العربيــة إلــى أنّ الزبرجد يوجد في جزيرة ابن العُوَينر والحَوْراء وتُسمى تلك الجزيرة زَبَرْجدة[5].

---

[1] ديوان حُميد: ١١.

[2] ديوان بشر بن أبي خازم: ٣٤.

[3] ديوان النابغة الذبياني: ١٠٢.

[4] الزبرجد من الأحجار الكريمة أخضر اللون ويسمّى الزمرد.

[5] جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك: ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الألفاظ التي استعملت بمعنى القلائد الكُروم، وهي أيضاً ضرب من الحُلِـيّ على شكل قِلادة[١]، وغالباً ما كانت تُصنع من الفضّة لبستهُ المرأة العربية، وقـد جـاء ذكرها كثيراً في أشعار الجاهليين، ومن ذلك قول ابن مقبل[٢]:

تِقَالِ الخُطى غيدِ السّوالفَ لم تُقِمْ على الخَسْفِ يَملأَنَ الدّماليجَ والحجَّلا
تَباهى بِصَوغٍ مـن كرُومٍ وفضّةٍ مُعَطَّفةٍ يَكسُونَها قَصَباً خَـدْلا

وقال بعض بني أسد[٣]:

فَيا أيّها الرِّيمُ المُحلّى لَبَانُـهُ بِكَرْمينِ كَرْمَي فِضّةٍ وفريـدُ [٤]

وورد في الشعر حديث عن نوع آخر من أنواع القلائد هو التّقصَار، ويبدو أنها قـلادة خاصة بالعُنق تكون لاصقة به[٥]، وقد صوّر عدي بن زيد المرأة التـي يُسـرّ لرؤيتهـا وبخاصة إذا كانت مقلَّدة بالتقصار، فقال[٦]:

وقدْ أرَاه على حَالٍ أُسَرُّ بـهِ كأنّما أجْتلي في الصُّبحِ دينَـارا
وأحْوَرَ العينِ مربوبٌ له غُسَـنٌ مُقَلّدٌ من جناحِ الدُّرِ تِقْصَـارا [٧]

ومن أكثر أنواع القلائد وروداً في الشعر الجاهلي السِّمْط، وهو خيط النَّظم، وقيل هو قلادة أطول من المخنقة، وإذا كانت القلادة ذات نظمين فهي ذات سِمْطين[٨]، وغالبـاً ما ارتبط لفظ السِّمْط بالسِّلْك والنِّظام والخَرز في الشعر الجاهلي، والمادة التـي كانـت

---

[١] اللسان: مادة (كَرَم).
[٢] ديوان ابن مقبل: ٢٠٦.
[٣] شرح أشعار حماسة أبي تمام: ٧٦٩/٢.
[٤] الكرم: القلادة، ويقال هي صوغ يُتّخذ في المخانق، والفريد: جمع فريدة وهو صوغ من ذهب يُجعـل بـين الدُّر ويقال له الدرّة.
[٥] اللسان: مادة (قصر)، والمخصص: ٤٤/٤.
[٦] ديوان عدي بن زيد: ٥٠.
[٧] الغسن: جمع غسنة، وهي خصلة الشعر.
[٨] اللسان: مادة (سمط).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصنع منها السموط، كاللؤلؤ والزبرجد والفضة وغيرها، ومن ذلك قول الخنساء في رثاء صخر[1]:

يا عيْنُ جُودي بدَمعٍ منكِ مَسكُوبِ كلؤلُؤٍ جَال في الأسْماطِ مَثْقُوبِ

ويشير علقمة الفحل إلى أنّ السِّموط كانت تُصنع من اللؤلؤ والزَّبرجد، يبدو ذلك في قوله[2]:

وجِيدِ غَزالٍ شادنٍ قَردَتْ لـه منَ الحلي سَمطَيْ لُؤلُؤٍ وزبرجَد

وفي الشعر الجاهلي نماذج كثيرة، تصوّر المرأة التي تزيّنت بأجمل أصناف الحُلِيّ، ومن ذلك القُروط التي كانت تُزيّن الأذن[3]، وهناك ضرب يسمى النَّوفلي تُزيّن به المرأة رأسها تحت الخِمَار[4]، وغير ذلك من ضروب الحليّ، إلاّ أنّ النماذج التي تضمَّنها الشعر الجاهلي تعطي تصوّراً واضحاً عن المظهر الحضاري المادي الذي يتعلّق بالجانب الاجتماعي عند العرب في العصر الجاهلي، وقد تجلّى ذلك بوضوح في الطريقة التي صنعت فيها أنواع الحليّ، بفضل معرفة العرب واختصاصهم بمهنة الصِّياغة، والتفنّن في صناعة عدة أشكال من الحُلِيّ، ثمّ يظهر الجانب الحضاري كذلك في اتّصال العرب بغيرهم من الأمم وبخاصة الفرس، إذ اطّلعوا على طريقة صناعتهم للحليّ، وعرفوا أشكالاً كثيرة منه، ودلّ على ذلك ورود بعض الألفاظ الفارسية في أشعار الجاهليين.، وهذا الأمر لا يعني الإنقاص من الجانب الحضاري للعرب في ذلك العصر.

---

[1] ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو السُلمية، تحقيق أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمان، ١٩٨٨: ٣١٥.

[2] ديوان علقمة الفحل: ١٠٥.

[3] انظر: لسان العرب: مادة (قرط)، وانظر: ديوان عمرو بن كلثوم: ٢٤.

[4] انظر: ديوان جران العود النميري: ١. ومجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٤٥-١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: صناعة الطِّيب وأصنافه:

من المظاهر الاجتماعية التي تتَّضح فيها الحضارة المادية، صناعة الطيب وتعدّد أصنافه، وهذه الصناعة تدخل ضمن حرفة العِطارة، وقد عرفت البيئة العربية داخل الجزيرة وخارجها مختلف أنواع الأعشاب التي يمكن أن يستخرج منها أنواع من الطِّيب. وقد أشارت المصادر القديمة التي درست بيئات العرب إلى أنّ اليمن من أكثر البلاد التي اشتُهِرت بصناعة الطِّيوب واللاَّدِن، فالعنبر ودَمْ الأخْوَيْن مثلاً من مصادر ثروة اليمن في العصر الجاهلي، إذ يكثر وجودهما بسواحل عدن وما يليها[1]. ولم يكتفِ العرب في ذلك العصر بما عُرف في بلادهم من أصناف العطور، بل حصلوا على أنواع أخرى من البلاد المجاورة عن طريق التجارة وبخاصة بلاد الفرس، والروم، وما كان يُسْتجلب من بلاد الهند.

والتفت الشعراء إلى هذا الجانب الحضاري الاجتماعي في معرض حديثهم عن المرأة التي اعتنت بنفسها واستعملت أنواعاً متعدّدة من الدهون والعطور، فكما أعجب الشعراء بالنساء اللواتي تزيّن بالحليّ، أُعجِبوا أيضاً بهذا العطر والرائحة التي كانت تفوح من أجسادهن وثيابهن، وأول ما يمكن الحديث عنه من خلال الشعر، هو تجارة العطور وصناعتها بمختلف أنواعها عند العرب، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي يشير إلى تجارة العرب مع بلاد فارس من نَاحية العراق[2]:

الإكليل، الهمداني، أبو محمد أحمد بن يعقوب، (ت٣٥٠هـ)، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ع، منشورات دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦: ٣١، وصفة جزيرة العرب: ٥٢، وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٧٠/٧، وانظر دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، السيد عبد العزيز سالم: ٨٩-٩١.

[2] شرح أشعار الهذليين: ٤٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقلتُ لِقلبي يَا لكَ الخيرُ إنّمـــــا يُدّلّيك للموتِ الجَديدِ حِبابُهـــــا
وأُقسمُ ما إنْ بَالةٌ لَطميَّـــــــةٌ يَفُوحُ بِبابِ الفارسيّين بابُهـــــا [1]
ولا الرّاحُ رَاحُ الشّام جاءتْ سبيئةً لّها غايةٌ تَهدي الكِرامَ عُقابُهـــا

وكانت مدينة مُشَقَّر من المدن التي كانت ترحل إليها القوافل التي تكون محمّلة بـأنواع العطور، وقد جاء ذكرها في قول عامر بن الطفيل[2]:

أرَدْتُ لِكيْما يَعلمُ اللهُ أنَّنـــــــي صَبرتُ وأخْشى مثلَ يومِ المُشَقَّـرِ [3]

وأما صناعة الطيب وهي مهنة العطارين آنذاك، فيظهر فيها الجانب الحضـاري المادي، فالعطارون كانوا يخلطون أنواعاً من الأعشاب ودمّ بعـض الحيوانـات، ثـمّ يقومون بعملية سحق لها فتخرج من الخلطة رائحة طيّبة، وغالباً ما كانت تـرد لفظـة (المَدَاك) في الشعر الجاهلي إشارة إلى صناعة العطور، ومن ذلك قول حُميد بن ثـور الهلالي[4]:

إذا أنتَ باكرْتَ المنيئةَ باكـرتْ مَداكاً لها من زَعفرانٍ وإثْمِـــدَا [5]

وقال عبد الله بن سلمة الغامدي[6]:

---

[1] البالة: وعاء الطيب والقارورة والجِراب، ويُقال إنها معرّبة عن اليونانية، والأصحّ أنها مشـتقّة مـن بَيلـة الفارسي ومعناه الوعاء. انظر: معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة، أدّى شير، مكتبة لبنان، بيـروت، ١٩٨٠: ١٦. والفارسيون: تجّار، وكل شيء يأتي العرب من جانب العراق فهو فارسي.

[2] ديوان عامر بن الطفيل: ٦٢.

[3] المشقر هي مدينة هجر. وكان بنو تميم وألفاف من القبائل فيها قطعوا على لطيمة لكسرى، جاءت من قبـل باذان من اليمن، فلما صارت في أرض نجد، اعترضها هوْذه بن علي الحنفي فعرضت له بنو تميم بموضع يقال له نطاع. فأخذوا منها سيوفاً وآنية وجوهراً وعطراً...الخ، هذا الخبر يـدلّ علـى تجـارة العطـور وغيرها. انظر: المصدر السابق نفسه: ٦٢-٦٣.

[4] ديوان حميد بن ثور: ٢٧.

[5] المداك: حجر يداك به الطيب فيسحق ويدق. والمنيئة: دباغة الجلود.

[6] المفضليات: ١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَنَزعتَهُ وكأنَ فجَّ لِبَانِـــــــــهِ وسَواءَ جَبْهتهِ مَدَاكُ عَـــــــرُوسِ [1]

وقال عَبيد بن الأبرص يذكر المَداك كذلك[2]:

وإذا اقْتَنَصْنا لا يَجِفُّ جِضَابُهــا وكأنَّ بِرْكَتَها مدَاكُ عَـــــــرُوسِ

وأشار حُميد بن ثور الهلالي إلى الصّلايةْ التي يتم بها سحق الطيب، فقال[3]:

فَغَادَرْنَ مُسْوَدّ الرَّقادِ كأنّـــــــهُ حَصَى إثْمِدٍ بين الصّلاء سَحيــقُ

وفي ذلك قال أمية بن أبي الصلت[4]:

سَراةَ صلاية خَلْقاءَ صيغَـــــت تَزَلُّ الشّمسُ ليس لها رَتَـــــــابُ

والأمثلة على صناعة الطيب في الشعر كثيرة كلها تدلّ على حضارة البيئة العربية فـــي هذا الجانب[5].

وأشار زهير بن أبي سُلْمى إلى أنّ المرأة كان لها حضور في صناعة العطــور وبيعها، فذكر عطر (منشم)، وهي امرأة عطّارة من خزاعة كانت تبيــع العطــر فــإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم، فقال فيها[6]:

تّداركتمّا عَبْساً وذُبيان بَعدَمـــــا تفانَوْا ودَقُّوا بَيْنهم عِطْر منشَـــــمِ

واهتمّ الشعراء بالحديث عن أنواع العطور التي كانت تصنع في البلاد العربيــة، وتلك التي كانت تأتي إليهم من الأمم المجاورة عن طريق التجارة. وغالباً ما كان يــرد

---

[1] فج لبانه: وسط صدره.

[2] ديوان عبيد بن الأبرص: ٧٠.

[3] ديوان حميد بن ثور الهلالي: ٣٤.

[4] ديوان أمية بن أبي الصلت: ١٦١.

[5] انظر في هذا المعنى: ديوان علقمة الفحل: ٩٧، واللسان: مادة (دوك).

[6] ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام ثعلب أحمد بن يحيى الشيباني، الدار القوميــة، القــاهرة، ١٩٦٤: ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحديث عنها عند ذكر المرأة والإشارة إلى محاسنها بما في ذلك عطرها، ومن أنواع العطور التي يمكن أن تتأتّى الصورة الحضارية في طريقة صنعها وتحضيرها:

- **الزَّعْفَران:** يُعدُّ الزعفران من أنواع الطيب المعروفة عند العرب، وصفته بعض الدراسات بأنّه صنف من أصناف النباتات فيه أنواع برية، ونوع زراعي صيفي طبي مشهور، يزرع وتستعمل ورقات زهره في الطب، ولونه أصفر فاقع، تتّخذه المرأة تُطيِّب به جسدها وثيابها[١]، وأشار ابن منظور إلى أنّه الصِّبغ المعروف من أنواع الطِّيب[٢]، قال الحطيئة يصف نساءً تطيّبن بالزَّعفران والمِسْك[٣]:

ترَى الزَّعْفُرانَ الورْدَ فِيهنَّ شَامِلاً وإنْ شِئنَ مِسْكاً خَالِصاً لونُهُ ذَفِرْ

ويظهر أنّ المرأة العربية في الجاهلية كانت تُطيّب كامل جسدها بالزَّعفران، يقول الشمّاخ في وصف صاحبته[٤]:

كَأنَّ الزّعفران بمِعْصميْهـا وباللّباتِ نَضْحُ دّمٍ نَجِيعُ

والزَّعفران أنواع، فمنه ما يكون لونه أبيض، ومنه ما يكون أحمر، ومنه ما يكون أصفر اللون، حتى إنّ المرأة في الجاهلية كانت تأخذ منه ما كان يميل إلى الصفرة لِتُزين به بشرتها؛ لأنّ العرب كانوا يحبّون البشرة البيضاء المائلة إلى الصفرة، قال الطفيل الغنوي[٥]:

هِجَانُ البَياضِ أشْرَبَتْ لونَ صُفرةٍ عَقيلةُ جَوٍّ عازِبٍ لم يُحلَّلِ

---

[١] الزينة في الشعر الجاهلي، يحيى الجبوري، حوليّات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، ع٦، قطر، ١٩٨٣: ٢٢٩.

[٢] اللسان: مادة (زعفر)، والصحاح في اللغة والعلوم (زعفران).

[٣] ديوان الحطيئة، أوس بن جرول، رواية ابن حبيب، شرح أبي سعيد السكّري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧: ١٠٥.

[٤] ديوان الشّماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨: ٢٢٤.

[٥] ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨: ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة نوع من الزعفران كان معروفاً بالشام يسمّى بالزعفران الجَاديِّ نسبة إلى قرية الجَاديَّة بالشام، وفيه يقول حسّان بن ثابت[1]:

يَجْتبنَ الجَاديَّ في ثُقَبِ الرَّيـــ ـــطِ عَلَيْها مَجاسِدُ الكتَّـــــانِ

وكان الزَّعفران يتوافر بكثرة في البيئات العربيّة، ولهذا بالغت النساء في التطيّب به، يبدو هذا في قول الحطيئة يصف المرأة التي بالغت باستخدام الزعفران ووضعه على جيب ثوبها[2]:

وفي الظَّعائِنِ لَوْ أَلممْتَ بَهْكَنَـةٌ بالزعْفرانِ لَعُوبٌ جَيْبُها شَـــرِقُ

ويُخلط الزَّعفران مع نباتات أخرى أو مجموعة من المساحيق، إذْ يقوم العطّار بصناعة نوع خاص منه تفوح رائحته، ولهذا كثر التطيّب به وتجاوز الجسد إلى الثياب والفراش عند المرأة العربية في العصر الجاهلي.

- **العَنْبر:** يُعدُّ العنبر نوعاً من العطور الذي اهتمّت به المرأة آنذاك، وهذا النوع يتكوّن من أخلاط الطيب وهي في أغلبها تتكوّن من الزعفران[3]، وقد صوّر الشعر الجاهلي استعمال النساء لهذا النوع من الطيب، ومن ذلك قول عدي بن زيد يتحدّث عن طيب صاحبته أم علي، مشيراً إلى مزج الطيب[4]:

لَسْتُ أدْري وقَدْ بَدأتُم بِصَرْمـــي أعَدُوٌّ يَلومُني أمْ صَدِيـــــقُ
أصْيَبُ الطِّيبِ طيبُ أمِّ عَلـــــيٍّ مِسْكُ فَأرٍ وعَنبرٍ مَفتُـــــوقُ
خَلَطَتْهُ بِآخِرَ وبيَـــــــــانٍ فَهوَ أحْوَى على اليَدينِ شَرِيـقُ

[1] ديوان حسان بن ثابت: ٢٥٥/١، ومعجم البلدان: ٩٢/٢، وانظر: الملابس والزينة في العصر الجاهلي: ١٧٣-١٧٤.

[2] ديوان الحطيئة: ١٥٥.

[3] اللسان: مادة (عبر)، ومجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٧٤.

[4] ديوان عدي بن زيد: ٧٦-٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الملاحظ أنّ ذكر العنبر ارتبط في الشعر بحديث الشعراء عن المسك، مما يؤكّد قيمة هذا النوع من العطور التي حرصت المرأة على التطيّب به، ومما جاء في ذلك قول المُرار بن المُنقذ[1]:

تُمَّ تنهَدُّ على أنْماطِها ... مثلَ ما قالَ كثَيبُ مُنْقَعِرْ [2]

عَبَقُ العنبرُ والمسكُ بها ... فهْيَ صَفراء كعُرْجون العُمُرْ

واستخدمت المرأة المسك والزعفران في تطييب فراشها وملابسها، وكذلك اتّخذت العنبر لتطيب به ملابسها، ومن ذلك قول ابن مقبل[3]:

كأنَّ القَرَنْفُل والزّنْجبيلَ ... وذَاكِي العَبير بجلْبَابِها

والعَبير هو العَنْبر نفسه، لهذا ورد في الشعر لفظ العَنبر والعَبير، ومن ذلك قول عبدالله ابن سَلَمة الغَامِدي[4]:

فَغَّادَرَت الفتاةُ كأنّ فِيها ... عَبيراً بَلَّهُ فيها الكُعُوبُ

– **المِسْك:** يُعدُّ المسك من أشهر أنواع العطور التي عرفها العرب في العصر الجاهلي على الرغم من أنه لم يكن يتوافر في البلاد العربية إلاّ عن طريق جلبه من البلدان الأخرى المجاورة وبخاصة فارس، إذْ كان يصل إليهم عن طريق البحر، ولهذا كان المسك من أغلى أنواع العطور، وجاء في المعاجم أنّ المسك من العطور الدُّهنيّة يُفرزها أيّل المسك[5].

---

[1] المفضليات: ٩٢.

[2] الأنماط: ضرب من البُسط. ومنقَعِر: مُنقطع..

[3] ديوان ابن مقبل: ١٣٥.

[4] المفضليات: ١٠٣.

[5] اللسان: مادة (مسك)، وتاج العروس: مادة (مسك). والمسك كلمة فارسية توحي بعلاقة للفرس بتجارة المسك مع الجزيرة العربية، انظر: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء: ٣٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحتاج صناعة هذا النوع من العطور إلى وقت وجهد كبيرين، ومهارة في طريقة تحضيره ليصبح عُطراً، وقد أشار الأبْشِيهي إلى طريقة إخراج عطر المِسْك بقوله: "إنّ فأرة المسك دُوَيْبة شبيهة بالخَشَف تُصاد لِسرّتِها، فإذا صادها الصيّاد عَصَب السُّرة بعِصابة شديدة فيجتمع فيها دمها ثمّ يذبحها، ثمّ يأخذ السُّرة فيدفنها في الشَّعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يُرام نَتِناً. وقد يوجد جُرْذان سُود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلاّ رائحة لازمة لها"[١].

ويظهر أنّ المرأة المرفّهة هي التي كانت تتطيّب بالمسك، ولذلك أخذت نصيباً وافراً من وصف الشعراء، وهو عند بعضهم يُساوي أصنافاً كثيرة من الحَلْيّ، إذْ يعطي المرأة قيمة جماليّة كما هو الحَلْي الذي يُزيّن المرأة، يبدو هذا في قول امرئ القيس[٢]:

غَرائِرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ يُحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَذراً مُفَقَّرا [٣]

وريحَ سناً في حُقّةٍ حِمْيريّةٍ تُخصُّ بِمَفْروكٍ من المِسْكِ أذْفَرا [٤]

ويصف المنخل اليشكري النساء وهنّ يرفلن بالثياب التي تعبق برائحة المسك، فيقول[٥]:

يَرْفُلْنَ في المِسكِ الذّكيِّ وصَائِكٍ كَدَمِّ النّحيرِ [٦]

وثمّة نوع من أنواع المِسْك يُتَّخذ على شكل دهن، تتّخذه المرأة، تُطلي به جسدها فتضوع الرائحة الذكية من كامل الجسد، وفي ذلك قال الحطيئة[٧]:

ترَى الزّعفرانَ الورْدَ فيهنَّ شَامِلاً وَإنْ شِئْنَ مِسكاً خَالصاً لَوْنهُ ذَفِرْ

---

[١] المستطرف في كل فنّ مستظرف، الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، طبعة منقّحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٤: ٦٨/٢.

[٢] ديوان امرئ القيس: ٥٩.

[٣] غرائر: غوافل عن الدهر لتنعّمهنّ، والكِنّ: ما يكنُّ به عن الحرّ والبرد، والمفقّر: المصنوع على هيئة فقار.

[٤] سنا: ضرب من الطيب، والمفروك: مسك فُرِك فانتشرت رائحته بقوة، وأذفر: قوي الرائحة.

[٥] الأصمعيات: ٦٠.

[٦] الصائك: اللازم أراد به الطيب، والنحير: المنحور.

[٧] ديوان الحطيئة: ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغالباً ما دلّت لفظة الفأرة على المسك لأنها أصله، وفي هذا قال عنترة[١]:

وكأنّما نظرتْ بعَينَيْ شَـــــادِنٍ رَشأٍ من الغِزْلان ليسَ بِتـــــوْأمِ

وكأنَّ فَأْرةَ تَاجرٍ بِقسيمـــــــــةٍ سَبَقَتْ عَوارِضها إليكَ من الفَـــمِ [٢]

وكانت المرأة المُترفة تحرصُ على أن تُطيِّب جسدها وملابسها وفراشها بالمسك وغيره من العطور حتى تفوح الرائحة الذكية من كل جانب منها، يبدو هذا في قول جِران العود يصف صاحبته وقد فاحت الرائحة الذكية من ثوبها وجسدها[٣]:

لَقَدْ عَالجَتني بالنِّصاءِ وبَيتُهـــا جَديدٌ، ومن أثوابِها المسكُ يَنْفـــحُ

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الشعر الجاهلي يزخر بذكر هذا النوع من العطور، والأمثلة على ذلك كثيرة[٤]، وتتجلّى صورة المظهر الحضاري كذلك عند عملية صنع المسك ومعرفة العرب له عن طريق اتصالهم بالأمم الأخرى، ولعلّ مسك دارين هو أشهر أنواع المسك الذي كان يصل إليهم عن طريق البحر. ومما جاء في ذلك قول النابغة الجعدي في وصف مجلس المنذر بن مُحَرّق[٥]:

ورَاحاً عِراقياً ورَيْطاً يَمانيـــاً ومُعْتبطاً مِنْ مِسْكِ دَارِين أذْفَـــرَا [٦]

– **المَلاب:** يعدّ المَلاب من أنواع الطيب الذي وردَ ذكره في الشعر الجاهلي، ولفظة المَلاب تبدو فارسية معرّبة، أصلها مُلاب، وهو كل عطر مائع[٧]، وقد عُرف هذا النوع

---

[١] ديوان عنترة: ١٩٥.

[٢] القسيمة: الجونة التي فيها الطيب.

[٣] ديوان جران العود: ٤.

[٤] انظر على سبيل المثال: الاختيارين: ٣٦٠، وديوان الأعشى: ١٠٥، وديوان عدي بن زيد: ١٦٦.

[٥] شعر النابغة الجعدي: ٤٤.

[٦] دارين فُرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند.

[٧] معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من العطور برائحته الطيّبة كرائحة المِسْك، ارتبط ذكره بحديث الشعراء عن المِسْـك، ومما جاء في ذلك قول ابن مقبل[١]:

طَرَقتُ بِرَيّا رَوْضةٍ وسْميَّـــــةٍ غَرِدٍ بِذابِلِها غِنَاءُ ذُبَـــــــــابِ [٢]

بِقَرارةٍ مُتراكبٍ خَطْمِيُّهـــــــا والمِسْكُ خَالطها ذَكيٌّ مَـــــلابِ

ويصف الأعشى صاحبته التي تخرج من لباسها الرائحة الذكية، فيقول[٣]:

حَسَنٌ مُقَلّدُ حَلْيِـــــــــــــهِ والنّحرُ طيِّبةٌ ملابُـــــــــــــهْ

وتحدّث الشعراء عن الملاب أثناء حديثهم عن الناقة أحياناً، مما يدلّ على قيمة هذا النوع من الطيب، ومن ذلك قول بشر بن أبي خازم يشبّه العرق المجتمع من مغـابن ناقتـه بالملاب، وربّما يكون وجه الشّبه متمثّلاً في اللون[٤]:

وَنَاجيَةٍ حَملتُ على سبيـــــلٍ كأنَّ على مَغابِنها مَلابـــــــــا [٥]

وارتبط ذكر المَلاب بذكر العروس أيضاً؛ لأنّها تتخير أجود أنواع العطور، وفي ذلـك قال المُمزّق العبدي[٦]:

كأنَّ نَضيحَ البَولِ من قُبلِ حَاذِها مَلابُ عَرُوسٍ أو مَـــلادِغُ أَزْرَقِ

والشواهد على هذا النوع من العطور كثيرة في الشعر، ويبدو أنّه كان يصل إلى العرب من بلاد فارس[٧].

---

[١] ديوان ابن مقبل: ٢.

[٢] روضة وسْمية: أي رائحة روضة أصابها الوسمي وهو مطر أول الربيع.

[٣] ديوان الأعشى: ٢٨٧.

[٤] ديوان بشر بن أبي خازم: ٣٢.

[٥] الناجية: الناقة السريعة، والمغابن: أسفل البطن.

[٦] الأصمعيات: ١٦٥.

[٧] انظر على سبيل المثال: ديوان ابن مقبل: ١٣، وديوان الأعشى: ٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرف العرب أنواعاً أخرى من العطور، نذكر منها **الكافُور**، وهو عبارة عن مجموعة من الأخلاط النباتية وبعض الدهون، وبعد مزج هذه الأخلاط تخرج رائحة تُسمّى عِطر الكافُور، وقد جاء ذكر هذا النوع في الشعر أيضاً، فمن ذلك قول الأعشى[1]:

صَادَتْ فُؤادِي بِعَيْنَيْ مُغْزِلٍ خَذَلَتْ تَرْعَى أغنَّ غَضِيضَاً طَرْفُهُ خِرِقَا
وَبارِدٍ رَتِلٍ عَذبٍ مَذاقَتُهُ كأنّما عُلَّ بالكافُورِ واغْتَبَقَا

وورد لفظ الكافور في الشعر إلى جانب حديث الشعراء عن المسك، يبدو هذا في قول مالك بن حريم[2]:

أهَيمُ بِها لَم أقْضِ منها لُبَانَةً وكُنتُ بِها في سَالفِ الدّهرِ مُوزَعا

ويبدو أنّ الكافور كان يخلط بنباتات من الرَّياحين، ولهذا تخرج منه رائحة فوّاحة، يظهر هذا في قول ابن مقبل يصف فتاة شّابة حسنة الخلق مشيراً إلى مزج المردقُوش بالمسكِ والكافُور[3]:

خُودٌ تُطَلَّى بِوَرِدِ المَردَقُوشِ عَلى الـ ـمِسْكِ الذَّكيِّ بِها كافُورَةً أُنُفَا [4]

ومظهر حضاري آخر ارتبط بحديث الشعراء عن العطور، يتمثّل في صناعة أوعية خاصّة لِحفظ الطِّيب، من هذه الأوعية ما كان يُصنع من الأصداف والخَرَز واللؤلؤ، وفي هذا دَلالة واضحة على اهتمام المرأة العربيّة بما تقتنيه من عُطور؛ ولهذا حافظت عليه إلى جانب محافظتها على حُلِيِّها.

---

[1] ديوان الأعشى: ٣٦٥.

[2] الاختيارين: ٢٣٢.

[3] ديوان ابن مقبل: ١٨٢.

[4] المَردقُوش: نبات من الرياحين وهو فارسي معرّب أصله مُرْدَه كوش ومعناه الليّن الأذن، انظر: معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأوعية التي يحفظ فيها الطيب وغيره **البَالَة**، وهي وعاء ضخم كانت تضع فيه المرأة أنفس ما لديها من متاع بما في ذلك العطور، وقد وردت البَالَة في الشعر عند حديث الشعراء عن تجارة العطور التي توصف باللَّطمِيَّة، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهُذلي يشير إلى تجارة العطور ويذكر البَالَة[1]:

فَقُلتُ لِقَلْبي يَا لكَ الخيرُ إنّمَا ... يُدَلِّيك لِلْمَوتِ الجَديدِ حِبَابُها

وأُقسِمُ ما إنْ بالَةٌ لَطمِيَّةٌ ... يَفُوحُ بِبابِ الفارِسيّين بَابُها

وقال في المعنى نفسه يصف الدُّرة[2]:

وَصُبَّ عليها الطّيبُ حتّى كأنّها ... أسِيٌّ عَلى أُمِّ الدّماغِ حَجِيجُ

كأنَّ عَليها بَالةً لَطميَّةً ... لّها من خلالِ الدّأْيَتينِ أرِيجُ [3]

ومن أوعية حفظ الطيب **الحُقَّة:** وهي تُصنع أحياناً من الخشب أو العَاج، وهي وعاء لحفظ الحَلْي، إلاّ أنّها اختصّت بحفظ أنواع العطور، وقد جاء ذكرها في قول الأعشى يصف بشرة صاحبته[4]:

كَالحُقَّةِ الصّفراءِ صَا ... كَ عَبيرُها بِمَلابِها

وإذا لَنا تامُورَةٌ ... مَرْفوعةٌ لِشِرَابها

وكانت الحُقَّة مختصّة بملوك العرب من حِمْيَر؛ ولهذا تحدّث الشعراء عن الحُقَّة الحِمْيرية، قال فيها امرؤ القيس[5]:

---

[1] شرح أشعار الهذليين: ٤٤/١. وقد مرّ شرح (البالة)، انظر ص٥ من هذه الدراسة.

[2] المصدر السابق نفسه: ١٣٤/١-١٣٦.

[3] الدّأْيَتينِ: مَوْصلا الجنب في الصدر وهما الفقرتان اللتان في الأضلاع.

[4] ديوان الأعشى: ٢٥٥. ويبدو أنّ الحقة صفراء من أثر الطيب، ولهذا شبه بها بشرة صاحبته.

[5] ديوان امرئ القيس: ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غَرائِرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمـــــةٍ يُحَلَّينَ ياقُوتاً وشَذْراً مُفَقّـــــــرا

ورِيحَ سنَاً في حُقَّةٍ حِميريَّـــــــةٍ تُخَصُّ بِمَفروكٍ مِنَ المِسكِ أذْفــرا

ومن هذه الأوعية **القَسِيمة**، وهي من أوعية العطّارين يُجعل فيها الطيب، وفيهـــا قـــال عنترة[1]:

وكأنّما نظَرتْ بعينيْ شَـــــادنٍ رَشَأٌ مِنَ الغُزْلانِ لَيْسَ بِتَـــــوْأَمِ

وكأنَّ فأرةَ تاجرٍ بِقَسيمـــــــــةٍ سَبَقَتْ عَوارِضَها إليكَ من الفَـــمِ

وهناك أوعية أخرى ورد ذكرها في الشعر منها الجُؤْنة، وهي سَفَط يوضع فيـــه الطِّيب، مستدير الشكل يُصنع من الجِلد، يمكن أن يستخدم أيضاً لحفظ الملابس[2]، وقـــد ورد ذكرها في قول الأعشى يصف نساءً[3]:

إذَا هُنَّ نَازَلْنَ أقْرانَهُـــــــــنَّ وكَانَ المِصَاعُ بِما في الجُـــؤَنْ

ومن هذه الأدوات **القَارُورَة**، وهي وِعاء من الزُجاج يحفظ فيه الطّيب وغيـــره، يقول عَبيد بن الأبرص[4]:

أمَّا إذا ما أدْبَرتْ فكَأنّهَـــــــا قَارُورةٌ صَفْراءُ ذاتُ كَبِيـــــسِ

وللنساء أدوات خاصة أخرى تحفظ فيها متاعها وطيبها، فهنـــاك **الشّـــرِيط**، أي العَتِيدة التي تحفظ فيها المرأة طيبها وما يخصّها من مَتاع، ورد ذكرها في قول عمـــرو ابن معديكرب يخاطب امرأة أبيه[5]:

---

[1] ديوان عنترة: ١٩٥.

[2] اللسان: مادة (جَأن).

[3] ديوان الأعشى: ١٧.

[4] ديوان عَبيد بن الأبرص: ٧٠.

[5] شعر عمرو بن معديكرب: ١٦٩..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَزَيْنُكِ في شَرِيْطِكِ أمَّ عَمْـــرٍو وسَابِغةٌ وَذُو النُّونَيْنِ زَيْنـــــــي

وبعض أوعية الطيب اختصّت بحفظ المسك، منها **الصُّوَار**، قال الأعشى يصـف رائحة المِسك التي تتضوّع من صاحبته[1]:

إذَا تَقُومُ يَضُوعُ المِسْكُ أصْـورَةً والزَّنْبقُ الوَرْدُ مِنْ أرْدَانِها شَمِـلُ

ويمكن من خلال النماذج الشعرية السابقة التي تضمّنت الحديث عـن العطـور وأنواعها وأوعيتها أن يتلمّس الباحث مدى التحضّر الذي وصل إليه العرب في بيئـات الجاهلية المختلفة الجاهلي، سواء داخل الجزيرة العربية، أو خارجها.

وقد بدا المظهر الحضاري جليّاً في صِناعة مختلف أنـواع العطـور، وطريقـة مزجها بنباتاتٍ متنوعة، فضلاً عن صناعة أوعية خاصة لحفظ الطيب والمَتاع دلّت على مهارة الصّانع.

[1] ديوان الأعشى: ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **رابعاً: أواني الطعام والشراب:**

تُعدُّ صناعة أواني الطعام والشراب المختلفة من الشواهد الحيّة التي تتجلّى فيها صورة حضارية مادية في حياة العرب الاجتماعية في العصر الجاهلي، فالعرب في تلك الحقبة الزمنية بمختلف بيئاتهم لهم عاداتهم ومناسباتهم، ومجالس شربهم الخاصّة، وفي هذه المناسبات كلها استعمل العرب أواني خاصة للطعام والشراب، منها ما هو بسيط في صنعه وفي المادة الأولية التي تُصنع منها كالجلود وعَسف النَّخيل وغيره، ومنها ما وصل إليهم من الأمم المجاورة عن طريق التجارة وغيرها.

وبعض هذه الأواني التي اتّخذوها لشرابهم وطعامهم اختصّ بها سادات القبائل والأغنياء الكرماء، وبعضها اختصّت بها قصور الملوك، وهذا يعني أنّ المواد الأولية التي صُنِعت منها أواني الطعام والشراب قد تنوّعت، فأواني الملوك مثلاً كانت في غالبها تُصنع من الفضّة والنحاس، وبعضها من الذهب، وأواني البُسطاء صُنِعت من الجلود وبعض أنواع الخشب في أغلب الأحيان[1].

ويمكن في ضوء دراسة نماذج من الشعر الاستدلال على المظهر الحضاري المادي المتمثّل في صناعة أواني الطعام والشراب، ومن هذه الأواني التي جاء ذكرها مكرَّراً في الشعر الجاهلي ما يلي:

– **الإبْرِيق:** وهو لفظ فارسي مُعرّب، قال كُراع: هو الكُوز، وقال أبو حنيفة مرة: هو مثل الكُوز وهو في كل ذلك: فارسي[2]، وفي التنزيل ﴿ يَطُوفُ عَلَيهِم وِلْدَانٌ مُخَلّدون بِأكوابٍ وأبارِيق وكَأسٍ من مَعين ﴾[3].

---

[1] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٧/٥٥٠.

[2] لسان العرب: مادة (برق).

[3] الواقعة: ١٧، ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ الأباريق كانت تُصنع من الخَزف والفَخّار، ومنها ما كان يصنع من بعض المعادن مثل الفضّة والنحاس، وقد أشار جواد علي إلى أنّ أكثر الأواني عند عرب الجاهلية كانت تُصنع من الخَزف والفَخّار[١].

وتظهر صورة الأباريق عادة في الشعر الجاهلي عند حديث الشعراء عن الخمر، وكأنّ هذه الأباريق كانت تستخدم لتنقية الخمر قبل شُربها، وغالباً ما كان يُوضع في فم الإبريق ما يُسمّى بالفُدُم، وهو عبارة عن قِطعة يُصفَّى بها الشراب قبل سكبه من الإبريق، وممّا جاء في ذلك قول عدي بن زيد يصوّر قوماً يشربون الخمر[٢]:

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخُوا عِندنا ... يَشرَبُون الخمرَ بالماءِ الزُّلالْ
والأباريقُ عليها فُدُمٌ ... وعِتَاقُ الخيلِ تَرْدي في الجِلالْ

ويبدو أنّ ألفاظ الحضارة هذه قد أثّرت في الشعر الجاهلي، وبخاصة في رسم الصور، وهذا ما يظهر في حديث عدي بن زيد عن الخمر، وهو ما يؤكّد ارتباط الأباريق بالخمر، فقال[٣]:

بِأباريقَ شِبهِ أعْتاقِ طَيْرِ الـ ... ـمَاءِ قَدْ جِيبَ فَوقَهُنَّ خَنيفُ[٤]

وقال[٥]:

أصبَح القومُ قَهوَةً ... في الأباريقِ تُحْتَذَى[٦]
مِنْ كُميتٍ مُدَامةً ... حَبَّذا تِلكَ حبّذا

---

[١] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨/٥٨-٥٩.
[٢] ديوان عدي بن زيد: ٨٢.
[٣] نفسه: ١٠٢.
[٤] الخنيف: ثوب من كتّان أبيض.
[٥] ديوان عدي: ١٢٦.
[٦] القهوة: من أسماء الخمر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتّضح الصورة الحضارية في مشهدٍ آخر لمجلس الخمرة وأدوات شربها عند عدي بن زيد، إذ يصوّر تاجر الخمر اليهودي الذي استباها وصَانها، ثمّ تظهر صورة القينة وفي يمينها الإبريق الذي أخذت تصبّ منه الخمر، يبدو هذا الوصف في قوله[1]:

صَانَها التاجرُ اليهوديَّ حَوْلَيْـــ ـــنِ فأذْكى من نشرِها التَّعتيـــقُ
ثُمَّ فضَّ الخِتامُ عن حَاجِبِ الـدَّ م نٍّ وحانتْ مِنَ اليهوديِّ سَـــوقُ
فاسْتَباها أشَمُّ فِرْقٌ كريـــمٌ أريَحيَّ غَمَندرُ غِرْنيـــــقُ
ثُمّ فادُوا على الصَّبوحِ فجـاءتْ قَيْنَةٌ في يَمِينها إبْرِيـــــقُ
قَدّمتهُ على سُلافٍ كَعَينِ الـــدِّ يكِ صَفَّى سُلافَها الـــــرُّواقُ [2]

وترد صورة الإبريق كذلك إلى جانب أدوات أخرى تظهر أيضاً في الحديث عن الخمر وشربها، وسيأتي الحديث عن هذه الأدوات، وممّا جاء في ذلك قول الأعشى الذي بدت هذه الأدوات في شعره بوضوح[3]:

ولقَدْ شَهِدتُ التَّاجرَ الْـــــ ـــأُمَّانَ مَوْرُوداً شَرَابُـــــهْ [4]
بالصَّحنِ والمِصْحَاةِ والـــــ إبْريقِ يَحجُبُها عِلابُـــــهْ [5]
فَإذَا تُحاسِبُهُ النَّـــــدَا مَى لا يُعَذِّبني حِسَابُـــــهْ

[1] ديوان عدي بن زيد: ٧٧.
[2] سلافة الخمر: ما سال وتجلّى منها قبل العصر.
[3] ديوان الأعشى: ٢٨٩، وانظر في ذلك: السمات الحضارية في شعر الأعشى، دراسة لغوية وحضارية، زينب العمري، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣: ٣٣٧-٣٣٩.
[4] الأمّان: المؤتمن الذي يوثق به، فهو لا يقدّم إلاّ أجود الخمر.
[5] المصحاة: قدح من فضة يشرب به، والعِلاب: جمع عُلبة، وهو قدح ضخم من خشب أو من جلود الإبل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أسماء الإبريق الواردة في الشعر الجاهلي (الأزْهَر)، وهو كذلك الــدّن، أو الإبريق، مختص بالخمر، وتبدو صورة الأزهر والإشارة إلى طليه وصناعته في قــول المسيّب بن علس يتحدّث عن نوع من أنواع الخمر الطيّبة[1]:

ومَهاً يَزُفُّ كأنّه إذْ ذُقتَــــــــهُ عانِيَّةٌ شُجَّتْ بِماءِ وِقَــــــــــاعِ [2]

أو صَوبُ غاديّةٍ أدَرَّتهُ الصَّبَــا بِبَزيلِ أزهرِ مُدْمَجٍ بِسَيِــــــــاعِ [3]

وتظهر صورة الإبريق كذلك عند حديث الشعراء عن السّاقي الذي يشرف على صــبّ الخمر في الزجاجة أو الكأس، وفي هذا قال عنترة[4]:

بِزُجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِــــرَّةٍ قُرِنَت بأزْهَرَ في الشَّمالِ مُفَــــدَّمِ

فإذا شربْتُ فإنَني مُستهلِــــــكٌ مَالي وعِرْضي وافِرٌ لم يُكْلَــــمِ

ويصوِّر الأعشى السقاة وهم يتداولون الأزهر بينهم، وتظهر إلى جانب ذلــك صــورة المرأة التي ملأت كوبها خمراً فصاح الديك، دَلالة على أنّ مجلس الخمر كــان يســتمر حتّى مطلع الفجر، يقول[5]:

فَلَمْ ينطِقُ الدِّيكُ حتّى مَــــــلأ تُ كُوبَ الرَّبابِ له فاسْتَــــدَارا [6]

إذا انْكَبَّ أزْهَرُ بيْنَ السُقَــــاةِ تَرمُّوا بِهِ غَرَباً أو نُضَــــــــارا

ومن اللافت للانتباه أنّ صورة الإبريق الذي أحكم طليه بالطين وأتقن صُنعه تكرّرت في الشعر الجاهلي، وكذلك ارتبط لفظ الأزهر أو الإبريق بالكوب، ويمكن أن يقصد بالكوب

---

[1] شعر المسيّب بن علس، جمع وتحقيق ودراسة أنور أبو سويلم، ط١، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٤: ١١٢. وانظر: ديوان علقمة الفحل: ٧٠.

[2] المها: البلّور.

[3] البزل: الشق يريد خمراً بزلت من دنّ في إبريق، ومُدمجّ: مغطّى أو مطلي، والسِّياع: الطين.

[4] ديوان عنترة: ٢٠٦.

[5] ديوان الأعشى: ٩٧.

[6] الرّباب: اسم للمرأة، وهي امرأة الخمارة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإبريق نفسه لكن لا عروة له، أو أن يكون الكوب الذي تصبّ فيه الخمر من الإبريق، وفي ذلك يقول عبدة بن الطبيب[١]:

والكُوبُ أزْهَرُ مَعْصُوبٌ بِقُلَّتِـــه فوقَ السِّياعِ من الرَّيْحانِ عَلِيـــلُ
مُبَرَّدٌ بمزاجِ الماءِ بَينَهمـــــا حُبٌّ كَجَوْر حِمارِ الوحشِ مبْـــذولُ
والكُوبُ ملاَنَ طافٍ فوقهُ زُبَـدٌ وطابَقُ الكَبْشِ في السَّفُّود مَخْلُـــولُ [٢]

وثمّة لفظ آخر ورد في الشعر الجاهلي قُصِد به الإبريق الضَّـخم، وهـذا اللفـظ هـو (الظِّباء)، جاء في قول عدي بن زيد[٣]:

يَا لَيتَ شعري وأنا ذُو غِنـــــىً مَتَى أرَى شَرْباً حَوالِي أصِيـــصْ
بَيْتَ جُلُوفٍ باردٌ ظِلُّـــــــهُ فيه ظِبَاءٌ ودَواخيلُ خُـــــوصْ [٤]

ويلاحظ أنّ المظهر الحضاري المادي يبدو في حديث الشعراء عـن الأبـاريق وطريقة صنعها وطَلْيِها، فضلاً عن أنّ اللفظة فارسيّة معرّبة، مما يدلّ على تأثّر العرب بحضارة غيرهم وبخاصة ممّن جاورهم من الأمم كالفرس وغيرهم.

- **الجِفَان:** تُعدُّ الجِفَان من الأواني التي اتّخذها العرب لطعامهم، وهذه الجفـان دخلـت قصور الملوك وسادات القبائل، كما دخلت بيوت البسطاء مـن العـرب فـي العصـر الجاهلي، ممّا يدلّ على تنوّع أشكالها. وجاء في المعاجم اللغوية أنّ الجفنة كالقصـعة[٥]، وأنّها أعظم ما يكون من القصاع[٦]، ويقال إنّ الجِفنة تُشبع السـبعة إلـى العشـرة مـن

---

[١] ديوان عبدة بن الطبيب: ٤٥، وانظر: الاختيارين: ١٠١.
[٢] طابق الكبش: قطعة منه، والمخلول: المشكوك.
[٣] ديوان عدي بن زيد: ٧٠.
[٤] جلوف: جمع جَلْف، وهو الدّن الذي لا شيء فيه، والدواخيل: جمع دوخل، وهي سقيفة تنسج من خُوص يُجعل فيها التمر.
[٥] الصحاح: مادة (جفن).
[٦] اللسان: مادة (جفن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجال[1]، وهذا يعني أنها تتّسع لقدر كبير من الطعام، فضلاً عن وجود أنواع أخرى من الجفان اتّخذت أسماء أخرى سيأتي ذكرها من خلال الشعر، ولمّا كانت الجِفان على هذه الصورة وهذا التنوّع، فقد احتاجت إلى أيدٍ خبيرة في صناعتها، وإلى مواد أولية، وهذا كلّه توافر في البيئات العربية في العصر الجاهلي. ويبدو أنّ بعض أنواع الجفان صُنعت من الأخشاب، التي تتّخذ من أشجار الشِّيزَى، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى[2]:

إذا ما غَشُوا الحدَّادَ فَرّقَ بينَهُمْ جِفانُ من الشِّيزى ورَاءَ جِفَانِ

ويمكن أن تكون بعض أنواع الجِفَان قد صُنِعت من الفضّة، وإن كانت كذلك فهي التي تكون قد دخلت قصور الملوك وبيوت سادات القبائل، وقد جاء ذكر الجفنة عند حديث الأفوه الأودي عن الفضة، يقول[3]:

فِينَا لِثَعْلبةَ بن عَوْفٍ جَفْنَةٌ يَأوِي إليهَا فِي الشّتاءِ الجُوَّعُ
ومَذانِبٌ ما تُسْتعَار وجَفْنَةٌ سَوْداءُ عند نَشيجِها ما تُرْفَعُ
مَنْ كانَ يشْتُو، والأرامِلُ حوْلَهُ يُرْوِي بآنيةِ الصَّريفِ ويُشْبِعُ[4]

وكانت بعض أنواع الجِفان كبيرة الحجم، إذ إنها تتسّع لماء القدور، يبدو وصفها على هذه الصورة في قول السليك بن السلكة[5]:

---

[1] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣٨٧/١.

[2] ديوان زهير: ٢٧٠. والحداد: البواب.

[3] ديوان الأفوه الأودي: ٩٢-٩٣.

[4] الصَّريف: الفضّة الخالصة.

[5] ديوان السليك: ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَقُلتُ لَهُ: لا تَبْكِ عينُكَ إنّهـــــــا قَضيَّةُ ما يُقَضَى لنَا فنـــــــؤُوبُ

سيكفيكَ فَقدُ الحيِّ لَحْمٌ مُغَـــرَّضٌ ومَاءُ قُدُورٍ في الجَفَانِ مَشُـــوبُ [1]

واستخدمت الشِّيزّى للدَلالة على الجِفان التي تُصنع من هذا الخشب، يقول فيها أمية بن أبي الصلت[2]:

إلى رَدْحٍ من الشِّيزى مَـــــلاءٍ لُبَابَ البُرِّ يُلْبِكُ بالشِّهـــــــادِ

- **الدِّلاء:** من الأواني والأدوات التي كانت تستخدم لجلب الماء الـدلاء، واحـدها دلـو وهـي التي يُستَسقى بها، تذكّر وتؤنّث، والدُّلاة كذلك جمع دالٍ كقاضٍ وقضـاة، وهـو النازع في الدلو المُستَسقى بها الماء من البئر[3].

ويبدو أنّ الدلاء خاصة بماء البئر، ومما يلاحظ أنّ صورة الدلاء تكرّر ذكرها في الشعر الجاهلي، إذْ تدلّ في أشكالها وأسمائها وطريقة صُنعها على سمة حضارية عنـد العرب الجاهليين في مختلف بيئاتهم، وكانت لفظة الدلو تطلق على هذا الوعاء إذا كـان فارغاً؛ لأنّه إن كان مملوءاً له أسماء أخرى عند العرب سيرد ذكرها عند اسـتعراض نماذج من الشعر.

ومما جاء فيه ذكر الدلو قول عدي بن زيد في حديثه عن الرمح[4]:

وإذَا يَرْكَبُ رَأساً كفُّـــــــــهُ زَاغِبيٌّ في رُدَينيٍّ أصَـــــــــمْ

وأمَرْناه بهُ مُن بينِهـــــــــا بعدَ ما انْصاعَ مُصِرَّاً أوْ كَصَـــمْ

فهوَ كالدّلوِ بِكَفِّ المُسْتَقِـــــي خُذِلتْ مِنهُ العَراقِي فانْجَـــــذمْ

---

[1] اللحم المُغرَّض: اللحم الطري.

[2] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٣٨١.

[3] لسان العرب: مادة (دلو).

[4] ديوان عدي بن زيد: ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال في وصف الخيل[1]:

ومَجُودٍ قَدْ اسْجَهَرَّ تناويـــــــــــ ـــرَ كَلَوْنِ العُهونِ في الأعْـــــلاقِ [2]

عَنْ خريقٍ سقَاهُ نَوْءٌ من الدَّلْـــــ ـــوِ تُدَلَّى ولم تُوارَ العَراقِـــــــــي

وقال متمم بن نويرة مشيراً إلى الدلو ورشائه[3]:

يَعْدو تُبادرُه المَخَارِمُ سَمْجَـــحٌ كالدّلوِ خَانَ رِشَاؤها المتَقطِّـــــعُ [4]

ولكنَّ أكثر الألفاظ التي وردت في الشعر الجاهلي والتي تدلّ على الدلو هي لفظة (السَّجْل)، وقد جاء في المعاجم أنّه الدلو الضخمة المملوءة ماءً، وقيل هو مِلْؤها، وقيـــل إذا كان فيها ماء قَلّ أو كثر والجمع سِجال وسَجُول، ولا يقال لها فارغة سَـــجْل ولكـــن دلو[5].

وجاء في ذكر السَّجْل قول المسيب بن علس يشبّه عطاء الكريم بالدّلو العظيمة[6]:

ولَقَدْ تَناولَني بِنَائِلِـــــــــــــــهِ فَأَصَابَني من مَالهِ سَجْـــــــــلُ

وقال كذلك[7]:

وأَفْضَلُ ذِي يُمْنٍ كُلِّهـــــــــا إذا افتَقَد المُسْنِتُونَ السِّجَـــــــالا [8]

ومن الشعراء من اتّخذ من السَّجْل المملوءة بالماء صورة ليعبّر بها عن وصف شيء قد رآه، كما يبدو ذلك في قول الأعشى يصف السَّحاب والبرق[9]:

---

[1] ديوان عدي بن زيد: ١٥٢.

[2] المجود: الروض عادة المطر الغزيز، وسجهر البناء: طال وبسط، والتناوير: جمع تنوير من نوار الزرع.

[3] المفضليات: ٥٠.

[4] المخارم: الطرق في الجبال وأفواه الفجاج.

[5] اللسان: مادة: (سَجَل).

[6] شعر المسيب بن علس: ١٢٥.

[7] نفسه: ١٢٧.

[8] المسنتون: الذين أصابهم السن والقحط.

[9] ديوان الأعشى: ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَا مَنْ يرَى عَارِضاً قَد بِتُّ أرْقُبهُ كأنّمَا البرقُ في حَافَاتهِ الشُّعَـــلُ

لَهُ رِدافٌ وجَوْزٌ مُفْأمٌ عَمِـــــلٌ مُنَطّقٌ بِسَجالِ الماءِ مُتّصِـــــلُ [1]

وقال ابن مقبل في السِّجال كذلك[2]:

فَأفرَغْتُ من نَاصِعٍ لَوْنُـــــــهُ عَلى قُلُصٍ يَنْتَهِبْنَ السِّجَـــــالا

ومن الألفاظ الأخرى التي وردت في الشعر الجاهلي تعني الدّلاء (الذَّنُوب)، وهي الدلو فيها ماء، وقيل الدلو التي يكون الماء دون ملئها، أو قريباً منه، وقيل هـــي الـــدَّلو العظيمة[3].

وقد جاء ذكر الذَّنُوب في الشعر للدلالة على هذا المعنـــى ومـــن ذلـــك قـــول الأعشى[4]:

وَنَهْنَهُ مِنْهُ لَهُ الوَازِعُـــــــو نَ حَتَّى إذا كَانَ إرْسَالُهـــــــــا

أجْلَيْتُ كَمَرِّ ذَنُوبِ القَـــــــرَى فألْوى بِمَنْ حَانَ إشْعَالُهـــــــــا

ويبدو أنّ الذنوب كان يوضع أو يعلّق على قدح ضخم، وفي هذا قال ثعلبة بن مزن بن زيد مناة[5]:

خَـــــلا أنّهُـــم كُلّمـــا أوْرَدُوا يُضَيَّحُ قَعْباً عليه ذَنُـــــــــوبْ [6]

وثمة ألفاظ أخرى وردت في الشعر الجاهلي هي من أسماء الدلاء، منها السَّفرة وهـــي دلو من جلود على طاقٍ واحد، كما جاء ذلك في قول كعب بن زهير[7]:

---

[1] رداف: الذيل، والمفأم: الممتلئ بالماء.

[2] ديوان ابن مقبل: ٢٢٩، وانظر: المصدر نفسه: ١٨٦.

[3] اللسان: مادة (ذنب).

[4] ديوان الأعشى: ١٦٧.

[5] المفضليات: ٢٥٤.

[6] الضّياح: اللبن الممزوج بالماء.

[7] ديوان كعب بن زهير: ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَخَالي الجَبا أوْرَدْتُهُ القومَ فاسْتَقوْا بِسُفْرَتِهم من آجِنِ الماءِ أصْفَـــرا [1]

ومن الألفاظ كذلك السِّقاء ويراد به الدَّلو له عُرْوة واحدة وهو خاص بالسَّقَائين، وقد ورد هذا اللفظ في قول الحطيئة[2]:

وضَيّقْتُ الكَرامةَ فَارْمـــــأدَّتْ وقَيَّضْتُ السِّقاءَ في جَوْفِ سَلْـــمِ [3]

ومن الألفاظ أيضاً الغروب، وهو لفظ يطلق على الدلو الضخم، وقد جاء ذكره في قول الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب[4]:

فَفَاضَتْ دُموعِي كَفيْضِ الغُـــرُو بِ إمّا وَكِيفاً وإمّا انحـــــــدَارا [5]

– **الزِّق:** من أواني الشراب التي تكرّر ذكرها في الشعر الجاهلي الزِّق، وهو السِّـقاء، والزِّق من الأُهَب: كل وِعَاءٍ اتّخِذ لشراب ونحوه، وقيل هو الذي تُنْقل فيه الخمر[6].

وغالباً ما دلّ الزّق على إناء الخمر، وهذه الدَلالة هي التي تتكرّر فـي أشـعار الجاهليين، ومما جاء فيه قول امرئ القيس يفخر بنفسه[7]:

كَأنّيَ لم أرْكَبْ جَوَاداً لِلَـــــذَّةٍ ولَم أتَبَطَّنْ كَاعِباً ذاتَ خَلْخَـــــالِ

ولم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّويَّ ولم أقُـلْ لِخيْلِيَ كُرِّي كرَّةً بَعدَ إجْفَـــــالِ

وتتكرّر صورة الزّق عند حديث الشعراء عن مجالس الخمر، ممّا يدلّ علـى أنّ هذا الإناء ارتبط بالخمر، ومن ذلك قول الأعشى يصف الخمر وأدواتهـا[8]:

---

[1] الجَبا: ما حول البئر، وخالي الجبا: لا أنيس له.

[2] ديوان الحطيئة: ١٧٥.

[3] ارمأدت: أي ذهبت بسرعة.

[4] ديوان الأعشى: ٤٥.

[5] الغروب: جمع غرب، وهو الدلو العظيمة، وكيف: وكَفُ الدمع: انهمر.

[6] اللسان: مادة (زَق)

[7] ديوان امرئ القيس: ٣٥.

[8] ديوان الأعشى: ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتَانَا بِها السَّاقِي فَأَسْنَدَ زِقَّـــهُ إلى نُطْفَةٍ زَلَّتْ بِها رَصَغَاتُهَـــا

وقُوفاً فَلَمّا حَانَ مِنّا إنَاخَـــةٌ شَرِبْنَا قُعُوداً خَلْفنا رُكبَاتُهـــا

وكان الأعشى من أكثر الشعراء الذين استوعبوا ألفاظ الحضـارة فـي شـعره، وبخاصّة الألفاظ الفارسيّة، فهو يصف مجلساً من مجالس الخمر، مشـيراً إلـى أوانـي الشراب الأخرى التي تظهر إلى جانب الزِّق مملوءاً بالخمر، مثل البّاطِيّة، والإبْريـق، والقَدَح وغيرها، يقول[1]:

وشَمُولٍ تَحسِبُ العَيْـــنُ إذا صُفِّقَتْ وَرْدتُها نُورَ الذُّبـــحْ [2]

مِثلُ ذكيِ المِسْكِ ذاكٍ رِيحُهـــا صبَّها الساقي إذا قيلَ تَـــوَحْ

مِنْ زِقَاقِ التَّجْر في بَاطِيَّـــةٍ جَوْنَـــةٍ حَارِيَّـــةٍ ذاتِ رَوَحْ [3]

ذاتِ غَوْرٍ ما تُبالي يَوْمَهـــا عُرَفَ الإبريقِ مِنها والقَـــدَحْ

وورد في الشعر الجاهلي ألفاظ أخرى تدلّ على لفظة الزِّق، منها لفظة (الأَدْكَن)، وهو الدّنّ؛ لأنّه يُطلى بالزَّعفران حتى لا تبقى فيه مَسامات، وتستقر فيه الخمر، وقد جاء ذكره في قول الأعشى[4]:

إذا مَا الآثِمَاتُ ونَيْنَ حَطَّـــتْ على العِلاَّت تَجْتَرِعُ الإكَامَـــا

وأدْكَنَ عَاتِقٍ جَحْلٍ سِبَحْـــلٍ صَبَحْتُ بِراحهِ شَرْباً كِرامَـــا [5]

---

[1] ديوان الأعشى: ٢٤١، وانظر: ديوان بشر بن أبي خازم: ١٧.

[2] الشمول: الخمرة الباردة، والذّيح: نبت يؤكل.

[3] الباطيّة: إناء واسع الأعلى ضيّق الأسفل، وهي كلمة فارسية

[4] ديوان الأعشى: ١٩٧.

[5] الحجلْ السِبحل: السّقاء الضخم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأدْكَن في شعر لبيد يعني الزّق الضخم، وهذا يدلّ على أنّ الزّق كان يصنع منه أحجام كثيرة، يقول[1]:

أُغْلَى السّباءَ بكُلِّ أدْكَنَ عَاتِقٍ أوْ جَوْنةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا

ويصف الحادرة فتيةً باكروا لذَّتهم في الأدْكَن المملوء بالخمر، فيقول[2]:

فَسُميَّ ما يُدْريكِ أنْ رُبَّ فِتيةٍ باكَرْتُ لَذَّتهُمْ بِأدْكنَ مُتْـــرَعِ

مُحَمَّرةٍ عَقِبَ الصَّبوحِ عُيونُهم بِمَرًى هُناك من الحيَاةِ ومَسْمَعِ

ومن الألفاظ الأخرى التي وردت في الشعر وتدل على الزّق (المَنْجُوب) وهو الزّق الذي يُدبغ بالنّجب وهو قشر الشجرة، وقد ورد ذكره في قول عنترة[3]:

وَمَنجُوبٍ لهُ مِنهُنَّ صَـــرْعٌ يَميلُ إذَا عَدَلَتَ بهِ الشِّـــوارا [4]

أقَلَّ عليكَ ضُرَّاً من قَـــرِيـــحٍ إذا أصحَابُه ذَمروهُ سَـــارا [5]

وجاء في الشعر الجاهلي لفظة (العَاتِق) دَلالة على الزّق كذلك، ويعني الـزّق الواسع الجيد[6]، وقد ارتبط لفظ العاتق بالأدْكَن، وكأنّ اللفظتين بمعنى واحد، قال لبيد[7]:

وفِتيانٍ يَرَوْنَ المَجْدَ غُنْمـــاً صَبَرْتَ لحَقِّهِم ليلَ التّمَـــامِ

وإنْ بَكَروا غَدَوتَ بِمَسْمَعَاتٍ وأدكنَ عَاتقٍ جَلْد العِصَـــامِ [8]

هذا التعدّد لأسماء الزّق يمكن أن يدلّ على أنّه كان يصنع على أحجام مختلفة من جهة، وعلى أنّه كان يُصنع من مواد أولية متنوعة من جهة أخرى.

---

[1] ديوان لبيد: ٣١٤.

[2] ديوان شعر الحادرة، تحقيق، ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣: ٥٦.

[3] ديوان عنترة: ٢٣٨.

[4] المنجوب: زِقٌّ دُبِغ، والضَّرع: النّاقة المتّخذة لأداة الرعي، والشِّوار: متاع البيت.

[5] ذَمروه: زجروه وحثّوه على القتال، سارَ: من السُّوْرة وهي الوثبة على الأقران.

[6] اللسان: مادة (عتق).

[7] ديوان لبيد: ٢٠٥.

[8] العِصَام: الذي يُشدُّ به رأس الزِّق أو القِربة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– **القَعْب:** هو من أواني الشراب، وهو إناء أو قَدَح ضخم غليظ، وقيل: قدَح من خشب مُقعَّر والجمع أقْعُب[1].

وهذا القدح يروي الرجل، وهو مختصّ عند العرب فقط بالشراب، وعلى الرغم من أنّه يصنع من الأخشاب، إلاّ أن في طريقة صُنْعه وتنوّع أشكاله ملمحاً حضارياً مادياً اختصّت به البيئة العربية على بساطتها. وأشار الحطيئة إلى القَعْب الصغير في شعره فقال[2]:

تَرَى بينَ لَحيَيْها إذا ما تَزَعَّمَتْ لُغامَاً كَبيْتِ العَنْكبوتِ المُمَدّدِ [3]

وتَشْرَبُ بالقَعْبِ الصَّغيرِ وإنْ تُعَدْ بِمَشْفَرِها يَوماً إلى الرّحْلِ تَنعدِ

ويبدو أنّ القَعْب كان يستعمل كذلك لجلب الماء، وفي هذا دَلالة على أنه إناء ضخم يتّسع لكمية كبيرة من الماء، وفيه يقول جُحيّة بن المَضرِّب[4]:

رَأيْتُ اليَتامى لا تَسُدُّ فُقُورَهُمْ هَدَايا لهُمْ في كلِّ قَعْبٍ مُشعَّبِ [5]

وربّما كان القعب يستخدم لشرب اللبن أيضاً، يقول أمية بن أبي الصلت[6]:

واشْرَبْ هَنيئاً فقدْ شَالتْ نِعامَتُهُمْ وأَسْبَلِ اليَوْمِ في بُردَيكَ إسْبَالا

تِلكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيْبَا بمَاءٍ فعادا بَعْدُ أبْوالا

وقال ثعلبة بن مزن بن زيد منَاة، يصف القَعْب المملوء باللّبن الممزوج بالماء[7]:

---

[1] الصحاح: مادة (قعب)، واللسان: مادة (قعب)، وانظر: بلوغ الأرب: ٣٩٤/١.

[2] ديوان الحطيئة: ٧٧.

[3] اللغام: صفة للإبل.

[4] شرح حماسة أبي تمام: ٦٢٥/٢. وجُحيّة بن المضرب شاعر جاهلي مقدّم، كان سيّداً في قومه، كان له أخوان المنذر بن المضرّب، ومعدّان بن المضرّب. انظر المصدر نفسه: ٦٢٤/٢.

[5] المشعّب: الذي تكسّر فَرُقِّع.

[6] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٤٥٩.

[7] المفضليات: ٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خَــلا أنّهـــمْ كُلّمـــا أوْرَدُوا يُضَيَّحُ قَعْباً عليه ذَنُـــــوبْ

ومن الألفاظ التي جاءت في الشعر تدلّ على القَعْب (الرِّفد) وهو القدح الضـخم[1]. وقـد ورد هذا اللفظ في قول الأعشى[2]:

ثُمَّ أسْقاهُمُ على نَفَدِ العيْـــــــ ــشِ فَأَرْوى ذَنُوبَ رِفدٍ مُحـالِ

وقال الأعشى[3]:

وإذا القِيانُ حَسِبْتَها حَبْشِيَّـــــةً غُبْراً وقَلَّ حَلائِبُ الأرْفَـــــادِ [4]

– **القِــدْر:** هذا النوع خاص بالأطعمة، وغالباً ما كانت القُدور تُصنع مـن النحـاس أو الخزف أو الحديد، وقد وردت القِدْر في شعر الأعشى إلـى جانـب بعـض الألفـاظ الحضارية مثل الدَّيْسق وهو خُوان من فضة فارسي معرّب، فقال[5]:

وَحُورٍ كأمْثَالِ الدُّمى ومَناصِـفٌ وقِدْرٌ وطَبَّاخٌ وصَاعٌ وديْسَـــــقُ

ويبدو أنّ القِدر ذات حجم كبير؛ لأنّها كانت تستخدم في الولائم الكبيرة؛ لهذا وردت في الشعر في معرض حديث الشعراء عن الكرم، ومن ذلك ما جاء في قول غُرَيْثِقـة بـن مُسَافع العبسيّ، يذكر كرم الممدوح[6]:

كثيرُ رمَادِ القِدْر رَحبٌ فِنَـــاؤُهُ إلى سَنَدٍ لم تَحْتَجْنَهُ غُيُـــــوبُ

وورد في الشعر **المِرْجَل** ويعني القِدْر، جاء في قول زهير بن أبي سلمى[7]:

---

[1] اللسان: مادة (رَفد).

[2] ديوان الأعشى: ١١، وانظر: معجم ألفاظ الحضارة والفنون، مجمع اللغة العربية، القاهرة: ٢٦.

[3] نفسه: ١٣٣.

[4] القِيان: جمع قَيْنة، وهي الفتاة التي لم تتزوّج، وحَبْشيّة: اسودّت من البرد، والحلائب: جمع حَلوبة، وهي الناقة التي فيها لبن.

[5] ديوان الأعشى: ٢١٧.

[6] الأصمعيات: ٩٩.

[7] ديوان زهير: ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثَافِيَّ سُعْفاً في مُعَرَّسِ مِرْجَـلٍ ونُؤْياً كَحَوْضِ الجُدِّ لم يتثلَّـــــمِ

وقال سنان بن أبي حارثة يصف غَلْيَ المَرَاجِل[1]:

لا يَعْجِلُ القومَ أنْ تَغلِي مَراجلُهم ويُدْلِجُ الليلَ حتّى يَفسُحَ البَصـــرُ

ويصف أبو ذؤيب الهذلي القدور المصنوعة من النحاس التي يخرج منها النَّشيج، وهـو صوت غليان اللحم في القُدور، مشيراً إلى المذائب وهي المغارف التي يتمّ بوسـاطتها استخراج ما في القدور من طعام، ويسمي الشاعر القدور سوداً، يقول[2]:

لنَا صِرَمٌ يَنْحَرْنَ في كُلِّ شتْـوةٍ إذا ما سَماءُ النّاسِ قلَّ قِطارُهـــا [3]

وسُودٌ مِنَ الصَّيْدانِ فِيها مَذانِبُ النُّضَارِ إذا لم نَسْتفِرْها نُفَارُهـــا [4]

لهُنَّ نَشيجٌ بالنَّشيلِ كأنَّهـــا صَرَائِرُ حِرْميٍّ تَفاحَشَ غَارُهـــا [5]

إذا اسْتُعجِلَتْ بعد الجُنُوِّ ترازمَتْ كَهزْمِ الظُّؤارِ جُرَّ عَنها حُوارهـــا [6]

– **المَزَادة:** تُعدُّ المَزادة من أبسط أدوات حفظ الماء أو اللبن عند العرب، وقـد تعـدّدت معانيها في المعاجم اللُّغوية، فقيل إنها الرَّاوية؛ قال أبو عُبيدة: لا تكون إلا من جلـدين تُفْأم بجلد ثالث بينهما لتتّسع، وكذلك السّطِيحة والشَّعيب، والجمـع المـزاد والمزايـد[7]. وأشار ابن سيدة إلى أن المزادة هي التي يحمل فيها الماء، وهي ما فُئم بجلد ثالث بـين الجلدين ليتّسع، سميت بذلك لمكان الزيادة[8].

---

[1] الأصمعيات: ٩١.

[2] شرح أشعار الهذليين: ٧٨/١-٧٩.

[3] الصِرمة: القطعة من الإبل.

[4] النضار: من شجر النضار.

[5] النشيل: ما طُبخ ثم أخذ من القدور ولم يجعل في إناء.

[6] الجُنوّ: أي إذا استعجلت القدور بالوقود.

[7] الصحاح، واللسان: مادة: (زيد).

[8] المخصص: ٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن شُميل: المزادة تكون من جلدين ونصف وثلاثة جلود، سُمِّيت مـــزادة؛ لأنها تزيد على السّطحين وهما المزادتان، وقد تكرّر ذكر المزادة غير مرّة في الحديث الشريف، وهي الظَّرف الذي يُحمل فيه الماء كالرَّاوية والقِربة والسَّطيحة[١].

ومهما تكن صناعتها بسيطة فإنّ في تعدّد أشكالها وأسمائها، وطريقة صـــناعتها من الجلود سمة حضارية تلائم البيئة العربية التي وجد فيها مثل هذا النوع مـــن أدوات حفظ الماء وغيره من الشراب. وقد تكرّرت صورة المَزادة في الشعر الجاهلي كثيـــراً، وممّا جاء فيها قول الأعشى[٢]:

وعَادَ فتَى صِدْقٍ عليهمْ بِجفْنَـــــةٍ وسَوْدَاءَ لأْيَاً بالمزادةِ تَمْـــــــــرَقُ

ويبدو أنّ المزادة كانت مُحكمة الصنع، فقد عرف عند صانعيها ما يُسمّى بِخَـــرْز القِرب ودهنها، والخرز هو خِياطة الأدم، وخرزة السِّقاء وغيرهما، حتـــى كـــان يقـــال لصانعها (الخرّاز) وحرفته الخَرازة[٣].

ومن أنواعها ما كان على شكل إناء يُحفظ فيه الماء، وهذا ما فُسِّرت به المـــزادة في قول الكَلْحبة العُرَنيّ [٤]:

ونّادّى مُنادِي الحيِّ أنْ قَدْ أُتِيْتُـــم وقَدْ شَرِبْتُ ماءَ المزَادةِ أجْمِعـــــــا

تعني المَزَادة القربة نفسها، يبدو ذلك في قول المُتَلَّم بن ضبَّة[٥]:

---

[١] اللسان: مادة (زيد).

[٢] ديوان الأعشى: ٢٧٥.

[٣] المخصص: ٢٠٩/١.

[٤] المفضليات: ٣١. والشاعر هو هبيرة بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة أحد فرسان بني تميم وساداتها.

[٥] شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، صنعة، حسن بن عيسى، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعـــة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٤م: ١٤٧. والمُتَلَّم أحد بني عائذة بن تيم الله بن بكر بن سعد بن ضبة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنْ تُنْكِروني فَأنا المُثلَّـــــــم فَارِسُ صِدْقٍ يَوْمَ تَنْضَاح الــدَّمْ

بِشِكَّتِي وفَرِسٍ مُصَمَّـــــــم طَعناً كَأفْواهِ المَزادِ المُعْصَـــمْ

وشبّه امرؤ القيس دُموع عينيه بماءٍ يسيل من المَزادة التي فُرِغ من عملها ولــم تُــدْهن مواضع خَرْزها، فقال[1]:

فَدَمْعَهُما سَكْبٌ وسَحٌ وديْمَـــةٌ ورشٌّ وتَوْكَافٌ وتَنْهَمِـــــلانِ [2]

كأنَّهُما مَزَادَتَا مُتَعجِّـــــــلٍ فَرِيَّانِ لمّا تُسْلَقَا بِدِهَـــــانِ

وورد في الشعر الجاهلي أيضاً ألفاظ أخرى تدلّ على المزادة، منها لفظة **(الشَّن)** وأكثر ما فسِّرت هذه اللفظة الواردة في الشعر على أنها القِربة الخلقة، ومن ذلك ما جاء فــي قول عدي بن زيد في الحبس يصف بكاء النساء عليه ويذكر القربة[3]:

ومَالي نَاصِرٌ إلاّ نســـــــاءٌ أرامِلَ قَدْ هَلَكنَ من النَّحيـــبِ

يُحدِّرْنَ الدُّموعَ على عَـــدِيٍّ كَشَنٍّ خَانهُ خَرزُ الرَّبِيْـــبِ [4]

ويلاحظ أنّ لفظة (الشَّن) غالباً ما ذكرت في الشعر الجاهلي عند حديث الشــعراء عــن البكاء والدموع، فيشبّهون ذرف الدموع بالماء الذي يسيل من القربة، يبدو هذا أيضاً في قول بشر بن أبي خازم[5]:

فَظَلْتُ أُكَفْكِفُ العَبراتِ منِّـــي ودَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِرٌ سَفُـــوحُ

وَدَمْعِي يَوْمَ ذلك غرْبُ شَـــنٍّ بِجَانِب شَهْمَةٍ ما تَسْتريـــــحُ

---

[1] ديوان امرئ القيس: ٨٨.

[2] التوكاف: القليل من المطر.

[3] ديوان عدي بن زيد: ٤٠.

[4] الرَّبيب: من رَبّ الأدم أي أصلحه.

[5] ديوان بشر بن أبي خازم: ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن الشَّن في شعر الأعشى يظهر في حديثه عن مجلس الخمر، وإبريق السّاقي، يقول[1]:

فتَرى إبريقَهُمْ مُسْتَرْعِفـــــاً بشمُولٍ صُفِّقَتْ مِن مَاءِ شَـــــنْ[2]

ومن الألفاظ التي وردت في الشعر وتعني المزادة، **(الوِذاب)**، وجاء في المعاجم: قُرب المزادة وقيل هي الأكراش التي يجعل فيها اللبن ثم تُقْطع[3]. ووردت في قول الأفوه الأودي[4]:

فأبْلغ بالجَنابَةِ جمعَ قوْمـــــي ومَنْ حَلَّ الهِضَابَ عَلى العِتـــابِ

ووَّلوْا هارِبينَ بِكُلِّ فـــــجٍّ كَأَنَّ خُصَاهُمُ قطعُ الـــــوِذابِ

وترد لفظة **الوَاهِية** في الشعر وتعني المزادة والراوية، يقول الحطيئة مشبّهاً دموعه بماءٍ يَسِحّ من المَزَادة[5]:

كأنَّ دُموعِي سَحُّ واهيةِ الكُلَـــى سَقَاها مَزَوَّاها من العَيْن مُخْلِـفُ

وهُناك ألفاظ أخرى تدلّ على المَزَادة، منها **(السَّعن)**: وهو شيء يتّخذ من أدَم شِبْه دلو، إلاّ أنه مستطيل مستدير، وربما جُعلت له قوائم يُنْتَبذ فيه، والسَّعن كذلك: قربة أو إداوة يُقطع أسفلها ويُشد عنقها وتعلّق إلى خشبة أو جذع نخلة ثمّ يُنبذ فيها ثمّ يُبرَّد فيها، وهو شبيه بدلو السَّقائين يصبُّون به في المزائد[6].

---

[1] ديوان الأعشى: ٤٠٩.

[2] مسترعفاً: سائلاً، وأصله من الرعاف وهو الدم الذي يسيل من الأنف.

[3] لسان العرب: مادة (وذب).

[4] ديوان الأفوه الأودي: ٥٨.

[5] ديوان الحطيئة: ٢٥٤. واهية الكلى: مزادة، والكلى: رقعة تكون في أصل عروة المزادة.

[6] لسان العرب: مادة (سعن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ هذا النوع من المزادة مختص بالنبيذ وتجهيزه، وقد ورد ذكرها في قول ابن مقبل[1]:

وأرْضٍ بِها الْتَاث السُّعُونُ قَطْعَتُها وأوْدِيةٍ قَفْرٍ يَصيحُ بها الهّـــــــدا [2]

– **النّاجُود:** يُعدُّ الناجود من آنية الشرب المختصّة بالخمر فقط، وجاء في المعاجم: النَّاجود: البَاطِيَّة، وقيل: هي كل إناء يجعل فيه الخمر من باطِيَة أو جَفْنَة أو غيرها، وقيل: هي الكأس بعينها. وقال اللَّيث: النَّاجود هو الرَّاووق نفسه. وقال الأَصمعي: الناجود أول ما يخرج من الخمر إذا بُزِل عنها الدّن، وقيل: الناجود الخمر[3].

وعلى الرغم من هذه المعاني، إلاّ أنّ الناجود آنية تخصّ الخمر فقط، ولهذا لم يأتِ ذكرها في الشعر الجاهلي إلاّ عند حديث الشعراء عن الخمر، ومن ذلك قول زهير ابن أبي سُلْمى[4]:

كَأنَّ رَيقتَها بَعْد الكَرَى اغتَبَقَتْ مِنْ طَيِّب الرَّاحِ، لمّا يَعْدُ أنْ عَتُقَا

شَبَّعَ السُّقاةُ على نَاجُودِها شَبِمَاً مِن مَاءِ لِيْنَةَ لا طَرْقاً ولا رَنَقَا [5]

وقال ابن مقبل يتحدّث عن الخمر ويصف ناجودها[6]:

صِرْفٌ تَرَقْرَقُ في النّاجودِ نَاطِلُها بِالغُلْغُلِ الجَوْنِ والرُّمَّانِ مختُومُ [7]

يَمُجَّها أكْلَفُ الإسْكَابِ وافقَهُ أيدْي الهَبانَيقِ بالمَثْنَاةِ مَعْكُومُ [8]

---

[1] ديوان ابن مقبل: ٤١.

[2] الْتَاث: جَفَّ وانطوى.

[3] الصحاح واللسان: مادة (نجد).

[4] ديوان زهير: ٤٠.

[5] الشبم: البارد، ولينة: بئر من أعذب الآبار بطريق مكة.

[6] ديوان ابن مقبل: ٢٦٨-٢٦٩.

[7] الناطل: مكيال الخمر.

[8] أكلف الاسكاب: أي زق أكلف، والاسكاب: قطعة من خشب توضع في زق الخمر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ معظم الشواهد التي جاء فيها ذكر النَاجُود ارتبطت بالحديث عن الخمر وساقيها، ويصوّر الأعشى مجلساً من مجالس الخمر، مشيراً إلى بعض أوانيها، يقول[1]:

وكأْسٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ بَاكَرْتُ حَدَّهـــا بِفتْيانِ صِدْقٍ والنّواقِيصُ تُضْرَبُ

سُلافٍ كأنَّ الزَّعفَرانَ وعَنْدَمـــــاً يُصفِّقُ في نَاجُودِها ثُمَّ تُقْطَـــــبُ [2]

لهَا أرَجٌ في البَيْتِ عَالٍ كأنَّمـــــا ألمَّ بهِ مِنْ تَجْرِ دَارينَ أرْكُـــــبُ [3]

ولعلّ المظهر الحضاري المادي واضح في المشهد السابق فـــي تلـــك الألفـــاظ الحضارية التي بدت جليّة في مجلس الخمر؛ لأنّ الشاعر عندما يتحدّث عن هذا الجانب لا بدّ أن يذكر مجموعة من الأواني المستخدمة في شربهم ومجونهم.

وصورة أخرى يرسمها المرقش الأصغر، يشير فيها إلى ناجود الخمر واستبائها عن طريق تُجَّار من اليهود، يقول[4]:

ومَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ كالمِسْكِ رِيْحُها تُعلَّى على النَّاجُودِ طَوْراً وتُقْـدَحُ

ثَوَتْ في سِبَاءِ الدَّنِّ عشرين حِجَّةً يُطانُ عليها قَرْمَدٌ وتُـــــــرَوَّحُ [5]

سَبَاها رِجَالٌ من يَهُودَ تباعَـــدُوا لجِيلانَ يُدْنيها من السُّوقِ مُرْبِـــحُ

ويرى الدارس للشعر الجاهلي مظهراً حضارياً مادياً واضحاً يبـــدو فـــي ذكـــر الشعراء لبعض الأواني الخاصة بالشرب والطعام، والتي تشتمل على بعـــض الألفـــاظ الفارسية؛ ممّا يدلّ على أنّ العرب قد وصلت إليهم حضارة الأمم الأخرى، إلى جانب ما

---

[1] ديوان الأعشى: ٢٠٣.

[2] العندم: شجر له عروق حُمر يُصبغ به.

[3] دارين: موضع بالبحرين مشهور بالمسك.

[4] المفضليات: ١٤٢.

[5] القرمد: طين يُطلى على رأس الدِّن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندهم من حضارة تلائم طبيعة حياتهم ومعيشتهم؛ ولهذا تكرّرت صورة التَّاجر اليهودي في الشعر الجاهلي.

واستعمل العرب في العصر الجاهلي أواني متنوّعة للشراب غير التي مرّ ذكرها، فمِنها وعاء للشرب يسمّى **(المَكُّوك)**، أعلاه ضيّق وأسفله واسع، ويبدو أنه كان يُصنع من نُحاس، جاء ذكره في قول ابن مقبل[١]:

يَعْدُو مَنَاطَ الكِفْلِ مِنْ جَنَباتِهـــا لا مُعْجَلٍ رَهَقَاً ولا مُتَأَخِّـــــرِ [٢]

جَارٍ بِجَحْفلةٍ يَمُجُّ لُفَاظَهـــــا سُمْطٍ كمكُّوكِ النَّصَارى المُصْفَـرِ [٣]

ويمكن أن يستدلّ من مشهد الخمر الذي يصوّره الأعشى أن المكُّوك إناء من فضّة أو نحاس خاص بالخمر؛ ولهذا جاء ذكره في أبيات للأعشى يتحدّث فيها عن الخمر مشيراً إلى بعض آنيتها الأخرى، يقول[٤]:

وإذا مَا الرَّاحُ فِيها أزْبَـــدَتْ أفَلَ الإزْبادُ فِيها وامْتصَـــحْ [٥]

وإذا مَكُّوكُها صَادَمَـــــهُ جَانِباهاا كَرَّ فِيها فَسَبَـــــحْ

فَتَرامَتْ بِزُجاجٍ مُعْمَـــــلٍ يُخْلِفُ النَّازِحُ مِنْها ما نَـــزَحْ

ومن الأواني الأخرى التي وردت في الشعر، **(الدَّيْسق)**، وهو إناء أو خِوار من فضة، وقيل: هو الطُّست، والدَّيْسق الخِوار من الفضة خاصّة، قال أبو عبيدة: الديسق معرّب وهو بالفارسية **(طَشْتَخْوان)**[٦].

---

[١] ديوان ابن مقبل: ٧١.

[٢] المناط: المكان الذي يعلّق به، والكفل: قطعة من قماش تُلقى على ظهر البعير.

[٣] المصفر: الخالي الفارغ.

[٤] ديوان الأعشى: ٢٤٣.

[٥] امتصح: انقطع.

[٦] الصحاح: مادة (دسق)، واللسان: مادة (دسق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن أن يكون هذا الإناء قد وصل إلى العرب من الفرس، وفي هذا أيضاً دَلالة على أثر الحضارة الفارسية في البيئة العربية؛ ولهذا تأثّر الشعر الجاهلي بمثل هذه الأسماء الفارسية، وقد أشار الأعشى إلى الدَّيْسق بقوله[١]:

وحُوْرٌ كأمْثالِ الدُّمى ومَنَاصِفٌ وقِدْرٌ وطبَّاخٌ وصَاعٌ وَدَيْسَقُ [٢]

وورد هذا اللفظ أيضاً في قول المتلمس[٣]:

والغَمْرُ ذُو الأحْساءِ والـ ـلَّذّاتُ مِنْ صَاعٍ ودَيْسَقْ [٤]

واستعمل العرب كذلك أنواعاً من الجِرار لحفظ الماء وغيره، منها ما يسمّى **بالحَواجِل**، وهي قوارير مشهورة ببلاد البحرين، وقد وردت في قول عبدة بن الطبيب[٥]:

إذَا تَجاهَدَ سَيْرُ القَوْمِ في شَرَكٍ كأنَّهُ شَطَبُ بالسَّرو مَرْمُولُ

نَهْجٍ تَرى حَولهُ بَيضَ القَطا مُتبَعاً كأنّهُ بالأفَاحِيصِ الحَواجِيلُ [٦]

حَواجِلُ مُلِئتْ زَيتاً مُجرَّدَةً لَيْستْ عَليهنَّ مِنْ حَوْصٍ سَوَاجِيلُ

ومن أصناف الجرار **القِلال**، وهي الجرّة العظيمة، وقيل الجرّة عامة، وقيل: الكوز الصغير، والجمع قُلل وقِلال، وقيل: هو إناء للعرب كالجرّة الكبيرة[٧]. ومما جاء فيها قول لبيد[٨]:

---

[١] ديوان الأعشى: ٢١٧.

[٢] المناصف: جمع منصف وهو الخادم.

[٣] ديون المتلمس الضُّبَعي، رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٧٠: ٢٤٢.

[٤] الغمر: اسم موضع.

[٥] ديوان عبدة بن الطبيب: ٤٥.

[٦] الأفاحيص: جمع أفحوص، وهو الموضع الذي تبيض فيه القطا.

[٧] اللسان: مادة (قلّ)، ويبدو أن القلال مشهورة في هجر قرية في المدينة، انظر: المفصّل في تاريخ العرب: ٦٠/٨.

[٨] ديوان لبيد: ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَبكِّيَ شَارِبٍ أسَرتْ علَيـــــــــهِ عَتيقُ البَابِلِيَّةِ في القِـــــــــــلالِ

وهذه الجرار من مصنوعات العرب، فقد أشارت الدراسات إلى أنّ العــرب الجــاهليين كانوا يصنعونها ويقومون بدهنها أحياناً، لسد مساماتها لكي تمنع السوائل من الســيلان منها، وصانعها هو الجرّار، وقد كان أهل يثرب يحملون الخمر في جرار حُمر، يطلقون عليها اسم **(الحَنْتَمة)** وذُكِر أن الحَنْتَم الخزف الأخضر أو كل خزف[١].

وكانت الحَناتِمُ تَرِدُ في الشعر عند حديث الشعراء عن السَحابة، إذ كانت السَحابة تشبّه بها، وقد بدت هذه الصورة في قول أبي ذؤيب الهذلي[٢]:

سَقَى أُمَّ عَمْرٍو كُلُّ آخِرِ لَيْلَـــــةٍ حَنَاتِمُ سُودٍ مَاؤهُنَّ ثَجيْـــــــــجُ

والخزف كان معروفاً عند الجاهليين؛ لأنّ مادته الأولية متوافرة، فهو يُصنع من الطين المشوي بالنّار يسوّى على الشكل المطلوب حتى يصير فخّاراً، وبائعــه يســمّى الخزَّاف، والفخارة حرفة معروفة عندهم[٣].

وورد في الشعر الجاهلي ألفاظ أخرى لأسماء الآنية، منها ما هو عربي، ومنهــا ما هو فارسي، منها **(الكَأس)**، وهو إناء من الزُجاج أو غيره يتّخذ للشراب، أو القَــدح، فارسي معرَّب كاسه[٤]. ويُصنع من مواد مختلفة، فقد يكون من الزُّجاج أو من معدن مثل الفضّة، أو الحديد، وقد يكون من فَخَار[٥].

وورَد لفظ الكأس في الشعر عند حديث الشعراء عن الخمر، ومــن ذلــك قــول الأعشى يصف ساقي الخمر وهو يَطوف بالكأس[٦]:

---

[١] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦٠/٨.

[٢] شرح أشعار الهذليين: ٩٧/١.

[٣] المفصل في تاريخ العرب: ٥٨/٨.

[٤] معجم ألفاظ الحضارة والفنون: ٢٦، وانظر معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١٣١.

[٥] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦٤/٨.

[٦] ديوان الأعشى: ٣٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَطُوفُ بِها سَاقٍ عَلَيْنا مُتَـــــوَّمٌ خَفِيفٌ ذفِيفٌ ما يزالُ مُفَدَّمَـــــا [1]

بِكأسٍ وإبْرِيقٍ كَأَنَّ شَرابَـــــــهُ إذَا صَبَّ في المِصْحَاةِ خَالَطَ بَقَّمَـا

وكأنّ الكأس مرتبطة بساقي الخمر، لهذا تكرر ذكرها أثناء حديث الشعراء عن مجالس الخمر، يقول علقمة الفحل[2]:

كَأسُ عَزِيزٍ مِنَ الأعْنَابِ عَتَّقَهـــا لِبَعْضِ أرْبَابِها حَانِيَّةٌ حُـــــومُ [3]

ومن أواني الشّراب الأخرى التي اختصّت بشرب الخمر، **الزُّجاجة**، وقد كانت تُصـــنع من مواد مختلفة، وتُقدّم مع الإبْريق في مجلس الخمر، يبدو هذا في قول عنترة[4]:

بِزُجاجَةٍ صَفْراءَ ذَاتِ أسِـــــرَّةٍ قُرِنَتْ بأزْهَرَ في الشِّمَالِ مُفَـدَّمِ [5]

ويشبّه عَدي بن زيد الزُّجاجة بقِنديل الفِصْح في كنيسة الراهب، يقول[6]:

بِزُجاجةٍ مِلءِ اليَدَينِ كأنّهـــــا قِنْديلُ فِصْحٍ في كَنِيسةِ رَاهِـبِ

ومن أواني الشّراب المختصّة بالماء **(الكُوب)**، وهو الكُوز الذي لا عُرْوة له، قال أميّـة ابن أبي الصّلت[7]:

مَلِـــــكٌ بِسَاهِـــــرةٍ إذا تُلْقَـى نَمَارِقُـــــهُ وكُوبُـــــهْ [8]

وقال عَدي بن زيد، يذكر الكُوب الذي يحملُه العَبْد وقد ملأهُ بالخمر[9]:

مُتَكِـــأً تُقْـــرَعُ أبْوَابُـــــهُ يَسْعَـى عليـهِ العَبْدُ بِالكُـــوبِ

---

[1] مُتوّم: قد وضع في أذنيه تومين، وهو اللؤلوة، وذفيف: مُسرع.

[2] ديوان علقمة: ٦٨، وانظر ديوان عدي بن زيد: ١٥٦.

[3] العزيز: ملك من ملوك الفرس أو الرّوم، والحَانيّة: قوم خمّارون، نسبة إلى الحانوت.

[4] ديوان عنترة: ٢٠٦.

[5] الأسرّة: طرائق الشراب، والشمال: يعني شمال السّاقي.

[6] ديوان عدي بن زيد: ١١٧، وانظر ديوان حسّان بن ثابت: ١٢٤.

[7] ديوان أميّة بن أبي الصّلت: ٣٤٤.

[8] السّاهرة: الأرض والفلاة.

[9] ديوان عدي بن زيد: ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسمّى الكُوب **بالنَّاطِل**، وهو مِكْيال صغير يُكالُ به الخمر، وهذا يعني أنّه مختصّ بالماء والخمر، يقول أبو ذُؤيب الهذلي[١]:

وَيَأشِبُني فَيها الّذينَ يَلونَهـــــــا وَلَوْ عَلِموا لم يَأشِبُوني بِطَائـــلِ [٢]

وَلَوْ أنّ ابْنَ بُحْرَةَ عِنْدَهَـــــــــا مِنَ الخَمْرِ لَمْ تَبْلُلْ لَهاتِي بِنَاطِـلِ [٣]

واستعان العرب أيضاً بآنية من نُحاس لجلب الماء تُسمّى **(القُمْقُمْ)**، وقد وردت في قول الأعشى[٤]:

كَأَنّ احْتِدامَ الجَوْفِ فِي حَمْيِ شَدِّهِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ شَدِّهِ غَلْيُ قُمْقُـــمِ [٥]

ومن الأواني المستخدمة لحفظ التَّمر وُعاء يُسمّى **(الكَافور)**، يقول الأعشى مشبّها تـــدلّي عِرق الناقة من الوِرْك إلى الحافر بِطَلع النخلة المتدلّي من الكَافور[٦]:

كَأَنَّ عَلى أنْسَائِها عِذْقَ خَصْبَـــةٍ تَدَلَّى مِنَ الكَافورِ غَيْرَ مُكَمَّـــمِ [٧]

ومن آنية الخمر **(الصَّـــحْفة)**، وهي إناء منسوب إلى بَارِق، ولهذا ورد ذكرها في الشعر باسم الصَّحفة البارقيّة، قال أبو ذُؤيب الهذلي في وصف خمر الشّام[٨]:

فَأَطْيِبْ بِرَاحِ الشّامِ صِرْفاً وهــذِه مُعَتَّقَةً صَهْباءَ وهْيَ شِيَابُهـــــا [٩]

فَما إنْ هُما في صَحْفَةٍ بَارِقِيَّـــةٍ جَدِيدٍ حَدِيثٍ نَحْتُها واقْتِضَابُهـــا [١٠]

---

[١] شرح أشعار الهذليين: ١٤٦/١-١٤٧.

[٢] يأشبوني: يخلطون عليّ الكّذب.

[٣] ابن بُحْرة: خمّار كان بالطّائف.

[٤] ديوان الأعشى: ١٧٢.

[٥] قمقم: آنية من نحاس يسخّن فيها الماء.

[٦] المصدر نفسه: ١٦٩.

[٧] عِذق خَصْبة: العنقود الذي يحمل البَلَح.

[٨] شرح أشعار الهذليين: ٥٤/١.

[٩] شِيابُها: مِزاجُها وخَلْطها.

[١٠] اقتضابها: أخْذها من شجرها حديثة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال أبو ذُؤيب يذكر الصَّحفة في معرض حديثه عن الخمر[1]:

فَما إنْ هُما في صَحْفَةٍ بَارقِيَّـــةٍ جَديدٍ أُرِقّتْ بِالقُدُومِ وبِالصَّقْـــــلِ [2]

وهناك بعض الأوائي الفارسيّة التي وصلت إلـــى العـــرب، منهـــا مـــا يُســـمّى بـــ **(الطَّهْرَجَارَهْ)**، وهي الفُنْجانة، ويبدو أنها تستعمل في شُرب الخمر، يقول الأعشى[3]:

ولَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ أُســـــــــــ ـــقَى مِنْ إنَاءِ الطَّهْرَجَـــــــارَهْ

وفي ضوء دراسة النماذج السابقة التي صورت استعمال العرب لأدوات وأواني الطعام والشراب، يتبيّن ما كان عليه العرب من تحضّر، علـــى الـــرغم مـــن بســـاطة معيشتهم، وهو تحضّر يلائم حياتهم وظروف معيشتهم، ويظهر من خلال استقراء نماذج شعرية كثيرة ما كان عليه العرب من اطّلاع على حضارة الأمم المجاورة، وبخاصـــة بلاد فارس.

[1] شرح أشعار الهذليين: ٩٧/١.

[2] أُرقَّت: بالقدوم: أي عملت الصّحْفة وأحْكِمت بِبارق.

[3] ديوان الأعشى: ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامساً: آلات الموسيقا:

يُعدُّ الحديث عن أدوات الموسيقا في هذا الفصل من الدراسة جانباً من جوانب الحضارة المادية عند العرب في العصر الجاهلي، وهو جانب اجتماعي؛ لأنّ الشعراء تحدّثوا عن أدوات الموسيقا في معرض الحديث عن المجالس الغنائية، أو مجالس الخمر، وهذه المجالس من جوانب الحياة الاجتماعية عند العرب آنذاك، ووفقاً لهذا المبدأ تمّ الحديث عن أدوات الموسيقا إلى جانب الموضوعات السابقة التي تجلّت فيها صورة الحضارة المادية الاجتماعية.

وكانت أكثر أدوات الموسيقا التي عُرِفت في بيئات العرب فارسية؛ لأنّ الحضارة العربية تأثّرت بحضارة فارس في جوانب كثيرة، ولهذا ورد في الشعر الجاهلي بعض الألفاظ الفارسية المعرّبة هي أسماء لآلات الموسيقا.

ومن آلات الموسيقا التي تكرّر ذكرها في الشعر الجاهلي **(المِزْهر)**، وهو العود الذي يُضرب به، وربّما يطلق المزهر على الدفّ نفسه[1]، ومنها كذلك **الطَّنبور، والطِّنبار**، وهو فارسي معرّب دخيل، أصله **(دُنْبَهِ بَرُه)**، أي أَلْيَة الحَمَل سُمّي به على التشبيه، من آلات الموسيقا ذو عُنق طويل وستّة أوتار[2].

وورد في الشعر الوَتر وهو **الصَّنْج** الذي يُضرب بالأصبع، وهو **الوَنْج** وكلاهما دخيل مشتّق من كلام العجم[3]، فالصَّنْج صفيحة مُدوّرة من النُّحاس يُضرب بها على أخرى مثلها للطرب، فارسي معرّب، أصله سَنْج[4]، والوَنْج ضَرْبٌ من الأوتار أو العود أو المِعْزَف فارسي معرّب (ونَه) [5].

---

[1] اللسان: مادة (زهر).

[2] نفسه: مادة (طنبر)، ومعجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١١٣.

[3] نفسه: مادة (ونَّ)، ومعجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١٠٨.

[4] اللسان: مادة (طنبر).

[5] نفسه: مادة (طنبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا عرفه العرب كذلك وجاء في أشعارهم القِنِّين، وهو طُنبور الحبشة، ويروى عن ابن الإعرابي قال: التِّقْنين الضرب القِنِّين، وهو الطُّنبور بالحبشية[١].

ومن آلات الموسيقا **القَصَب**، جاء في المعاجم: القاصب: الزامر، والقُصَّابة: المِزمار والجمع قُصَّاب، وعلّق الأَصمعي على لفظة القُصَّاب التي جاءت في بيت للأعشى: أراد الأعشى بالقَصّاب الأوتار التي سُوِّيت من الأمعاء، وقال أبو عمرو: هي المزامير، والقاصب والقصَّاب ، النافخ في القصب[٢]. ومن هذه الآلات أيضاً (الدَّف)، وهو ما يُضرب به من آلات الطرب، فارسية دَفْ [٣].

وقد تضمّن الشعر الجاهلي مثل هذه الألفاظ سواءً كانت عربية أو فارسية، وفيها يظهر الجانب الحضاري المادي.

وفي ضوء دراسة نماذج من الشعر الجاهلي يمكن تتبّع آلات الموسيقا التي ورد ذكرها عند حديث الشعراء عن مجالس الغناء واللهو، ومن ذلك قول الأعشى يصف مجلساً من مجالس الخمر، مشيراً إلى آلات الموسيقا التي كانت تصْدح بأحلى الأنعام[٤]:

نَازعْتُهم قُضبَ الرَّيحَانُ مُتَّكِئــاً ... وقَهْوَةً مُزَّةً رَاووقُها خَضِـــــلُ [٥]

لا يَستفيقُونَ مِنها وهيَ راهِنَــةٌ ... إلاّ بِهَات، وإنْ عَلُّوا وإنْ نَهَلُـــوا

يَسْعَى بِها ذُو زُجاجَاتٍ لهُ نُطَفٌ ... مُقَلِّصٌ أسفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِـــلُ

---

[١] نفسه: مادة (قنّ)، ومعجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١٥٩.

[٢] اللسان: مادة (قصَب).

[٣] معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ٦٥.

[٤] ديوان الأعشى: ٥٩.

[٥] الراووق: وعاء تُروَّق فيه الخمر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمُسْتَجيبٍ تَخَالُ الصَّنجَ يُسْمِعهُ إذا تُرجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُـــــــــلُ [1]

مِنْ كُلِّ ذلِك يَومٌ قد لَهوتُ بــهِ وفي التَّجارِبُ طُولُ اللَّهوِ والغَــزَلُ

وقال يذكر المِزهر[2]:

وصَدُوحٍ إذا يُهَيِّجُها السَّـــــرْ بُ تَرَقَّتْ في مِزْهرٍ مَنْـــــــدُوفِ [3]

وتُعدُّ آلة القَصَب من الآلات الموسيقية العربية، يخرج منها صوت جَهْوري، ولهذا نجد عنترة يشبّه صوت شرب الناقة بصوت المزامير، يقول[4]:

بَرِكَتْ على مَاءِ الرِّداعِ كأنَّمـــا بَرَكَتْ على قَصَبٍ أجشَّ مُهَضَّـــمِ [5]

وتظهر هذه الآلة كذلك في حديث الأعشى عن مجلس من مجالس الخمر، إذ يصف لذة الشرب فيه، ويذكر مجموعة من آلات الطرب والموسيقا إلى جانب المزمار، مشيراً إلى آلتي الصَّنج والمِزهر، يقول[6]:

وكَأسٍ شَرِبتُ على لَـــــذَّةٍ وأُخْرَى تدَاويْتُ مِنْها بِهـــــــا

لِكَي يَعْلَمَ النّاسُ أنّي امـــــرؤٌ أتيتُ المَعيشَة مِن بابِهـــــــــا

كُمَيْتٍ يُرى دُونَ قَعْرِ الأنَـــى كَمثلِ قَذى العينِ يُقْذَى بِهـــــــا [7]

وَشاهِدُنا الورْدُ واليَاسَميـــــــ ـــنُ والمُسْمِعَاتُ بِقُصَّابِهـــــــا

---

[1] مستجيب: هو العود بحسب الصنج ويشاكله، والصنج العربي دوائر صغار من ضمار يعتّق بأحدهما على الأخرى ويمسكان في أصابع اليد.

[2] ديوان الأعشى: ٣١٥،

[3] صَدوح: مغنية تصدح، والندف: الضرب على الأوتار.

[4] ديوان عنترة: ٢٠٣، وانظر: ديوان الأعشى: ١٣٣.

[5] الرَّداع: القصب، ويقال هو ماء.

[6] ديوان الأعشى: ٢٢٣.

[7] الإني: الإناء، قصر المد للتخفيف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وُمِزْهَرُنا مُعْمِلٌ دائِـــــــمٌ فأيُّ الثّلاثةِ أزْرَى بِهـــــــــــا

ترى الصَّنَجَ يَبكي له شَجْـــوَهُ مَخافَةَ أنْ سَوفَ يُدْعى بِهـــــــا

ومن الآلات الموسيقية التي وصلت إلى العرب من بلاد فارس **الطَّنْبور**، وقد فصّل الفارابي الحديث عن هذه الآلة، فجعلها قريبةً في الشهرة عند الجمهور من آلة العــود، ويبدو أنّها كانت على درجة كبيرة من الإحكام والصُنع، يبدو هذا في قوله: "وشأن هذه الآلة في أكثر الأمر، أن يُستعمل فيها من الأوتار وتران فقط، وربّما استعمل فيها ثلاثة أوتار"[١].

وأشار الفارابي كذلك، إلى دساتين[٢] الطنبور، وكيفيّة شدّها: "وهذه الدّساتين التــي ذكرنا تسمّى الدّساتين الجاهلية، والألحان المؤلّفة من النغم تُسمع من هــذه الدّســاتين، تسمّى الألحان الجاهلية، وهذه هي التي كانت تُستعمل في القديم، فأمّا أكثر المحدثين من مستعملي هذه الآلة من العرب، فإنّهم لا يستعملون الدّساتين الجاهلية"[٣].

وقد جاء ذكر الطنبور إلى جانب الصّنج في شعر الأعشى عند حديثه عن الخمر، فقال[٤]:

وطِلاءِ خُسرُوانـــــــــيٍّ إذا ذاقَهُ الشَّيخُ تغَنَّى وارْحَجَـــــــنْ [٥]

وَطَنابيرَ حِسَانٍ صَوتُهـــــــا عِندَ صَنْجٍ كُلّمــا مُـــــسَّ أرَنّْ

وَإذا المُسْمِعُ أفْنَى صَوْتَـــــهُ عَزَفَ الصَّنجُ فنَادى صَــوْتُ وَنْ

---

[١] كتاب الموسيقى الكبير: الفارابي، أبو محمد نصر محمد بن محمد الفارابي (ت٣٣٩هــ)، تحقيق غطّاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة: ٦٢٩.

[٢] الدّساتين الجاهلية: يعني بها الدّساتين التي ترتّب متساوية المسافات، وهو الترتيب الذي كان يســتعمل فــي الطنبور البغدادي في زمن الجاهلية على رأي الفارابي، انظر المصدر السابق: ٦٦٢.

[٣] كتاب الموسيقى الكبير: ٦٦٣.

[٤] ديوان الأعشى: ٣٥٩.

[٥] الطلاء الخسرواني: الخمرة منسوبة إلى فروشاه، وارْحَجَن: مال واهتزّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمُسْتَقْ آلة موسيقية فارسية، وردت في الشعر الجاهلي كذلك، ولعلّ الأعشى من أكثر الشعراء الذين استوعبوا حضارة الأمم الأخرى وبخاصة الفارسية، لهذا نجد معظم هذه الألفاظ المتعلقة بالآلات الموسيقية قد وردت في شعره، فهو يذكر آلة المُسْتَق إلى جانب آلات أخرى، يقول[١]:

ومُسْتَقٍ سينينٍ وَوَنٌّ وبَرْبَـــطٌ يُجاوبُهُ صَنْجٌ إذا مَا تَرنَّمَـــا[٢]

وفِتْيانُ صِدْقٍ لا ضَغائِنَ بينَهـــم وقَدْ جَعَلُوني فَيْسَحَاهاً مُكَرَّمـــا [٣]

وقد ذكر الأعشى البَرْبط في موقع آخر، ويبدو أنها آلة موسيقية ذات أوتار وهو لفظ رُومي معرّب، قال[٤]:

وَمُسْمَعتانِ وصَنَّاجَـــــةٌ تُقَلبُ بالكَفِّ أوْتَارَهـــــا

وَبَرْبَطُنا مُعْمِلٌ دائِـــــمٌ فقَدْ كادَ يَغْلِبُ إسْكَارهـــــا

وَذُو تُومَتَيْنِ وقَاقُـــــزَّةٌ يَعُلُّ ويُسْرِعُ تَكْرَارَهـــــا [٥]

وغالباً ما كانت ترد كلمة **الشِّرع** في الشعر، ويقصد بها أوتار العود، ولعلّ آلة العود من صنع العرب أنفسهم، جاء ذكرها في قول علقمة يتحدّث عن ذَكر النّعام مُشبّهاً عنقه بالعود، فقال[٦]:

يَأْوِي إلى خُرَّقٍ زُعْرٍ قَوادِمُهـــا كَأَنّهُنَّ إذا بَرَّكْنَ جُرْثُـــومُ

وصَنَّاعةٌ كَعِصيِّ الشَّرْعِ جُؤجُؤه كَأَنّه تَناهِي الرَّوضُ عُلْجُـــومُ [٧]

---

[١] ديوان الأعشى: ٢٩٣.

[٢] البَرْبَط: آلة موسيقية ذات أوتار (رومي مُعرّب).

[٣] فَيْسَحاها: في المعجم: هو يمشي الفيسحى؛ أي يباعد في خطوه.

[٤] ديوان الأعشى: ٣١٩.

[٥] القاقزة. إناء من آنية الشراب (فارسي معرّب).

[٦] ديوان علقمة: ٦١.

[٧] العلجوم: الليل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترد لفظة **الشِّرْع** كذلك في قول ساعدة بن جُؤْبَة يرثي ابنه مشبّهاً دوي الهموم في صدره بدويِّ أوتار العود[1]:

ألا بَاتَ مَنْ حَولي نِيَامَاً ورُقَّداً وعَاوَدَنِي حُزْني الذي يتجدَّدُ

وعَاوَدَنِي دِيْني فَبِتُّ كأنّما خِلالَ ضُلوعِ الصَّدْرِ شِرْعٌ مُحدَّدُ [2]

وقال فيها أبو ذؤيب الهذلي[3]:

وبِكْرٌ كُلّما مَسَّتْ أصَاتَتْ تَرنُّمَ نَغمٍ ذِي الشِّرع العتيقِ [4]

لَها من غيْرِها مَعَها قرينٌ يَرُدُّ مِراحَ عاصِيةٍ صَفُوقِ

وورد في الشعر كلمة **المَوْشِيّ**، وهو المِزمار، ويبدو أنه القَصب نفسه، قال أبو ذؤيب أيضاً[5]:

لَقَدْ لاقَى المِطيَّ بنَجْدِ عُفْرٍ حَديثٌ إنْ عَجبْتَ لَهُ عَجيبُ [6]

أرِقْتُ لذِكرِه من غيرِ نَوْبٍ كما يَهْتاجُ مَوْشيٌّ نَقِيبُ

ومن آلات الموسيقا التي وردت في الشعر **المِثْجَر**، وهو مِزمار ذو أنابيب، وقيل المِثْقب، وهو من اليُراع، قال أبو زيد الطائي، يصوّر ما في الجوف كأنّه المَزامير[7]:

منَ الأُسدِ عَاديٌّ يكادُ لِصَوتِهِ رُؤُوس الجبالِ العَادياتِ تَقَعَّرِ

كأنَّ اهتِزامَ الرَّعدِ خالطَ جَوْفَهُ إذا حنَّ فيه الخَيْزرانُ المُثجَّرِ

---

[1] شرح أشعار الهذليين: ١١٦٥/٣-١٥٥٥. والشاعر أخو بني كعب بن كاهل بن الحارث بن تميم بن هذيل.

[2] ديْني: حالي.

[3] شرح أشعار الهذليين: ١٨٣/١.

[4] البكر: يعني القوس أول ما رُمي بها، وأصاتت: صوّتت.

[5] شرح أشعار الهذليين: ١٠٥/١-١٠٦.

[6] عفر: أي من غير قرب، وباليمن يقال له عُفر وعُفار.

[7] شعر أبي زيد الطائي، تحقيق نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧: ٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصور الشاعر جابر بن حارثة صوت دوي الماء في الجوف كأنّه دويّ الدُّفّ في يد القَينة، يقول[1]:

إذا زالَ رُعنٌ عن يَدَيها ونَحْرِها بَدا رأسُ رَعْنٍ واردٍ مُتقـــــدِّمِ

وصَدَّتْ عن الماءِ الرَّواءِ لجَوْفِها دَوِيٌّ كدُفِّ القَينةِ المُتَهـــــزِّمِ

من الملاحظ أنّ كثيراً من آلات الموسيقا التي عرفها العرب في الجاهلية هي فارسيّة الصنع، وقد وصلت إلى البيئات العربية بحكم الجوار والمعاملات التجارية، وبعضها عربي الصنع؛ لأنّ مادتها الأولية توافرت في بيئتهم وبخاصة المِزمار، والقصب والمزهر وغيرها، وفي هذا كله نلمح جانباً حضارياً مادياً لا يمكن تجاهله.

وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ المغنّين من الفُرس والرُوم نقلوا مثل هذه الآلات إلى العرب عندما وصلوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب، وغنُّوا جميعاً بالعيدان والطَّنابير والمَزامير، وسمع العرب تْلحينهم للأصوات، فلحَّنوا عليها أشعارِهم[2].

ويقدّم ما سلف من مادة صورة واضحة عن حياة العرب الاجتماعية وما ظهر فيها من مظاهر حضارية مادية تتمثّل في صناعة الملابس والحُلِيّ، والزينة، والعطور، وأواني الطعام والشراب، وبعض آلات الموسيقا، كما يقدّم صورة عن انفتاح العرب على حضارات الأمم الأخرى، وبخاصة حضارة فارس وروما، بحكم الموقع والتجارة.

ولم يغفل الشعر الجاهلي جانباً من هذه الجوانب، فقد تأثر الشعراء بألفاظ الحضارة تأثراً واضحاً، ولهذا استوعب الشعر كثيراً من المضامين الحضارية المادية الاجتماعية.

---

[1] المفضليات: ٢١٠، والشاعر هو جابر بن حنى بن حارثة بن عمرو بن حبيب بن عمرو، جاهلي قديم، انظر المصدر نفسه: ٢٠٨.

[2] مقدّمة ابن خلدون: ٤٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الصناعات والحرف

أولاً: المصنوعات الخشبية وأدوات النجارة.

ثانياً: صناعة الحِياكة والنّسيج.

ثالثاً: صناعة الأسلحة وآلات الحرب.

رابعاً: حرفة الزراعة أساليبها وأدواتها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: المصنوعات الخشبيّة وأدوات النجارة:

يلحظ دارس الشعر الجاهلي أنّ العرب في ذلك العصر قد عرفوا ضروباً من الصناعات والحرف؛ لأنّها من أسباب الحياة المعاشية، فكل ضرب من ضروب الصناعات يمسُّ حياة العرب وحوائجهم، ولعلّ أكثر بلاد العرب التي اشتهرت بالصناعات هي التي كانت قريبة من عهد الحضارة، أو تلك التي بلغت غاية من الترف والتحضُّر، وقد أشارت المصادر إلى أنّ بلاد اليمن كانت تحتلّ مكانة كبيرة في هذا الجانب، فنُسِبت معظم الصناعات إليها، ويرجع ذلك إلى عراقة اليمن الحضارية من جهة، وإلى توافر المواد الخام المحلية من جهة أخرى[1].

ومن هذه الصناعات النجارة التي تُعدّ من ضروريات الحياة ومقوّماتها، وهي ضرورية لحياة الحضر والبدو على حدّ سواء، فمتطلّبات معايشهم تقتضي وجود مثل هذه الحرفة التي تمسّ كل جانب من جوانب الحياة، فيحتاجون إليها في صناعة أواني شربهم وطعامهم، وفي بناء مساكنهم حتى وإنْ كانت من بيوت الشعر، فهي بحاجة إلى العُمد والأوتاد، وكثير من مستلزمات البيت وأثاثه تعتمد اعتماداً كبيراً على ما ينهض به النجّارون من مصنوعات خشبية.

وذهب ابن خلدون إلى أنّ هذه الصناعة من ضروريات العمران، جالبة لكثير من المنافع، فقال: "هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب، وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكوّن من المكوّنات منافع تكمّل بها ضروراته أو حاجاته، وكان منها الشجر، فإنّ له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل واحد. ومن منافعها، اتخاذها خشباً إذا يبست. وأول منافع الخشب أن يكون وقوداً

[1] جزيرة العرب من كتاب: الممالك والمسالك: ١٢٢، وانظر: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٧: ٥٤٣-٥٤٥، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣: ٣٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للنيران في معاشهم وعِصيّاً للاتّكاء والذود، وغيرها من ضرورياتهم، ودعائم لما يُخشى ميله من أثقالهم. ثمّ بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر، فأمّا أهل البدو فيتّخذون منها العُمد والأوتاد لخيامهم، والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسِّهام لسلاحهم. وأمّا أهل الحضر، فالسّقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة له، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلاّ بالصناعة"[1].

ومن الملاحظ أنّ بعض البيئات العربية في العصر الجاهلي قد استعانت بالرقيق الأجانب في أداء حرفة النجارة، إمّا لإزدرائهم للحرف بشكل عام، أو لأنها لم تكن على حظّ وافر في معرفة مقوّماتها، وطريقة أدائها[2]، ولكن يمكن أن يكون من بين العرب أنفسهم من عرف هذه الحرفة وتعلّمها.

وتشير الدراسات إلى أنّ المادّة الخام للمصنوعات الخشبية المتمثلة في الخشب، كانت عند الجاهليين على ضربين، ضرب استورده العرب من خارج بلادهم عن طريق التجارة مع الهند وغيرها، وهذا النوع أجود الأصناف، ولهذا استُعمِل في صنع الأثاث الفاخر الثمين، ودخل في صناعة كل ما تحتاجه القصور والمعابد، كان من أهمّه السّاج، والآبنوس، والعَنْدل. وضرب من هذه المادة هو من ناتج البلاد العربية مثل خشب النّضار والسّدر الذي كان ينبت في الجزيرة العربية[3].

وتحدّث الشعراء عن أنواع كثيرة من الأخشاب التي استخدمها النجّارون في مصنوعاتهم الخشبية، ومن ذلك خشب المَيْس وهو شجر صلب مالس تُصنع منه أخشابِ الرِّحال، يقول ابن مقبل[4]:

---

[1] مقدمة ابن خلدون: ٧٣٠.

[2] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٧: ٥٤٧.

[3] المصدر نفسه، ٧: ٥٤٧-٥٤٨.

[4] ديوان ابن مقبل: ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لنَا حُجراتٌ تَنْتَهي الحَاجُ عِنْدَهـــا وصُهْبٌ على أثبَاجِها المَيسُ طُلَّــحُ [1]

ومن أنواع الخشب الشِّيزى، وهو نوع من الأخشاب السود تصنع منــه الأمشــاط والجِفان ونحوهما، قال طرفة بن العبد[2]:

تَرى الرُّحَّ منْ شِيزَى لّدى كلِّ مَجِسٍ كَحوضِ الأضَى منْ بعدِ شَبْعِ المَعارِكِ

وتحدّث الشعراء أيضاً عن نوع خاص من الخشب كانت تُصنع منه القسي والسِّهام ، وهو شجر النّبع، وفيه قال ثعلبة بن عمرو العبدي[3]:

وصَفراءُ من نبعٍ سِلاحٍ أُعِدُّهـــا وأبيضُ قصَّالُ الضّريبةِ جائِـــفُ

وصُنعت القسي كذلك من خشب يسمّى السَّنْدري، قال أبو جنوب الهذلي[4]:

وكنتُ إذا قَوْمٌ بَغُوني أتَيْتُهـــمْ بِمُسقِطةِ الأجْبَالِ فَقْماءَ قِنْطـــرِ[5]

إذ أدركَتْ أُولاهُمُ أُخرَيَاتُهُـــمْ حَنَوْتُ لَهُمْ بالسَّنْدَريّ المُوتَّـــرِ

وجاءت صورة شجر الشوحط مكرّرة في الشعر الجاهلي، وهو ضربٌ من الأشــجار الجبلية كانت تُستغل في صناعة القسي، قال عبيد بن الأبرص[6]:

والعَنَاجيجُ كالقِدَاحِ من الشَّـــوْ حطِ يَحمِلْن شِكَّةَ الأبطَـــالِ [7]

ومن أنواع الخشب المعروفة في بلاد العرب وبخاصة اليمن ما أخذ مــن شجــر

---

[1] الطّلح: جمع طُلُح وهو البعير الذي أجهده السفر.

[2] ديوان طرفة بن العبد: ١٨٣.

[3] المفضليات: ٢٨٢.

[4] شرح أشعار الهذليين": ٣٥٩/١.

[5] مُسقطة الأجبال: الداهية، وقِنطر: كذلك داهية.

[6] ديوان عبيد بن الأبرص: ١٠٩.

[7] العناجيج: الطوال الأعناق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجوز الذي كان يطلع في أعالي الجبال، ويعرف خشبه بالقوة والصلابة[1]، وممّا جاء فيه قول النابغة الجعدي مشيراً إلى صلابة هذا النوع من الأخشاب[2]:

لُطِمْنَ بتُرْسٍ شَديدِ الصِّفـــــاقِ من خَشَبِ الجَوْزِ لم يُثَقَّـــــــــــبِ

وتحدّث الشعراء عن نوع آخر من الأخشاب كان يُؤخذ من شجر الطّرفاء، وفيه قال سلمة بن الخُرشُب الأنْمَاري[3]:

وَأَمْسوْا حِلالاً ما يُفَرَّقُ بينَهُـــمْ على كُلِّ ماءٍ بين فَيْدَ وَسَاجِـــــــرِ[4]

وأُصْعِدَتِ الحُطّابُ حتّى تَقَاربُوا على خُشُبِ الطّرْفاءِ مَوْقَ العَوَاقِـــرِ

وهذه الحرفة لا يكفيها توافر المواد الخام، وإنّما هي بحاجة إلى مهرة من النجّاريـن حتى ينهضوا بصناعة كل ما يحتاجه الناس من أصناف المصنوعات الخشبية، وفي هذا تتجلّى الصورة الحضارية المادية بوضوح، وقد أشار ابن خلدون إلى مهنة النّجار وما تحتاجه من مهارة وهندسة، وأنها في هذه الصفة توجد حيث عَظُمت الحضارة، فقال: "والقائم على هذه الصناعة هو النّجار، وهو ضروري في العُمران. ثمّ إذا عَظُمت الحضارة وجاء الترف وتأنّقَ الناس فيما يتّخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كُرسي أو مَاعُون، حدث التأنّق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة عمّا ليست من الضروري في شيء. مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط بحكم بريها وتشكيلها ثم تُؤلّف على نسب مقدرة وتُلم بالدسائر فتبدو لمرأى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتّخذ من الخشب فيجيئ آنق ما يكون، ...، وهذه الصناعة من

---

[1] المفصّل في تاريخ العرب، ٧: ٧٦، وانظر: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، واضح الصمد، ط١، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٨١، ٢٧-٢٨.

[2] ديوان النابغة الجعدي: ٢٢.

[3] المفضليات: ٣٧.

[4] فَيْد وسَاجر: موضعان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها، فإنّ إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير؛ إمّا عموماً أو خصوصاً"[1].

ويلاحظ أنّ الخشب قد استخدم في مصنوعات كثيرة اعتمد عليها العرب في معيشتهم وتدبير شُئونهم، إذ يمكن دراسة نماذج من هذه المصنوعات في ضوء الاعتماد على الشعر الجاهلي، ليتسنّى معرفة الصورة الحضارية المادية في صناعتهم، ومن جملة هذه المصنوعات التي نهض بها النجّارون:

- الأرائك والسُّرر:

تعدّ الأرائك والسُّرر من المصنوعات الخشبيّة التي ارتبطت بأثاث البيت ومقتنياته، وقد توافرت الأخشاب اللازمة لصناعتها في بلاد العرب، وبعضها كان يُجلب من خارج الجزيرة العربية، وتشير المصادر إلى أنّه عُرف عن أهل مكّة صناعة الأسرّة والأرائك، فمن الذين اشتغلوا بالنجارة عتبة بن أبي وقاص[2].

وذكر في القرآن الكريم لفظتا الأرائك والأسرّة، كما في قوله تعالى: ﴿هُمْ وأزْواجُهم في ظِلالٍ على الأرَائِكِ مُتّكئُون ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ مُتّكِئِين على سُررٍ مَصْفُوفة ﴾[4].

وتكرّرت صورة الأسرّة والأرائك في الشعر الجاهلي، واستخدم الشعراء ألفاظاً مختلفة للدلالة على هذا النوع من المصنوعات الخشبية، منها الأريكة، وهي سرير مُنجَّد مُزيّن في قبّة أو بيت، يقول الأعشى[5]:

---

[1] مقدّمة ابن خلدون: ٧٣١-٧٣٢.

[2] المعارف: ابن قتيبة، ١٩٤، وانظر: تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣١٣-٤١٤.

[3] يسن: ٣٦.

[4] الطّور: ٥٢، وانظر: الزخرف: ٤٣، والغاشية: ٨٨.

[5] ديوان الأعشى: ١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنْ نظرةٍ نَطَرتْ ضُحىً فَرأيْتُهـــا ولِمَنْ يَحينُ على المنيّةِ هَـــــادِي
بَينَ الرّوَاقِ وجَانبٍ من سَيْرِهـــا مِنْها وبَيْنَ أرائِكِ الأنْضـــــــادِ

ويقول الأعشى كذلك[1]:

وسَبَتْكَ حِينَ تَبَسَّمَـــــــــتْ بينَ الأرِيكَةِ والسِّتَـــــــــارَهْ

وتقول برَّة بنت الحارث من بني عمرو بن مالك تذكر الأريكة[2]:

أبْنِي الرِّواقَ على أرِيْكتِـــــــهِ لِيَقْبَلَ دُونَ الشَّمسِ في سَتْـــــــرِ

ومن الألفاظ التي جاءت في الشعر تدلّ على سرير الموتى (الحَرَج)، ورد في شعر عنترة يتحدّث عن طائر النعام، فيقول[3]:

يَأْوي إلى هِزَق النَّعامِ كَمـــا أوَتْ هِزَقٌ يَمَانيةٌ لأَعجَمَ طَمْطَـــــــمِ [4]
يَتْبَعنَ قُلَةَ رأْسِهِ وكَأَنَّـــــــهُ زَوجٌ على حَرَجٍ لهنَّ مُخَيّـــــمِ

وممّا يؤكّد أنّ هذا النوع من الأسرّة خاص بالموتى، قول سُلميٍّ بن ربيعة من بني ضبَّة[5]:

وَطِرَاد خيلٍ مثلها التَقَتـــــا لِحفيظةٍ ومَقَاعِدِ الخَمْـــــــرِ
لولا أُولئَك ما حَفِلْتُ حَتّـــــى عُدْليتُ في حَرَجٍ إلى قَبْـــــــرِ

ويقابل لفظة الحرج للدلالة على سرير الموتى لفظة (الشَّرْجع)، وقد وردت في شعر عبدة بن الطبيب يذكر الموت والقبر[6]:

ولَقَدْ عَلمتُ بأنّ قَصْدي حُفـــرةٌ عَبْداءُ يَحملُني إليها شَرْجَـــــعُ
فَبكى بَناتِي شَجْوَهُنّ وزَوْجَتِـــي والأقْرَبُون إليَّ ثُمَّ تَصدَّعُـــــوا

---

[1] ديوان الأعشى: ١٥٣.
[2] الاختيارين: ٢٨٩.
[3] ديوان عنترة: ٢٠٠.
[4] هِزَق النّعام: جماعاتها، والطمطم: الذي لا يقصم شيئاً.
[5] شعر ضبّة وأخبارها في الجاهلية والإسلام: ١١٨.
[6] ديوان عبدة بن الطبيب: ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وورد في الشعر لفظة (النَّضد) ويُقصد بها السرير، قال سُحيم بن وثيل أحد بني حَمْيري[1]:

سَأحْيى ما حَيِيْتُ وإنَّ ظَهْري المُستَنِد إلى نَضَدٍ أمِينِ

- الباب والرِّتاج:

تُعدُّ الأبواب من ضرورات البيوت، ولهذا اعتنى النجارُّون بصناعتها، أو ما يُسمّى بالرِّتاج، وهو أنف الباب، وقد استخدم النجارون قطعاً من الأخشاب لصناعة الباب، وفصّل الألوسي الحديث في صناعة الأبواب عند العرب في الجاهلية، إذ أشار إلى أوصال الباب وأسمائها، وكتائف الباب وضبَّاته، والمغلاق، وبلاطيط الباب وهي الخشب التي تقع في الثُّقب الذي يُغلق الباب به، كما أنّ هناك العِضادتين وهما خشبتان تكْتنفان الباب تُضمّان بوساطة الأسكُفّة، ثمّ هناك تفصيل حول الآلية التي تتمّ بها عملية الصنع، وفيها تتجلّى صورة حضارية مادية تدل بوضوح على ما كان عليه العرب من رُقي حضاري[2].

وأشار الشعراء الجاهليون إلى هذا الجانب الحضاري المتمثل في صناعة النجّارين للأبواب والرّتاج، ومما جاء فيه قول زهير بن أبي سلمى، يشير إلى رتاج الباب الذي غُلّق بخشبة سُدّت بالمسامير[3]:

ويَوْمَ تَلافيتُ الصّبَا أنْ يَفُوتَني بِرَحبِ الفُروجِ ذي حَمَالٍ مُوَثّقِ
سَدِيسٍ كُباريٍّ تَئطّ نُسُوعُهُ أطِيطَ رِتاجٍ ذي مَسَامير مُغْلَقِ[4]

وقال القِطرَانُ السّعدي يذكر الباب الذي شُدّ رِتاجُه[5]:

---

[1] الأَصمعيات: ٢٠، والشاعر هو سُحيم بن وثيل الريامي أحد بني حَمْيري، شاعر جاهلي قديم.

[2] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣: ٣٩٦-٣٩٨.

[3] ديوان زهير: ٥٠.

[4] تئط: تُصوّت.

[5] الاختيارين: ١٢٦، والشاعر يتحدّث عن السّفينة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا نَفَضَتْ ماءَ اللُّغامِ وباشَــرَتْ بِهامَتِها شَمساً بَطِيئاً نُزُولُهـــــــــا
لها عَجُزٌ كالبابِ شُدَّ رِتَاجُـــهُ وَزَورٌ كَطَيِّ البئرِ دَانَاه جُولُهـــــا

وتظهر صورة الرِّتاج وقد شُدّت ألواحه بالمسامير في قول ابن مقبل، إذ يرسم له صورة تبدو قوية لأنّه يصوّره بشدّة دخول الحربة في نُحور الأعداء، يقول[1]:

فَلاَ أعرَفَنّكم بَعدَ عِزٍّ وثَـــــرْوَةٍ يُقالُ: ألا تِلْكَ النِّبْتُ عِساكِـــــــرُ
فلا تَجعَلُوا حَرْباتِكُمْ في نُحورِكُمْ كما شُدَّ أَلواحُ الرِّتاجِ المسامِـــرُ

إنّ صناعة الأبواب والرِّتاج، واستخدام المسامير، وتثبيت الألواح يــدلّ علـــى مهـــارة النجّار، وفي هذا يتأتّى الجانب الحضاري المادي.

– **الرّحل:** يُعدّ من جملة المصنوعات الخشبية التي اشتهرت صناعتها في الجاهلية، وهو مركب من مراكب النساء يُشبه المَحفَّة تركبه نساء الأعراب على الإبل. ويُسمى الرّحل بالكُور، وهو رحل الناقة بأداته، وهو كالسرج وآلته للفرس[2].

وتبدو صورة الكُور في حديث المُثقّب العبدي عن الناقة، يقول[3]:

كأنّ الكُورَ والأنْساعَ مِنْهَـــــا على قَرْواء مَاهِرةٍ دَهِيـــــــــنِ

وقال عُتبة بن مِرْداس[4]:

ترى ظَلَفاتِ الرّحْلِ شُمّاتبينُهـــــا بأجْزَمَ كالتّابُوتِ أجْوَفَ مُجْفَـــرِ

ووردت لفظة الرّحل نفسه في الشعر، ومن ذلك قول المُمزّق العبدي يشير إلى الرّحـــل الذي يُصنع من شجر المَيْس[5]:

---

[1] ديوان ابن مقبل: ٢١٨.
[2] لسان العرب: مادة (رحل).
[3] ديوان المثقب العبدي: ١٨٨.
[4] الاختيارين: ٣٧٩.
[5] المفضليات: ٤٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا رأيْتُ رَكْباً مُخبِّريـــــــــــ ـــــنَ يَقُودُون مُقْرَباتٍ جِيـــــادَا

فَهُمُ صُحْبَتي على أرْحُلُ المَيْـــ ـــسِ يُزجُّون أيْنُقاً أفْـــــــــرَادا

وجاء ذكر الرَّحل بأسماء متعدّدة في شواهد كثيرة من الشعر الجـاهلي، فمـن الألفاظ الدالة عليه القتود أو الأقتاد، وفيها قال النابغة الذبياني[١]:

ومَسْكنِ أهلِها مِنْ بَطنِ جَـــزْعٍ تَبيضُ بهُ مَصَائيفُ الحَمَـــــــــامِ

وقَفْتُ وصُحْبَتِي بأرَيْنبـــــــاتٍ عَلى أقْتاد عُوْجٍ كالسَّمَـــــــــامِ[٢]

وقال ابن مقبل يتحدّث عن حُبّ صاحبته ويذكر القتود[٣]:

فهل يُنسِين حُبّها جَســــــــرَةٌ مِنَ النّاعِماتِ تُباري الزِّمَامَـــــا

كأنَّ قُتُودي على نَقْنِـــــــــقٍ أزجَّ يُباري بِجوٍّ نَعَامـــــــــا[٤]

وترد كذلك لفظة الحَدوج وتعني مركب النساء المصنوع من الخشب، جاء في اللسان أنّ الحُدوج والأحداج مراكب النساء واحدها حِدْج وحِداجة. قال الأزهري: الحِـدج بكسـر الحاء، مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمِحفَّة [٥]. وفيه يقول المثقـب العبـدي يتحدّث عن الظعن[٦]:

وَهُنَّ كَذَاكَ حينَ قَطَعْنَ فَلْجـــاً كأنَّ حُدُوجَهُنَّ على سَفِيـــــــــنِ

وغالباً ما تظهر صورة الحدوج عند تشبيها بالسُّفن، يبدو هذا فـي قـول طرفـة بـن العبـد[٧]:

---

[١] ديوان النابغة الذبياني: ٢٤١.

[٢] السَّمام: عِيَر شبه الإبل في الخِفّة.

[٣] ديوان ابن مقبل: ٢١٣-٢١٤.

[٤] النّقنق: ذكر النعام.

[٥] اللسان: مادة (حدج).

[٦] ديوان المثقب العبدي: ١٤٨.

[٧] ديوان طرفة بن العبد: ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنَّ حُدُوجَ المالِكيّةِ غُـــــــدْوَةً خَلاَيا سَفينٍ بالنّواصِـــــــفِ مِنْ دَدِ

عَدُوليّةٌ أو مِنْ سَفينِ ابنِ يَامـــــنٍ يَجُور بها الملاَّحُ طَوْراً ويَهْتَـــــدي

ومن الألفاظ الأخرى الدالة على الرّحل الكُور، وكور الرجل خشبُهُ وأداته، وفيـــه قـــال عمرو بن الأهتم[1]:

وجَاري لا تُهيتَهُ وَضيْفِـــــــــي إذا أمْسَى ورَاء البيت كُـــــــــورُ

يَؤُبُ إليكَ أشعَثَ جَرَّفَنْـــــــهُ عَوَانٌ لا يُنَهْنِهُا الغَتُـــــــــــورُ

- صناعة السفن والقوارب:

كانت الحاجة إلى هذه الصناعة كبيرة عند عرب الجاهلية، فهم يعتمـــدون علـــى السُّفن في تجارتهم مع البلاد الأخرى خارج الجزيرة العربية، وتخصص فـــي صـــناعة السُّفن والقوارب نجّارون مهرة، استوردوا مادة الخشب القوي من أفريقية والهنـــد؛ لأنّ صناعة السفن بحاجة إلى نوع خاص من الخشب توافر في هذه البلاد إلى جانـــب مـــا توافر في الجزيرة العربية من أخشاب صلبة[2].

ويُعدّ خشب السّاج من أجود أصناف الخشب وأنفسها التي استعملت فـــي صـــناعة السفن، ويظهر أنّه الخشب الذي ذكر (ثيوفراستوس) أنّه كان بجزيزة (تيلوس) ويقصـــد بها البحرين والخشب الذي كان في مدينة (عُمانة) عُمان، وذهب جواد علـــي إلـــى أنّ الجاهليين صنعوا سفنهم وقواربهم في مواضع متعدّدة من سواحل جزيرة العرب لا سيّما في سواحل الخليج، حيث تيسّر لسكانها استيراد الخشب الصالح من سقائف وهي ألواح السفينة، وكل لوح سقيفة، وقيل إنّ اللوح من ألواح السفينة هو القادس، وأمّا ما بين كل خشبتين من السفينة فيقال له الطائق، وتُحزّز السُّفن بالليف والجِلْفَاظ الذي يُجلفِظ السفن،

---

[1] المفضليات: ٤١٠.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٥٣/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو أن يدخل بين المسامير الألواح وفروزها مشاقة الكتّان، ويمسحه بالزّفت القار، وقد تُطلى السفن بالقار وتدسر، ويراد بالدّسر المسامير لغاية التسمير والتّدْسِير[١].

إنّ هذه الإشارة إلى صناعة السفن تدل على المستوى الرفيع في براعة النجّارين آنذاك، وتتجلّى فيها صورة حضارية ماديّة أخرى تدلّ على ما كان عليه عصر الجاهلية من رقيٍ وتحضّر.

وهذه الصناعة بحاجة إلى براعة ودقّة في الصنع، وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بالهندسة عندما قال في حديثه عن حرفة النجارة: "وكذلك قد يُحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدُسر، وهي أجرام هندسية صُنعت على قالب الحوت واعتبار سبْحِهِ في الماء بقوادمه وكَلْكله ليكون ذلك الشكل أعون لها على مصادقة الماء ..."[٢].

ولأهمية هذا النوع من المصنوعات الخشبية، فقد كانت صورة السفينة متمثّلة وحاضرة في أذهان الشعراء، فهي في نظرهم على درجة كبيرة من القوة والصلابة، ولهذا تكرّرت صورتها المثالية عند تشبيهها بالناقة، أشار إلى هذه الصورة بشر بن أبي خازم في حديثه عن صناعة السفن مشيراً إلى ألواحها وما شُدَّ بها من مسامير تجعلها في غاية الصنع والإحكام، فقال[٣]:

أُجالِدُ صَفّهُمْ ولَقَدْ أرانِـــــي على قَرْواءَ تَسْجُدُ للرِّيـــــاحِ [٤]
مُعبَّرةِ السّقائفِ ذاتِ دُسْـــــرٍ مُضبّرةٍ جوانبُهـــــــا رَدَاحِ [٥]

[١] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٥٣/٧.
[٢] مقدمة ابن خلدون: ٧٣١.
[٣] ديوان بشر بن أبي خازم: ٤٧.
[٤] القرواء: الناقة الطويلة السنام.
[٥] المضبّرة: الموطأة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتجلى هذه الصورة في حديث لبيد عن الناقة، إذْ يشبّهها بالسفينة في طولها وعظمها، ودقّة عملها، يقول[١]:

فَتَنَيْت كَفِّي والقِرَابَ ونُمْرُقِي ... ومكانُهُنَّ الكورُ والنَّسْعَانِ [٢]

كسَفينةِ الهِنْديِّ طابَقَ دَرْءها ... بِسَقائفٍ مَشبوحةٍ ودِهَانِ

فالتَامَ طائِقُها القديمُ فأصبَحَتْ ... ما إنْ يُقوِّمُ دَرءها رِدْفَانِ [٣]

فكأنّها هي يَومَ عِبٍّ كِلالِهَا ... أوْ أسْفَعُ الخدّيْنِ شَاةِ إرانِ

ومن أسماء السفينة (القادس) وهي السفينة العظيمة، يقول مُليح بن الحكم الهذلي[٤]:

تُباري إذا ما لاذَ بالضَّالِ والغَضَا ... من الحَرِّ أدْمانُ الفلاةِ الخَواذِلُ

كما نَشصَتْ في البَحْرِ أوتادُ قادِسٍ ... مُرَيسيّةٌ طابَتْ له فهْوَ جافِلُ

ويصوّر زهير بن أبي سلمى القوادس العظيمة وهي تصارع الأمواج القوية مشيراً إلى قوة ملاّحها وحذاقته، وفي هذا إشارة واضحة إلى قوة السفينة وإحكام صنعها، يقول[٥]:

عَوَامَ القَوَادِسِ قَفَّى الأردَمُون بها ... إذا تَرامى بها المُغْلَوْلِبُ الزَّبَدُ [٦]

ووردت لفظة (الخلِيَّة) وهي تعني السفينة العظيمة، تظهر في مشهد يرسمه الأعشى مشيراً فيه إلى قلاعها وذنب مُؤخّرتها، وهي تصارعُ الأمواج، يقول[٧]:

ومَا مُرْبِدٌ مِنْ خَلِيجِ الفُرَا ... تِ جَوْنٌ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمْ [٨]

يَكُبُّ الخَلِيّةَ ذاتَ القِلا ... عِ قد كادَ جُؤْجُؤُها يَنْحَطِمْ

تكَأكَأَ ملاّحُها وسْطَها ... مَنْ الخَوْفِ كَوْثَلَها يَلْتَزِمْ

---

[١] ديوان لبيد: ١٤٢-١٤٣.

[٢] القراب: غلاف السيف: شيء من أدم يجعل فيه السيف.

[٣] التأم: استوى، والطائق: الوجه بين خشبتين ووسط كل شيء طائقة. ودرءها: اعوجاجها. والرّدْفان:ملاّحان.

[٤] شرح أشعار الهذليين: ١٠٦٠/٣.

[٥] ديوان زهير: ٢٠٢.

[٦] الأردم: الملاّح الحاذق، والمُغلَوْلِب: البحر ذو الأمواج المتلاطمة.

[٧] ديوان الأعشى: ٣٩.

[٨] الغوارب: الأمواج، وكوثل السفينة: ذنبها ومؤخرتها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا العدوليّة، فهي سفينة منسوبة إلى قرية بالبحرين أو إلى قوم كانوا ينزلون هجر، أو إلى عدول، رجل كان يتّخذ السفن[١]. وهي الواردة في قول طرفة بن العبد يتحدّث عن النساء فوق الإبل[٢]:

كأنَّ حُدُوجَ المَالِكيّةِ غُدوَةً خلايَا سَفينٍ بالنّواصفِ مِنْ دَدِ [٣]

عدُوليّةٌ أو مِنْ سفينِ ابْنِ يَامنٍ يجُور بها الملاّح طوْراً ويَهْتَدي [٤]

وذكر علماء العربية نوعاً من السفن يُسمّى (البُوصَيّ). وقالوا إنّه فارسي معرّب، وذُكر أنّه الملاّح وقيل الزورق، وأنّ الكلمة معرّبة (بُوزي) [٥]. بدا المظهر الحضاري المادي جليّاً في صناعة السفن والاهتمام بها عند العرب في العصر الجاهلي، ولهذا جاءت صورة السفينة في الشعر واضحة لها دلالة حضارية.

وثمّة مصنوعات أخرى نهض بها النجّارون واستخدمها العرب في الجاهلية، ومن ذلك النَّعَامة، وهي المظّلة يُستظل بها من الشمس والمطر، وكانت تتكوّن من خشبتين تُنْصبان ويُلقى عليها ثُمام وهو ضرب من النبات، وفيها يقول أبو كبير عامر ابن الحُليس الهذلي[٦]:

عَيْطاءَ مُعْنقةٍ يكونُ أنيسُها ورُقَ الحَمامِ جَميمُها لم يُؤْكلِ [٧]

وضَعَ النَّعاماتِ الرِّجَالُ بَريْدِها مِنْ بَين شعْشَاعٍ وبَيْن مُظَلَّلِ

---

[١] المفصل في تاريخ العرب: ٢٥٨/٧.

[٢] ديوان طرفة بن العبد: ٧.

[٣] (دَدِ): اسم موضع.

[٤] ابن يامن: ملاّح من أهل هجر.

[٥] معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ٣١، وانظر المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٥٨/٧.

[٦] شرح أشعار الهذليين: ١٠٧٧/٣.

[٧] العَيْطاء: الطويلة العنق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وورد في الشعر الجاهلي ذكر **الآل**، جاء في المعاجم: الآل جمع آلة، وهي عود له شُعبتان يعرَّض عليه عُود آخر، ثم يُلقى عليه يستظلّ به[١].

وممّا جاء فيه، قول زهير بن أبي سلمى يذكر الآل وهو المظلَّة[٢]:

غَشِيتُ الدَّيارَ بالبَقيع فَثَهْمِـــــدِ دَوارِسَ قد أَقْوَيْنَ مِنْ أمِّ مَعْبَـــدِ
أَرَبَّتْ بها الأرْواحُ كُلَّ عَشِيّـــةٍ فَلَمْ يبقَ إلاّ آلُ خيْمٍ مُنَضَّـــــدِ [٣]

وصنع النجّارون المَشاجِب، وهي شكل من الأعــواد تُوضــع عليهــا الثيــاب، استعملها العرب لتعلّق عليها الملابس، وفيها قال النابغة الذبياني[٤]:

رِقاقُ النِّعَال طِيبٌ حُجُزاتُهـــم يُحيُّون بالرَّيْحانِ يوم السّباسِـــبِ [٥]
تحييهِمْ بِيضُ الوَلائِدِ بينَهُـــــمْ وأكْسِيةُ الإضْرِيجِ فوْقَ المشَاجِـبِ [٦]

وصنع النجّارون من الأثاث الكراسي، مادّتها من سعف النخيل، منها نوع خاص لجلوس الملوك وفي غرف الاستقبال[٧].

يقول عوف[٨] بن الأحوص[٩]:

مُلوكٌ على أنّ التحيّةَ سُوقَـــــةٌ كَراسيُّهم يُسْعى بها وصُقُورُهـــــا

وصنع النجّارون الدِّعامة، وهي عماد البيت، قال الأعشى[١٠]:

---

[١] معجم الصحاح واللسان: مادة (أوَلَ)..
[٢] ديوان زهير: ٢١٩.
[٣] أرَبّت: أقامت.
[٤] ديوان النابغة الذبياني: ٤٩.
[٥] يوم السّباسب: يوم السَّعانين للنصارى.
[٦] الإضريج: الخز الأحمر وهو لباس الملوك، وقيل هو الصّبغ الأحمر والخز مُعرّب إسْرِنْج. انظــر معجــم الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١١٠.
[٧] المفصل في تاريخ العرب: ٥٤٩/٧.
[٨] عوف بن الأحوص بن جعفر بن كِلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر معجم الشعراء، المرزبــاني (أبو عبيد الله محمد بن عمران، ت٣٨٤هــ)، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج: ١٣٣.
[٩] الاختيارين: ٤٤٥.
[١٠] ديوان الأعشى: ١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كِلا أَبَويكُمُ كانَ فَرْعاً دِعَامَـــــةً ولكنّهُمْ زادوا وأصبَحتَ ناقِصـــــا

وعمل النجَّار أيضاً المَ نارة من خشب وهي التي يوضع فيها السراج، وقد أشار إليها أوس بن حجر في حديثه عن الرمح، وكان النجّار يسمّى (النِّهاميِّ) فقال[١]:

مَعي مارِنٌ لّدْنٌ يُخَلّى طريقَـــهُ سِنانٌ كنِبراسِ النِّهاميِّ مِنْجَـــــلُ[٢]

ثَقَالَكَ بِكَعبٍ واحدٍ وتَلـــــــذُّهُ يَداكَ إذا مَا هُزَّ بالكَفِّ يَعْسِـــــلُ[٣]

وممّا صنعه النجّارون بعض حظائر الدَّواب التي استعملها العرب أحياناً مسدَّات للرياح، وكانت الحظيرة تسمّى بـــ (العُنَن)، جاء في اللسان أنّ الحظيرة ما أحاط بالشيء، وهي تكون من قَصَب وخشب[٤]، قال زهير[٥]:

تا للهّ قد عَلِمتْ قيْسٌ إذا قذفّـــتْ رِيحُ الشِّتَاءِ بُيُوتَ الحيِّ بِالعُنَـــنِ

وقال لبيد في المعنى نفسه[٦]:

هَلَكتْ عَامِرٌ فلم يَبقَ مِنهـــــا بِرياضِ الأعْراف إلاّ الدِّيـــــارُ

غيْرُ آلٍ وعُنَّهٍ وعَريـــــــشٌ ذَعَذَعَتْها الرِّياحُ والأمطـــــــارُ[٧]

ونهض النجّارون بصناعة بعض ألعـاب الصـبيان، إذ صـنعوا مـا يسـمّى (الخَذارِيف) جمع خُذْروف، وهي آلة من خشب مستديرة الشكل يلهـو بـه الصـبيان، فيجعلونها تدور بواسطة خيط، يُسمع لها دويّ، وفيها يقول ابن مقبـل مشـبّهاً رؤوس القتلى في الحرب التي يخوضها قومه بهذه الخذاريف[٨]:

---

[١] ديوان أوس بن حجر: ٩٦.

[٢] النِّبراس: السراج.

[٣] يعْسِلُ: يضطرب ويهتزّ.

[٤] اللسان: مادة (حَظَرَ).

[٥] ديوان زهير: ٩٩.

[٦] ديوان لبيد: ٤٤.

[٧] الآل: عيدان الخيمة، ودغدغتها: خرَقتها.

[٨] ديوان ابن مقبل: ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحيٌّ نُمَيْرٍ إنْ دَعَوْتُ أجَابَنـــــي كِرامٌ إذا شُلَّ السَّعامُ المُصَبَّـــــحُ [1]

لأسْيافِهِمْ في كلِّ يَومٍ كَرِيْهَـــةٍ خَذاريفُ هامٍ أوْ مَعَاصِمُ سُنَّـــــحُ

وورد في الشعر الجاهلي ما يسمّى بالمَحاجِن، وهي من المصـــنوعات الخشـــبية التي اهتمّ بصناعتها النجّارون، تعدّ من أثاث البيت يتّخذها الرجال للاتكاء عليها، وفيها يقول ابن مقبل[2]:

لمَّا أتى دُونَهُمْ حادٍ أقامِ بِهِـــــمْ فَرْجُ النَّقيبِ بِلا عِلْمٍ ولاَ وَطَـــــنِ

وصَرَّحَ السَّيْرُ عن كُتْمانَ وابْتُذلَتْ وَقْعُ المحَاجِنِ في المَهْرِيَّة الذُّقُـــنِ [3]

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة أنواعاً من الأسلحة كانت تُصنع من الخشـــب مثـــل القسي والسِّهام ، كما أنّ الأخشاب دخلت في صناعة أنواعٍ أخرى من الســـلاح ســـيتم الحديث عنها في بابها، وصنع النجّارون بعض آلات الموسيقا وبخاصة ما كان يُصنع من مادة القصب، وقد مرّ ذكرها في الفصل السابق، بالإضافة إلى بعض أدوات الحياكة والنسيج.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المصنوعات الخشبية التي عرفها العرب الجاهليون في مختلف بيئاتهم، تدلّ على مظهر حضاري مادّي يرتبط بالحرف والصناعات، عبَّـــر عنه الشعراء، كما عبّروا عن غيره من المظاهر الأخرى.

واستعمل النجّارون إزاء تلك المصنوعات المحكمة مجموعة من أدوات النجارة، إلاّ أنها في أغلبها استعملها الحداد في حرفته، فقد استعان النجّار بالمنشار والمِحفـــرة، والمِسْحَل، والمثْقب، واستخدم (الكُوس) وهي خشبة تستعمل لقياس تربيع الخشب[4].

---

[1] شُلَّ السّعام: طرد الإبل في المرعى.

[2] ديوان ابن مقبل: ٥٢.

[3] وكُتمان: جبل في بلاد بني عُقيل، والمهريّة: النوق الكريمة المنسوبة إلى مَهْرة بن حيدان.

[4] المفصّل في تاريخ العرب: ٥٥٢/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أدوات النجارة والحِدادة على حدٍّ سواء (المِدْوس) أو المِصْقلة، وهي خشبة يُشدُّ عليها مِسّن يَدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه، والجمع مداوس[١]. وعلى الرغم من أنّ المِدْوس من أدوات الحدّاد، إلاّ أنّ النجّار استعمله في حرفته، وقد جاءت في الشعر عند حديث الشعراء عن صقل السيوف، ومن ذلك قول حاتم الطائي[٢]:

فما رَاعَهُ إلاّ عُلُوٌّ جَبِينِـــــــــهِ بِعَضْبٍ خَلَتْ عَنْهُ مَداوِسُ صَيْقَـــلِ

وقال أوس بن حجر يصف صناعة القوس ويذكر المداوس[٣]:

فانْحنَى عَلَيْها ذات حَدٍّ دعَالَهـــا رَفِيقاً بِأخذٍ بالمدَاوسِ صَيْقَـــــلا

على فَخْذَيهِ مِنْ بُرايَةِ عُودِهَـــا شَبِيهٌ سَفَى البُهْمَى إذا ما تَقَتَّـــلا[٤]

وقال أبو ذؤيب الهذلي يشبّه ارتباك الحمار وتقلّبه بالمدوس المتقلب بالكف[٥]:

وكأنّما هُوَ مِدْوَسٌ مُتَقلِّـــــبٌ بالكَفِّ إلاّ أنّهُ هُوَ أضْلَـــــــعُ

واستعمل النجّار (الإزميل)، وهو المطرقة، أو حديدة كالهلال تجعل طرف رمح لصيد بقر الوحش[٦]. تبدو صورة الإزميل في قول عبدة بن الطبيب يتحدّث عن منسم الناقة[٧]:

عَيْهَمَةٌ يَنتحِي الأرضِ مَنْسِمُهـــا كَما انْتَحى في أدِيم الصَّرفِ إزْميلُ [٨]

ومن الأدوات التي استعملها النجّارون **العَلاَة والسّندان**، وهي الزُّبرة التي يضرب عليها الحديد[٩]، استعملها النجّار والحدّاد على حدٍّ سواء، وفيها يقول عبدة بن الطبيب يُشبِّه بها الناقة في صلابتها وقوتها[١٠]:

---

[١] لسان العرب: مادة (دوس).

[٢] ديوان حاتم الطائي: ٢٨٣.

[٣] ديوان أوس بن حجر: ٨٨.

[٤] سفى البُهْمَى: شوك البُهمي.

[٥] شرح أشعار الهذليين: ١٩/١.

[٦] اللسان: مادة (زمل).

[٧] ديوان عبده بن الطبيب: ٨٥.

[٨] عيْهَمَة: ناقة شديدة تامة الخَلْق.

[٩] اللسان: مادة (عَلَوَ).

[١٠] ديوان عبدة بن الطبيب: ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَعَدِّ عَنْها ولا تَشغلْكَ عن عَمَـــلٍ إنَّ الصّبابةَ بعدَ الشّيبِ تَضْليـــــلُ

بجَسرَةٍ كَعَلاةِ القَينِ دَوْسَـــــرَةٍ فِيها على الأيْنِ إرْقَالٌ وتَبغيـــــلُ [1]

ويقول جران العود النّميري[2]:

أتَانَا ابْنُ رَوْقٍ يَبْتَغِي اللّهوَ عِنْدنا فَكَانَ ابْنُ رَوْقٍ بين ثوبَية يَسْلَـــحُ

وأنْقذني منها ابنُ رَوقٍ وصَوْتُها كَصوتِ عَلاَةِ القَينِ صُلبٌ صُمِيدَحُ [3]

ويبدو أنّ العلاة شديدة الصلابة؛ ولهذا تكرّرت صورة الناقة التي تشبه العــلاة بجــامع القوة والشدة بينهما، يقول لبيد[4]:

ومَرْتٍ كَفَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُــهُ وتَحْتِي خَنُوفٌ كالعَلاةِ عَقِيـــــمُ [5]

ويُعدّ المِبْرد من أهم أدوات النجارة، إذ كان يستعين به النجّارون لبرد الخشب وقشْــرِه، وقد جاء ذكره في حديث امرئ القيس عن الفرس الجموع[6]، فقال[7]:

سَبوحاً جَمُوعاً وإحْضارُهـــــا كَمَعْتَمةِ السَّقفِ المُوْقَـــــــــدِ

ومَشْدودةَ السّكِّ مَوْضُونَـــــــةً تَضَاءَل في الطّيِّ كالمِبْـــــــرَدِ

وتبدو هذه الأداة في قول ابن مقبل[8]:

أمْ أغْمِضُ بينَ الجِلْدِ واللّحمِ غمضَةً بِمِبْرَدِ رُوحيٍّ يَقَطّ النّواصِيَـــــا

وقال طرفة بن العبد يذكر العلاة والمبرد[9]:

---

[1] الإرقال والتبغيل: ضربان من السَّيْر.

[2] ديوان جران العود: ٧.

[3] الصُّميدح: الصلب الشديد.

[4] ديوان لبيد: ٩٥.

[5] الخنوف: التي تَخنف بأنفها.

[6] الجموع من البهائم التي لم يذهب من بدنها شيء. وبهيمة جمعاء أي سليمة من العيوب مجتمعة الأعضــاء كاملة فلا جُدع بها ولا كيّ. انظر لسان العرب: مادة (جمع).

[7] ديون امرئ القيس: ١٨٧.

[8] ديوان ابن مقبل: ٤١١.

[9] ديوان طرفة: ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجُمجَمةٌ مِثلُ العَلاةِ كَأنّمـــــــــا وعى المُلْتقىَ مِنها إلى حَرْفِ مِبْرَدِ

وجاء ذكر المِطرقة في الشعر من الأدوات التي كان يستعملها الحدّادون، وعلى الـرغم من ذلك، فإنّها أيضـاً كانت من أدوات النجّارين، قال فيها المثقّب العبدي مُشبّهاً قـوة الناقة وصلابتها بقوة المِطرقة[1]:

فسَلِّ الهَمَّ عنْكَ بِذاتِ لَـــــــوْثٍ عَذَافِرةٍ كَمِطرقَةِ القُيُـــــــــــــونِ

ومن الملاحظ أنّ أدوات النجارة كانت في غاية من الصلابة والشدّة، ولهذا فإنّها وردت في الشعر الجاهلي في أغلب الأحيان عند حديث الشعراء عـن الناقـة الصـلبة القوية التي تتحمّل المصاعب.

وثمّة ملاحظة أخرى تتمثّل في أنّ معظم الأدوات التي استعان بهـا النجّـارون كانت من بين الأدوات التي استعملها الحدادون.

وفي ضوء ما سلف عن المصنوعات الخشبية وأدوات النجارين، تتجلّى الصورة الحضارية المادية عند العرب في العصر الجاهلي، وهي تدلّ على اتصال العرب بالأمم الأخرى وتجارتهم الدائبة للحصول على أجود أنواع الأخشاب وأثمنها ممـا لم يتـوافر في الجزيرة العربية، وبفضل هذا صنع النجارون كثيراً من مقتنيـات البيـت العربـي ومستلزماته من الأثاث، وكل ما تتطلّبه حياتهم، وهو ما يمكن أن يكون استجابة واضحة لحاجات الحضارة المادية آنذاك.

[1] ديوان شعر المثقب العبدي: ٦٤-١٦٥. وانظر: في بعض أدوات النجارين التي لم ترد في الشـعر: بلـوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/٣٩٨-٣٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: الحِياكة والنَّسيج:

تُعدُّ هذه الحرفة كغيرها من الحرف التي عُرفت عند العرب في مختلف بيئاتهم في العصر الجاهلي، فضلاً عن أنها عرفت منذ القِدم، وهي صناعة لها دِلالتها الحضارية؛ لأنّها من ضرورات كل أمّة من الأمم، فعلى الرغم من أنفة العرب من الصناعات إلاّ أنّها عُرفت عندهم، وقد أشار حسان بن ثابت إلى مَصانع العرب عند هجائه للوليد بن المغيرة، فقال[1]:

فالْحَقْ بِقَيْنِك قَيْنِ السُّوء إنّ لَـــهُ كِيْراً بِبابِ عَجُوزِ السُّوءِ لم يَـــرِمِ
تِلْكمْ مصانِعُكمْ في الدّهرِ قد عُرِفتْ ضَرْبُ النَّصَالِ وحُسْنُ الــرَّقْعِ لِلْبُرَمِ

وأشار القدماء إلى أنّ بلاد اليمن كانت زاخرة بكثير من الصناعات التي تعتمد على الخامات المحلية، "ولليمن شهرة كبيرة في صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية، ففي عَدَن تصنع الحَبْرات والأردْية والعمائم. والحَبْرات ومفردها حَبْرة ضربٌ من الثياب الموشاة أو المخططة، وتصنع عادة من الصوف. وفي قرية "سَحْول"، وتقع في الشمال الشرقي من مدينة تعز، تصنع الثياب السُّحُولية، وهي ثياب بيضاء تصنع من القطن"[2].

وعُرِفت هذه الصناعة عند أهل البدو وأهل الحضر، إلاّ أنها لقيت اهتماماً كبيراً عند الحضر، ويرى ابن خلدون أنّها من مقوّمات العمران، يقول: "اعلم أنّ المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بدّ لهم من الفكر في الدفء كالفكر في السكن، ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحرِّ والبرد، ولا بدّ لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسيج والحياكة. فإن كانوا بادية اقتصروا عليه، وإن مالوا إلى

---

[1] ديون حسان بن ثابت: ٤٥٥

[2] جزيرة العرب من كتاب: الممالك والمسالك: ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحضارة فصّلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدّرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيه"[1].

ومن الملاحظ أنّ هذه الحرفة بحاجة إلى صُنّاع مهرة يشرفون عليها حتى تُحكم الصناعة بدقة، فيشير ابن خلدون إلى هذا الجانب أيضاً، بقوله: "والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تُفصّل أولاً بالمِقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثمّ تُلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة. وصلاً أو حبكاً أو تثبيتاً أو تنقيحاً على حسب نوع الصناعة"[2].

ومعرفة هذه الحرفة معرقة القدم، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله: "صناعة الحياكة والخياطة، هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرَّفه ... وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليفة"[3].

وممّا يجدر ذكره أنّ بعض البيئات العربية اختصَّت بمثل هذا النوع من الصناعات، فَنجْرَان على سبيل المثال كانت مركزاً لصناعة الأنسجة حتى اشتهر ما يُعرف بالبرود النّجرانية، ومثلها الحيرة، فقد بلغت الصناعات فيها درجة كبيرة من الحذق والمهارة والإتقان، فراجت فيها صناعة النسيج، وبخاصة نسيج الحرير والكتّان[4].

وتَحسُن الإشارة إلى أنّ العرب حصلوا على أنواع من الأنسجة أو على بعض المواد الأولية من البلاد الأخرى، وبخاصة ما كان منها على درجة كبيرة من الجودة، من مثل ما كان يرد إلى البلاد العربية من الصين، وبلاد فارس وغيرها؛ مما يكسب البيئة العربية سمة حضارية.

---

[1] مقدمة ابن خلدون: ٧٣٣.

[2] المصدر نفسه: ٧٣٣

[3] المصدر نفسه: ٧٣٥

[4] تاريخ العرب في العصر الجاهلي: السيد عبد العزيز سالم، ١٢١، وانظر: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، واضح الصّمد: ٣٨-٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد بدت صورة النسّاج وما ينسجه من ملابس ومقتنيات البيت واضحة في الشعر الجاهلي، وتحدّث الشعراء عن أدوات الحياكة والنسيج، وظهرت صورة المرأة التي امتهنت هذه الحرفة جليّاً في الشعر أيضاً.

وثمّة إشارات واضحة في الشعر إلى حرفة الحياكة والنسّاج، ومن ذلك قول لبيد يشير إلى معرفة العرب بهذه الحرفة[1]:

حَقَائبهُمْ رَاحٌ عَتيقٌ وَدرْمَـــــكٌ وَرَيطٌ وفَا ثُوريّةٌ وسَلاسِـــــلُ

وما نَسَجتْ أسْرَادُ داود وَانِيَــةً مُضاعَفَةٌ من نَسْجِهِ إذا يُقابَـــلُ

وكَانتْ تُراثاً مِنهُما لِمُحـــــرِّقٍ طَحُونٌ كَأَنَّ البَيْضَ فيها الأعابِلُ [2]

ويبدو أنّ صورة النسيج اليماني كانت أكثر وروداً عند الشعراء؛ لأنّه أجود أنواع النسيج.

ويمكن أن يكون النسيج اليماني قد وصل إلى البيئات العربية جميعاً، وأنّ تجارتهم مع الصين والهند وبلاد فارس كانت رائجة في ذلك العصر. وكانت العِير تُحمّل بالعطور والمنسوجات، وإلى هذا النوع من التجارة أشار النابغة الذبياني بقوله[3]:

كأَنَّ مَجرَّ الرّامِساتِ ذُيُولُهـــا عَلَيْه حَصيرٌ نمّقَتْهُ الصّوانِـــعُ

عَلى ظَهْرِ مَبناةٍ جديدٍ سُيُورُهـــا يَطوفُ بها وسْطَ اللّطيمَةِ بَائِـــعُ [4]

وحرفة النسيج بحاجة إلى صانع ماهر خبير في حرفته، حتى يستطيع أن ينهض بصناعة كل ما رقّ من نسيج، وفي هذا يقول النابغة الذبياني يتحدّث عن النسّاج الذي هَلْهَل النّسيج[5]:

---

[1] ديوان لبيد: ٢٦٢-٢٦٣.

[2] الطّحون: الكتّيبة، والمحرّق: لقب لعمرو بن هند. والأعابل: الحجارة البيض الفخام.

[3] ديوان النابغة الذبياني: ١٩٢-١٩٣.

[4] مَبناة: النِّطع، وهو بساط من آدم، سُمّي مبناة لأنّهم كانوا يبنون القِباب من قطع الأَدم.

[5] المصدر نفسه: ١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتَاكَ بقَوْلٍ هَلْهَلَ النّسيجَ كـــــاذِبٍ ولم يأتِ بِالحقّ الذي هُوَ نَاصِــعُ

ويبدو أنّ النسّاج كان يشرف على صناعة ما يحتاجه البيت والقصر مــن منســوجات، يقول عمرو بن كلثوم مشيراً إلى ما في الخَوَرْنَق من قيْنٍ ونسّاج[1]:

حَلّتْ سُلَيْمي بِخَبتٍ أو بِفَرْتـــاجٍ وقَدْ تُجارِرُ أحْيَاناً بني نَـــــــاجِ [2]

إذْ لا تُرَجِّي سُلَيْمَى أنْ يكونَ لها مَنْ بالخورْنَقِ من قيْنٍ ونَسَّـــاجِ

وتدلّ صناعة النسّاج على ما اتّصف به من مهارة وإتقان، حتّى نهض بصناعة شــقائق مُحْكمة الصُّنع لم تُفَرّق، يبدو هذا في قول ربيعة بن الكَوْدن أخي بني حُنيف بن تمــيم الهذلي[3]:

فَمرْقَبةٍ يا أُمِّ عَمرو يَخَافُهـــــا الجبَانُ المَدَنَيُّ ذاتِ رَيْدٍ مُذَلَّــقِ

يَظلُّ بِها غاوِي السَّحابِ كأنّـــهُ شَقائِقُ نَسَّاجٍ مَعاً لَمْ تُفَـــــــرَّقِ

وكانت المرأة العربية تُتقن حرفة النّسيج والحياكة، وبخاصة نسْج الحصير الذي يحتاجه البيت، يقول زهير بن أبي سلمى[4]:

مرجَ الدِّينُ فأعْدَدْتُ لَـــــــهُ مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبوكَ الثَّبَـــجْ [5]

يَرْهَبُ السَّوْطَ سَريعاً فَـــــإذا وَنَتِ الخَيلُ مِنَ الشَّرِّ مَعَـــــــجْ

وقال ابن مقبل مشيراً إلى امتهان النساء حرفة الحياكة والنسيج[6]:

تَرَى قَصِرَ المُرَّانِ تهْوِي كأنّهــا تَدَرُّعُ خِرْصَانٍ بأيْدي الشَّواطِــبِ

---

[1] ديوان عمرو بن كلثوم: ٢٩-٣٠.

[2] الخَبْت: المُطمئن من الأرض.

[3] شرح أشعار الهذليين: ٦٥٦/٢.

[4] ديوان زهير: ٢٥٨.

[5] مَرِجَ: اختلط، والدّين: الطاعة، والحارك: النسيج، والثبجْ: الوسط.

[6] ديوان ابن مقبل: ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتظهر صناعة الحياكة والنسيج أكثر وضوحاً في الملابس التي تبدو الحاجة إليها مُلّحة، ولمّا كانت هذه الحرفة قد عُرفت وتطوّرت في البيئات العربية، فإنّ الملابس التي اعتمدت على هذه الحرفة، تعدّدت أنواعها، وبخاصة في بلاد اليمن التي أنتجت أنواعاً كثيرة من الأقمشة والثياب ووصلت إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية[1].

وسَلف الحديث في الفصل السابق عن أنواع الملابس، لا سيّما ما اعتمد منها على حرفة الحياكة والنسيج؛ ولهذا لن يُشار إلى الملابس التي تعتمد على هذه الحرفة، وإنّما سيُشار إلى أنواع أخرى من مقتنيات البيت ومستلزماته مما اعتمد على حرفة النسيج، والتي تكرّرت صورتها في الشعر الجاهلي، وهذا يعني أنّ هذه الحرفة لم تكن مقتصرة على حياكة الملابس.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المواد الأولية التي تحتاج إليها هذه الحرفة قد توافرت في بعض البيئات العربية، فضلاً عمّا كان يُجلب من البلاد المجاورة، فالصوف وشَعَر الماعز مثلاً مادتان أوليتان توافرتا في البيئة العربية تحتاج إليهما هذه الحرفة التي تعتمد على غزل الصوف وإعداد شَعَر الماعز للحياكة، وهذا يدلّ على أنّ العرب استغلّوا وفرة هذه المواد فمارسوا هذه الصناعة، وجوّد الحائك والنسّاج في كل ما أنتجه من ملابس وخِيام وبُسُط وعباءات وغير ذلك.

ولم يكتفِ النسّاجون بالصّوف والشّعر في صناعتهم، بل استعملوا الحرير بأنواعه، والكتّان الذي كانت تُصنع منه أفخر أنواع الملابس، ويشير سُويد بن كاهل اليشكري إلى نسيج الكتّان بقوله[2]:

أبَا جُبَيعةَ لا تَعَجلْ بِسَيّئَـــــــةٍ إلى ابْن عَمِّك واذْكرهُ بإحْسَـــــانِ
أمَا تَراني وأثْوابِي مُقاربَـــــــةً لَيْسَتْ بِخَزٍّ ولا مِنْ نَسْجِ كِتّـــــانِ

[1] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٢٤/٧.

[2] ديوان سويد: ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن القول أنّ نسيج الحصير والبُسط، والأنماط من أكثر أنــواع المنســوجات التي برع فيها النسّاجون، ولهذا جاءت صورتها جليّة في الشــعر الجــاهلي، فالنابغــة الذبياني يشير إلى صناعة الحصير المُنمّق، والبساط الذي أحكمته يد الصــانع، وهــذا النوع من منتوجاتهم كان من جملة ما يتمّ الاتِّجار به. يتّضح هذا في قوله[١]:

كأنّ مَجَرَّ الرَّمِساتِ ذُيُولهـــــا عَليهِ حَصِيرٌ نمّقَتهُ الصّوانِـــــعُ

على ظَهرِ مبناةٍ جديدٍ سُيُورُهــا يطُوفُ بها وسْطَ اللّطيمةِ بائِـــعُ [٢]

وغالباً ما شبّه الشعراء الطريق الواضع البيّن بالحصير المُوصل الذي صــنعته أيــدي النساء الماهرات، يقول كعب بن زهير[٣]:

ولاَحِبٍ كَحَصيرِ الرّاملاتِ تُرى مِنَ المَطيِّ على حَافَاتِه جِيْفَـــــا [٤]

ويظهر أنّ صناعة الحصير كانت على قدرٍ من اهتمام الرّوامل، وهُــنَّ النســاء اللواتي يعملنَ الحَصير في الجاهلية؛ لأنّ الشعراء جعلوا منها ماد ة للصورة الشــعرية، ومن ذلك ما جاء في قول المُزرِّد أخي الشمّاخ يتحدّث عن الخيل[٥]:

إذا الخيلُ من غِبٍّ الوَجيفِ رَأيتُها وأعْيُنها مثلُ القِلاتِ حَواجِـــــلُ [٦]

وقَلْقَلْتُهُ حتّى كأنّ ضُلُوعَـــــــهُ سَفيفُ حَصِيرٍ فرّجَتْهُ الرَّوامِـــلُ

وفي حديث عبدة بن الطّبيب عن ديار محبوبته مُليك تظهــر صــورة القضــيم، وهــو الحصير المُحْكم الصّنع الذي نسجته أيدي النساء اللواتي حرصن على تزيينــه، يقول فيه[٧]:

---

[١] ديوان النابغة الذبياني: ١٩٢-١٩٣.

[٢] المَبناة: النّطع، وهو بِساط من أدَم سُميّ مَبْناة لأنهم كانوا يَبْنون القِباب من قطع الأدم.

[٣] ديوان كعب: ٧٣، وانظر حول هذا المعنى المصدر نفسه: ٩٢، والأصمعيات: ٢٥.

[٤] اللاحِب: الطريق البيّن.

[٥] المفضليات: ٩٦.

[٦] الوجيف: سَيْر شديد دون العَدْو، والقلات: جمع قَلْت وهي نُقرٌ تكون في الجبل تجتمع فيها الماء.

[٧] ديوان عبدة بن الطبيب: ٥٣، والبيتان في ديوان علقمة الفحل (١٢٨) مع اختلاف بسيط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذَكَّرنِيها بَعدّ مَا قَد نسِيتُهـــــــا دِيارٌ عَليها وابِلٌ مُتبعِّـــــــــقُ
بأكْنَافِ شَمّاتٍ كأنّ رُسُومَهـــــا قَضِيمُ صنَاعٍ في أدِيمٍ مُنَمَّـــــقُ

وثمّة أنواعٌ من الحُصُر كانت تنسج من سعف النخيل، تؤخذ مادته الأولية من لِيطه، وقد راجَ هذا النوع في بلاد اليمن، ومما جاء فيه قول عبدة بن الطبيب[1]:

إذَا تجاهَرَ سَيرُ القَوْمِ في شَـــرَكٍ كأنّهُ شَطَبٌ بالسَّرْوِ مَرْمُـــولُ [2]

وظهرت صورة المرأة النسّاجة في الشعر الجاهلي، فهـــي التـــي كانـــت تنمّـــق الحَصير وتزيّنه، ولهذا أشار المسيّب بن علس إلى أنها كانت تتّصف بالسرعة في إنجاز عملها إلى جانب الإتقان وبخاصة في نسيج الثياب، يقول[3]:

مَرحَتْ يَدَاها لِلتَّجاءِ كأنّهـــــــا تَكْرُو بِكَفّيْ لاعِبٍ في صَـــــــاعِ
فِعْلَ السَّرِيْعَةِ بادَرت جُدّادهـــا قبلَ المسَاءَ تَهُمُّ بالإسْـــــــــراعِ

وصنع النسّاجون ضرباً من البُسط تُسمّى الأنْماط بلغت درجة كبيرة من الجـــودة والإتقان، إذ كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على مادة الصوف التي تصلح لصناعة البســـط والسجاد، وقد عُرِف في الجزيرة العربية نوع من الصوف الخشن يلائم هذا الضرب من الصناعات.

وتشير الدراسات إلى صناعة البسط في بلاد العراق، يقول الدكتور عبد العزيـــز الدوري: "تعود صناعة البُسط في العراق إلى العصر البابلي، ولا تزال موجـــودة إلـــى الآن، وقد ساعدت ظروف الحياة الرعوية بصورة خاصة على ظهور هذه الصـــناعة، وكان الصوف أهم المواد في صناعة البُسط والسجّاد"[4].

---

[1] ديوان عبدة بن الطبيب: ٦١.

[2] الشّرك: الطريق المنقاد.

[3] شعر المُسيّب: ١١٣-١١٤.

[4] تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، عبد العزيز الـــدوري، ط٢، دار المشـــرق، بيـــروت، ١٩٧٤: ١٠٥. وانظر: الصناعات والحِرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٤٥-٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوافر الصوف بكثرة في جزيرة العرب بِحُكم طبيعة الحياة المعتمدة على تربية الضأن والماعز، ولهذا اشتهرت في بيئتهم صناعة البسط الذي اشترك فيها الرجل والمرأة معاً.

وورد في الشعر الجاهلي الحديث عن هذا الضرب من المنسوجات، ومن ذلك قول عدي بن زيد يتحدّث عن الأمم السابقة مشيراً إلى الأنماط والأسرّة[1]:

سَلَكُوا مَنهَجَ المنَايَا فبَادُوا وَأَرَانا قَدْ كَانَ مِنَّا وَرُودُ

بَيْنما هُمْ على الأسِرَّةِ والأنْمَـ ـطِ أفْضَتْ إلى التُّرابِ الخُدودِ

وورد ذكر الأنماط في شعر عدي إلى جانب حديثه عن الخَزَ والدِّيباج، ممّا يوحي بقيمة البسط وجودتها وغلاء ثمنها، يبدو ذلك في حديثه عن النساء المُرفّهات الناعمات، يقول[2]:

آنِسَاتُ الحَديثِ في غيْرِ فُحْشٍ رافِعاتٌ جوانِبَ الفِسْطَاطِ

ثَانِياتٌ قَطائِفَ الخَدِّ والدِّيْـ ـبَاجِ فَوقَ الخُدورِ والأنْمَاطِ [3]

وأشار عمرو بن الأهْتَم المنقري إلى البسط، فذكرها مع المجاسد والحرير، دَلالة على الرُّقي في صِناعتها وجَوْدتها، قال[4]:

ولاعَبَني على الأنْماطِ لُعْسٌ عَليهنَّ المجَاسِدُ والحَريرُ

ويظهر أنّ الأنماط كانت تُزَيَّن بالنُّقوش، وإلى هذا يشير المتنخل الهذلي[5]:

عَرَفْتُ بأجْدُثٍ فَنِعافِ عِرْقٍ عَلامَاتٍ كَتَجِير النّمَاطِ

---

[1] ديوان عدي بن زيد: ١٢٢.

[2] نفسه: ١٣٨.

[3] القَطائِف: جمع قَطِيْفَة وهو دِثار مُخْمل، الدّيباج: فارسي معرّب أصله (دِيُوباق).

[4] المفضليات: ٤١١.

[5] شرح أشعار الهذليين: ١٢٦٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة أنواع من النّمارِق كانت من منتوجات الحائك والنّسّاج ظهرت إلى جانب ضرب من البسط يسمّى القِطْع، يتجلّى هذا في قول الأعشى يتحدّث عن الناقة[1]:

هِيَ الصّاحِبُ الأدْنَى وبَيْني وبَيْنها مَجُوفٌ عِلافِيٌّ وقِطْعٌ ونُمْـــرُقُ [2]

وتشير الدراسات إلى أنّ الحيرة من أكثر البلاد التي اشتهرت بنوع من الأنماط التي تُزين بها الرِّحال، فهناك ضربٍ من البسط يُصنْع من الصوف يُطْرح على الهَوْدج، ثمّ إنّ الصورة الحضارية تتجلى بوضوح في كل ما تتعرض له هذه البسط من نقوش وأصباغ، فقد أشار العلماء إلى نوع من البسط عُرِف باسم العَبْقري نسبة إلى عَبْقَرة موضع باليمن أو بالجزيرة، تُوشَّى فيه الثياب والبسط، وبهذا تكون صناعة النسيج من أهم الصناعات في اليمن، فقد ظلّت محتفظة بمكانتها كأكبر مصدّر للبُرود الغالية حتى القرن الرابع الهجري[3].

ويتّضح في ضوء ما سبق أنّ صناعة الحياكة والنسيج كانت على درجة كبيرة من الجودة والإتقان، ممّا يوحي بأنّ الحاكة والنساجون كانوا يستعينون بأدوات خاصة للقيام بهذه الصناعة، كما أنّ هذه الأدوات تدلّ على مظهر حضاري مادي، يتجلّى منذ بدء عملية الحياكة والنسيج بعد أن يتم تجهيز الفِتال أو السِّلْك والخيوط من الغزل، وهو ما يُشكّل المادة الأساسية للحياكة، وقد ورد في الشعر ذكر فَلكة الغَزْل التي يحتاج إليها النّسّاج، وفيها يقول عُتيبة بن مِرْداس[4]:

---

[1] ديوان الأعشى: ٢٢١.

[2] المَجُوف: العظيم الجوف، والعِلافِيّ: الرجل العظيم.

[3] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٢٨/٧، وانظر: تاريخ العرب في العصر الجاهلي، عبد العزيز سالم، دار النهضة، ١٩٧٠: ١٢٠.

[4] الاختيارين: ٣٧٦، ، وانظر في هذا المعنى: شرح أشعار الهذليين: ٨٦٥/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذَا هِيَ هَمّتْ بالخُروجِ يَصُدُّهـــا عَن القَصيدِ مِصراعاً مُنيفٍ مُجَيَّـرِ

تُطالعُ أهلَ السُّوقِ والبابُ دُونهـا بمُستَفْلكِ الذّفْرى أسِيل المُذَمَّـــرِ [1]

وأشار المُسيّب بن علس إلى مادة الطُّوط البرْديّ، الذي يحتاج إليها الحائك، فقال[2]:

مَحبُوكةٌ حُبِكت مِنها نَمانِمُهـــا من المُدَمْقِسِ أوْ مِنْ خَافِرِ الطُّـوطِ

ومن الآلات والأدوات التي كان يستعين بها الجاهليون ممـن احترفـوا مهنـة االحياكة والنسيج (الحَفُّ) وكأنّها الخشبة التي يَلُفُّ عليها الحائك الثوب أو الخيوط التي يتم بهما النسيج[3].

ومن هذه الأدوات (الوَشِيعة) وهي المَنْسج قَصَبة في طرفها يُدخل الغَـزْل فـي جوفها وتسمّى السّهم، واستخدم النساجون المَشْيَعة التي يُلَف عليها الغزل، والثِّناية التي يُثْنى عليها الثوب أو ما يتم نسجه من الملابس والأنماط والبسط، ثمّ استعانوا بالنِّير وهي خشبة معترضة يُضَاعف فيها النسيج، كما استعانوا بالصّنارة التي يبـدأ منهـا خـيط النسيج، والدعائم التي يُنْصب ويمدّ عليها ما يتم نسجه، ثمّ هناك الصَّياصي، والصَّيْصَة عبارة عن شوكة الحائك التي يُسوّى به السَّداة واللُّحْمة، وأداة الحائك المَنْصـوبة التـي تُسمى المنوال[4].

وهناك أدوات أخرى كلّها تدلّ على أهمية هذا النوع من الصناعات التـي تُعـدّ مـن ضروريات الحياة العربية في ذلك العصر، وهو ما ذهب إليه ابن خلـدون عنـد حديثه عن هذه الصناعة.

---

[1] بمستفلك الذفري: برأس ذفراه مثل الفلكة، وهي فلكة الغزل. والمُذمّر: ملتقى اللحيين.

[2] شعر المسيب بن علس: ٣٠٣.

[3] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٤٠٤/٣، ولسان العرب: مادة (حفَّ).

[4] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٤٠٥/٣-٤٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واهتم الشعراء الجاهليون بذكر آلات الحياكة والنسيج، فقد جاء ذكر الصَّياصي في شعر دُريد بن الصِّمة يبدو هذا في قوله يتحدث عن نصرته لأخيه[1]:

فَجِئتُ إليهِ والرِّماحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّياصِي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ

ووردت هذه الآلة في قول الحطيئة يصف صرير أنياب الناقة[2]:

وَإنْ ضُرِبَتْ بالسّوْطِ صَرَّتْ بِنَابِها صَريرَ الصّياصي في النّسيجِ المُمدَّدِ

واستعان النّسّاج بالمنَاصِح وهي الإبر التي تُوضع فيها الخيوط أو الصّنارة، وهي أداة يحتاج إليها الخيّاط كذلك، وقد جاء ذكرها في قول كعب بن زهير[3]:

مُمرًّاً كعَقْدِ الأنْدَرِيِّ مُدَمَّجاً بَدَا قَارِحٌ مِنهُ ولم يَبْدُ قَارِحُ

كأنَّ عَليهِ من قَباءٍ بِطانَةً تُفرِّجُ عنها جَيْبُها والمنَاصِحُ

واستخدم النسّاج أيضاً المغازل لغزل الصوف قبل نسْجه، ورد ذكرها في قول عوف ابن عطية بن الخِرَع التَّيمِي[4]:

أتأكُلُ أشْبَاهُ المَغازِلِ ذمَّتِي ولَمَّا تَكُنْ فِيها الرِّبَابُ عَماعِمَا

ويظهر في الشعر الجاهلي المِنْدَف ويُسمى الكِرْيال، وهو آلة تستعمل لتحضير القطن قبل أن تتم عملية نسجه، يقول طفيل الغنوي[5]:

كأنَّ سَدا قُطْنِ النَّوادِفِ خَلْفَهَا إذا اسْتَوْدَعتْهُ كلُّ قاعٍ ومِذْنَبِ

وتبدو صورة النَّوادِف في تشبيه أوس بن حجر لُغام الناقة بِمَحْلوج القطن الذي يتناثر بالمِندف، يقول[6]:

---

[1] ديوان دريد بن الصمة: ٤٨.

[2] ديوان الحطيئة: ٤٥.

[3] ديوان كعب بن زهير: ٢٣٤.

[4] الأصمعيات: ١٦٨.

[5] ديوان طفيل الغنوي: ٢٥.

[6] ديوان أوس بن حجر: ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَلا رَأسُها بَعْدَ الهِبابِ وسَامَحَتْ كَمَحلُوجِ قُطْنٍ ترْتَمِيــه النَّـــوادِفُ

والمِنْدف آلة تختص بمَادة القطن دون غيرها، يتمّ بها تجهيز المادة المُعدّة للنّسج.

وترد في الشعر الجاهلي صورة المَطَارِق التي يتمّ بها ضرب الصوف والقطن، حتى يصبح ليّناً يستطيع النسّاج التعامل معه ونسجه بصورة مُتْقنة، تتجلّى هذه الصورة في قول أوس بن حجر[١]:

تُنْفُونَ عَن طُرُقِ الكِرامِ كَمـــــا تَنْفِي المطَارِقُ ما يَلِي القَـــــرَدُ

وترد هذه الأدوات في الشعر الجاهلي بأسماء متنوعة على الرغم من أنها تـــدل علـــى معنى واحد، فالكِرْبال على سبيل المثال هو آلة المِندف والمِخبص[٢]، وكذلك المنوال آلة الحائك وهي الخشبة التي يُلف عليه الثوب، يقول امرؤ القيس[٣]:

بعَجْلزةٍ قد اتَّرَزَ الجَرْيُ لَحْمَهـــا كُمَيْتٍ كأنّها هِراوَةُ مِنْـــــوالِ [٤]

يمكن في ضوء ما مرّ عن هذا النوع من الحِرف تَبيّن الصورة الحضارية المادية بوضوح، وتتأتّى هذه الصورة في جوانب مختلفة تتعلّق بهذه الحرفة، وبخاصـــة فيمـــا صنعته أيدي الرجال والرّاملات من أنواع الثياب والبُسط والحَصير، فضلاً عن الآلات التي كان يستخدمها الحاكة والنسّاجون والتي من خلالها برع العرب في العصر الجاهلي في إتقان هذه لحرفة، ودلّ على ذلك شهرة الملابس والبُسط، حتى انتشـــرت تجارتهـــا داخل الجزيرة العربية وخارجها.

---

[١] ديوان أوس بن حجر: ٢٢.

[٢] انظر على سبيل المثال: ديوان ابن مقبل: ٣٩٧.

[٣] ديوان امرئ القيس: ٢٧.

[٤] العَجْلَزة: الفرس قوية اللّحم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: صناعة الأسلحة وآلات الحرب:

نشأ العرب في العصر الجاهلي في بيئة احتدمت فيها المنازعات والحروب القبلية والفردية، وهي بيئة فرضت عليهم أنّ الوجود للأقوى؛ ولهذا فإنّ الصراع من أجل البقاء وإثبات الذات أمر كان يَشغل العربي آنذاك.

واستجابة لمثل هذه الظروف التي سادت بيئتهم العربية، فإنّ صناعة الأسلحة وآلات الحرب كانت على درجة كبيرة من الأهمية، حتى تجلّى فيها الجانب الحضاري المادي المتمثل في طريقة الصنع والإتقان لأنواع الأسلحة وأشكالها، زيادة على حرص العرب على اقتناء أجود أنواع الأسلحة والحصول عليها من البلاد الأخرى.

واعتزّ العرب بما حازوه من سلاح ومعدات حربية؛ لأنها في الحقيقة تحمل دَلالة هامة غير الدلالة الحضارية، فهي تعبّر عن أنفتهم وعزّتهم، فالفروسية التي تحدث عنها الشعراء كثيراً قوامها السلاح، فليس من المستغرب أن يهتمّ العرب بهذا الجانب المهم الذي رأوْا فيه إثباتاً لوجودهم، ورفعَة لمكانتهم، وتحقيقاً لعزّتهم وهيبتهم، ومما يدلّ على ذلك أنهم يفخرون بها إلى جانب فخرهم بصفات الحِلْم والكرم، يبدو هذا في قول دُريد ابن الصِّمة[1]:

أعَاذِلُ عُدَّتي بَدني ورُمْحِي ... وكُلُّ مُقلَّصٍ شَكِسِ القِيَادِ

ويَبْقَى بَعدَ حِلْم القَوْمِ حِلْمِي ... ويَفْنَى قَبلَ زَادِ القَومِ زَادِي

وبلغ من اعتزاز العرب بالسلاح أنّهم كانوا يفخرون بنسبته كما يفخرون بأنساب خيلهم، يقول حُسيل بن سَجيح الضبّي[2]:

وبَيْضاءَ من نَسْجِ ابن دَاود نثْرَةٍ ... تَخيرْتُها يومَ اللِّقَاء المَلابِسا

وَجِرْميّةٍ مَنسوبةٍ وسَلاجَمٍ ... خِفافٍ تَرى عَنْ حَدِّها السُّمَّ قَالِسَا

---

[1] ديوان دريد بن الصمة: ٦٠.

[2] شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام: ٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولهذه المنزلة الرفيعة للسلاح اهتمّ العرب بصناعة أنواع كثيرة من آلات الحرب، وقد بدت الصورة الحضارية في طريقة تحضير مادتها وصنعها، ومن أهم هذه الأنواع التي تحدّث عنها الشعراء:

- **الرِّماح:** صُنعت الرماح من الأخشاب التي كانت تؤخذ من أشجار الوَشيج والمُرّان عرفتها البيئة العربية في العصر الجاهلي، أمّا أسنّتها فقد نهض بصناعتها القيُّون، وتحدّث الشعراء عن الرماح، إذ استحسنوا منها ما كان سِنانها صافياً لامِعاً، ماضياً، مصقولاً، كما ذهبوا إلى أنّ أجود قوائم الرماح ما كان أصمّ غير أجوف، مُطّرداً، معتدلاً ليس به اعوجاج، أمْلَسَ يضطرب عند اهتزازه، أمّا طول الرمح فأجوده ما كان متوسطاً في الطول[1]. هذه الصفات وغيرها للرمح تدلّ على إتقان في الصُّنع، وعناية كبيرة في إخراجه على أكمل صورة.

وورد في الشعر الجاهلي أنواع كثيرة للرماح من أهمّها الرِّماح الخَطّية، وسُميت بذلك نسبة إلى خَطٍّ اسم أرض، قال الأصمعي: لا أعلم إلامَ نسبة الخط وهي جزيرة بالبحرين إليها تُنْسب الرماح إلاّ أن يُقال إنّ سُفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية[2].

ويبدو أنّ الخلاف قائم حول موضع الخَطِّ إن كان خطَّ عُمان أو خَطّ هجر، أو خط اليَمامة، فقد جاء في اللسان: "الخط أرض تُنْسب إليها الرماح الخطية؛ قيل وهو خط عُمان، قال أبو منصور: وذلك السّيفُ كله يُسمى الخط؛ ومن قرى الخط: القَطيف والعُقَير وقَطر. قال ابن سيدة: والخط سِيف البحرين وعُمان. وقيل بل كان سِيفٌ خَط. وقيل: الخط مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح، وليست الخط بمنبت للرماح، ولكنها مرفأ السفن التي تحمل المِسْك من الهند، قال أبو حنيفة: الخَطُّ خَطُّ البحرين، ترفأ

---

[1] شعر الحرب في العصر الجاهلي: علي الجندي، ط٣، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦: ٤٢.

[2] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٦٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السفن إذا جاءت من أرض الهند، وليس الخَطِّي الذي هو الرماح من نبات أرض العرب، وقال الجوهري: إنّ الخط موضع باليمامة، وهو خط هجر تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تُحمل من بلاد الهند فتقوم به"[1].

يمكن أن يُستنتج من ذلك، أنّ هذه الرماح نُسِبت إلى الموضع الذي كانت ترفأ فيه السفن على الشاطئ العربي لخليج فارس. وهذا يعني أنها تأتي إلى البيئة العربية من الخارج إلى جانب ما كان يصل إلى البيئة العربية عن طريق التجارة مع الأمم الأخرى.

ويَرد ذكر الرماح الخطية في الشعر الجاهلي كثيراً، ومن ذلك قول أمية بن أبي الصَّلْت يتحدّث عن الرماح الخطية والسيوف[2]:

وخَطِيًّا كَأَشْطَان الرِّكابا وَأَسْيافاً يَقُمْنَ ويَنْحنِينَا

وترد صورة الرماح الخَطِّية إلى جانب الدِّرع الدّقيقة النّسج والسّيف القاطع، في كقول عامر بن الطُّفيل[3]:

فَما أدْركَ الأُتارَ مِثْلُ مُحقَّقٍ بأجْرَدَ كالعَسيبِ المُشَذَّبِ

وأسْمَرَ خَطِّيٍّ وأبيضَ بَاتِرٍ وَزَعْفٍ دِلاصٍ كالغَديرِ المُثَوَّبِ

ويبدو أنّ أجود الرماح الخطية ما كانت ليِّنة تضطرب عند الهزّ، يظهر هذا الوصف في قول عنترة[4]:

---

[1] لسان العرب: مادة (خط)، وانظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢، ٢٣٢/٢، وانظر: شعر الحرب في العصر الجاهلي: على الجندي: ١٤٥-١٤٦

[2] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٥٠٧، وانظر الأغاني: ٢١٢/١٣.

[3] ديوان عامر بن الطفيل: ٢٧-٢٨.

[4] ديوان عنترة: ٢٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكَانَ إجَابَتِي إيَّاهُ أنِّـــــــــي عَطَفْتُ عليه خَوّارَ العِنَـــــــانِ

بِأسْمَرَ مِنْ رِمَاحِ الخطِّ لَـــــدْنٍ وَأبْيضَ صَارمٍ ذَكَرٍ يَمانِـــــــي

أمّا الرماح الرُّدينية فهي منسوبة إلى امرأة يقال لها رُدْينة كانت تعمل الرماح[1].

وذهب ياقوت الحموي إلى أنّ "رُدَينة جزيرة ترفأ إليها السفن، ويقـال: رُدَيْنـة امرأة والرِّماح منسوبة إليها، ويقال: رُدينة قرية تكون بها الرماح، ويقال: رجـل كـان يُثقِّف الرِّماح، وقال أبو زياد: رُدَيْنة كُورة تُعمل بها الرماح"[2].

والراجح أنّ رُدَينة هي امرأة كانت تصنع الرماح مع زوجها بِخَطِّ هجر[3].

ومن الملاحظ أنّ أسماء الرماح ارتبطت بالأماكن التي صُنِعت فيهـا، وارتـبط بعضها الآخر بأسماء الأشخاص الذين نهضوا بصناعتها، ومن ذلك الرماح الرُديْنيـة، فهي منسوبة إلى المرأة التي نهضت بصناعتها، ومن ذلك قول ابن مقبل[4]:

وقَوْمٌ بأيْديهِمْ رِماحٌ رُديْنَـــــــةٍ شَوارِعُ تَسْتَأنِي دَماً أوْ تُسلَّـــــفُ

وقال أيضاً[5]:

أوْ كَاهْتِزازِ رُديْنيٍّ تَداولَـــــــهُ أيْدِي التّجارِ فَزَادُوا متْنَهُ لِينَـــــا

وأشار عُمَيرة بن جَعْل بن مالك بن الحارث إلى سِنان الرمح الرُّدينـي مُشـبهاً صفاءه بصفاء سنا النَّار، فقال[6]:

جَمَعْتُ رُديْنِيًّا كأنَّ سِنَانَـــــــهُ سَنا لَهَبٍ لم يَسْتعِنْ بِدُخـــــــانِ

---

[1] بلوغ الأرب: ٦٤/٢.

[2] معجم البلدان: ٤١/٣.

[3] انظر على سبيل المثال: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٦٤/٢.

[4] ديوان ابن مقبل: ١٩٤.

[5] المصدر نفسه: ٣٢٨.

[6] المفضليات: ٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرماح الردينية السُّمر هي أصلب أنواع الرماح، يقول الحصين بن الحِمام بن ربيعة بن وائلة، يصف اهتزاز الرماح الردينية السُّمْر[1]:

يَهُزُّنَ سُمراً من رِماحِ رُدَيْنَةٍ إذا حُرِّكَتْ بَضَّتْ عَواملُها دَمَا

ويصف حُريث بن مُحفِّض[2] التّميمي الطَّعن بالرماح الرُّدينيَّة، فيقول[3]:

فإنْ يَكُ طعنٌ بالرُّدَيْنيِّ يطْعنُوا وإنْ يَكُ ضربٌ بالمنَاصِلِ يَضْربوا

وتجدر الإشارة إلى أنّ صورة الرماح الرُّدينية التي تضطرب عند هزّها تتّصف بالصّلابة، لهذا تُعدّ من أجود الرماح وأكثرها وروداً في الشعر الجاهلي[4].

ومن أنواع الرماح وأسمائها السَّمْهريّة، قال ابن رشيق: "والسَّمْهري: الرمح الشديد، يقال: اسمهَرَّ الأمر، إذا اشتدَّ"[5].

وجاء في اللسان أنّ هذا النوع من الرّماح يُنْسب إلى رجل اسمه سَمْهر كان يُقوِّم الرماح، ويبدو أنه كان يبيع الرماح بالخط، وامرأته رُدَيْنة[6].

يظهر من ذلك أنّ سَمهر ورُدينة قد نَهضا بصناعة الرماح وبيعها في العصر الجاهلي، ومن هنا كثر حديث الشعراء عن الرماح السّمْهرية، ومن ذلك قول لبيد يصف حدَّ الرماح السَّمهرية[7].

فَلَحِقْنَ واعتَكَرَتْ لها مَدَرِيَّةٌ كَالسَّمْهريَة حَدُّها وتَمَامُها

---

[1] المفضليات: ٦٦.

[2] مُحَفِّض بضم الميم وفتح الحاء وكسر الفاء وتشديدها بعدها ضاض معجمة.

[3] الشعر والشعراء: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار صادق، القاهرة: ٦٤١/٢.

[4] انظر ديوان سلامة بن جندل: ١٤٧، والاختيارين: ٤٢١، وديوان الحطيئة: ١١١.

[5] العمدة: ابن رشيق: ٢٣٢/٢ .

[6] اللسان: مادة (سمهر).

[7] ديوان لبيد: ٣١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف بشر بن أبي خازم تقويم الرِّماح بالثِّقاف وهي خشبة قوية قَدر الـذِّراع كان يستخدمها صانع الرماح في تقويمها، يقول[1]:

بِحَرْجُوجٍ يَئطُّ النِّسْعُ فِيهـــــــا أطِيطَ السّمْهريَّةِ في الثِّقـــــــافِ [2]

والرّماح السَّمهرية ذات الأسنّة الصلبة، القابلة للهزّ هي من أقوى هذه الرماح، قال فيها عمرو بن معد يكرب[3]:

وإسْنادُ الأسِنّة نَحْوَ صَـــــدْري وهَزُّ السَّمهريّة والوُقُـــــــوعُ

ومن أجود الرماح نوع يقال له الآزَنِيَّة منسوبة إلى ذي يزن الملك، يُقال لهـا اليَزَنِيَّـة أيضاً[4]. ويمكن أن تكون اليزنية الأسنة نفسها، يقول أبو ذؤيب الهذلي[5]:

وكِلاهُما في كَفِّهِ يَزَنيَّـــــــةٌ فِيها سِنَانٌ كالمنَارَةِ أصْلَـــــــعُ

وترد في الشعر الجاهلي صورة الرماح الزّاعِبيّة، ويقال إنها منسوبة إلى رجل يُسـمّى زَاعِباً أو أنها تُنسب إلى بلدٍ يحمل هذا الاسم، والزّاعبي كذلك صفة للرمح الذي إذا هُزَّ تدافع كله، يبدو هذا الوصف في قول ابن مقبل[6]:

والزّاعِبيّةِ رُذَّمَاً أطرافُهـــــــا والخيْلِ قَدْ طُوِيَتْ إلى الأصْـــلابِ

واستحسن الشعراء الرمح المَارِن، وهو ما كان ليّناً اتّصفت قناته بالأستواء، جاء ذكـره في قول عِيَاض بن كَثير الضّبي[7]:

مَعي مَارِنٌ في الكَفِّ لَدْنٌ كُعُوبُـه وأبْيضُ قاضٍ في الضّريْبَةِ مِخْفَـقُ

---

[1] ديوان بشر: ١٤٥.

[2] الحَرْجُوج: النَّاقة الشديدة.

[3] الاختيارين: ٣٦٩.

[4] بلوغ الأرب: ٦٤/٢.

[5] شرح أشعار الهذليين: ٣٩/١.

[6] ديوان ابن مقبل: ٥.

[7] شعر ضبة وأخبارها: ١٨٢. والشاعر هو عباض بن كثير بن جابر، أحد بني عيض بـن السـيد، شـاعر مخضرم، انظر: معجم الشعراء، المرزباني: ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب الجاحظ إلى أنّ رماح العرب كانت على طبقات مما يؤكّد عنايتهم بصنعها، يقول[1]: "وأمّا ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهّمون، للرماح طبقات: فمنها النّيزك[2]، ومنها المَرْبوع[3]، ومنها المَخْمُوس، ومنها التّام، ومنها الخَطْل، وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طوله".

- السُّيوف:

تعدّ السيوف من أشهر آلات الحرب عند العرب وأكثرها استعمالاً، وهي من المصنوعات الحديدية، وخيرها عندهم ما كان مصنوعاً من خالص الحديد خالياً من العيوب، ويقال بأنّ أول من عمل الحديد واهتمّ بهذه الصناعة من العرب الهَالِكُ بن عمرو بن أسد بن خُزَيْمة[4].

وتظهر الصورة الحضارية المادية في الطريقة التي تتمّ بها صناعة السيف لحظة تجهيز مادّته المتمثلة في الحديد النَّقي والفولاذ، وبعض المعادن الأخرى، وتحدّث الشعراء عن الصانع الذي يُشرف على صُنع حدّ السيف، وجلاء شفرته ليكون ماضياً حاداً، يظهر تلألؤه عند استلاله من غمده، ومن ذلك قول ابن مقبل يتحدّث عن الحدّاد الذي يشرف على جلائه وقد عرف بالصَّيْقل[5]:

عَرَضْتُ لَهَا السَّيفَ عن قُدْرَةٍ وَمَا أَحْدَثَ القَيْنُ فيه صِقَالا

وثمّة نوع من السيوف الحادة التي تُصنع من ذَكَر الحديد، وهو أيبس الحديد وأشدّه وأجوده، ويبدو هذا النوع في قول بشر بن أبي خازم[6]:

---

[1] البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت: ٣٤/٣.

[2] النّيزك: الرمح القصير: فارسي معرب.

[3] المَرْبُوع: الذي طوله أربعة أذرع.

[4] بلوغ الأرب: ٦٢/٢.

[5] ديوان ابن مقبل: ٢٣٣.

[6] ديوان بشر: ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَمَوْنَا لابْنِ أُمِّ قِطامِ حتّـــــــى علَوْنَا رَأسَه البِيضَ الذُّكُـــــــورا

وأشار زهير بن أبي سُلمى إلى صناعة السيف الهُنْدواني الـذي أخصـلته يـد الصَّيقل، فقال[1]:

بِرَجْمٍ كَوقعِ الهُندواني أخلَص الصَّـ ياقِلُ منهُ عن حَصيرٍ ورَوْنَـــــقِ

إذا قادَنا مِنْ الضَّريبةِ لم يَخِـــــــمْ يُقطِّعُ أوْصَالَ الرّجالِ ويَنْتَقِـــــي

وتبدو صورة أخرى في صناعة السيف في قول الأعشى يذكر الصَّقَيل والأداة التي يتم فيها جَلْي السيف[2]:

وإلاّ كُلَّ ذي شُطَبٍ صَقِيـــــلٍ يُقَدُّ إذا عَلا العُنقَ الجِرانَـــــــا [3]

أكَبَّ عليه مِصْقلتَيْهِ يَوْمَـــــــاً أبُو عَجْلان يَشْحذُه فَتَانَـــــــــا

فظَلَّ عليه يَرْشحُ عَارِضـــــــاهُ يَحُدُّ الشَّفرتَينِ فَمـــــــا ألانَـــا

وبلغ من اهتمام العرب بصناعة السيوف أنهم استخدموا المعادن الثمينـة كالـدُّر والذهب في صناعة غمد السيف، وإلى هذا أشار علقمة الفحل بقوله[4]:

وَقَدْ أقطَعَ الخَرْقَ المَخُوفَ بهِ الرَّدى بِعَنْسٍ كَجَفْنِ الفَارِسيّ المُسَـــرَّدِ

ولمكانة السيوف عند العرب في العصر الجاهلي اهتمّوا بصـناعتها وحرصـوا على اقتناء أجودها، ولهذا تعدّدت أسماؤها التي ارتبطت بالأماكن التي كانت تُصنع فيها، واقترن بعضها الآخر باسم القين الذي نهض بصناعتها[5].

---

[1] ديوان زهير: ١٧٩.

[2] ديوان الأعشى: ١٨٧.

[3] الجران: مُقدّم العنق، والشطبة: طريقة السَّيف في تَموُّجه.

[4] ديوان علقمة: ١٢٢.

[5] بلوغ الأرب: ٦٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أشهر تلك السيوف المشرفية المنسوبة إلى المَشارِف. وقيل: هي قرى من أرض اليمن[1]. وذهب المُبرِّد إلى أنّ المَشارف هي الموضع المُلقّب بمؤتة الذي قُتِل به جعفر بن أبي طالب وأصحابه[2].

ويبدو أنّ هذه السيوف قد عُرِفَت بجودتها وشدّة سطوها وقدرتها على القطع، يقول سلامة بن جندل[3]:

كأنَّ اختِلاءَ المشرفيِّ رؤوسَهُمُ هَوِيُّ جَنُوبٍ في يَبيسٍ مُحَرَّقِ

وهي تشفي الغليل وتشرب من دماء الأعداء، فتروى منها، يقول طُفَيل بن عوف[4]:

تُرَوِّي صُدورَ المشرفيّة مِنْهُمُ وكُلَّ شُراعِيٍّ، من الهِنْدِ شَرْعَبِ

وترد السيوف المشرفيّة إلى جانب الرمح في قول عنترة يصف شدّة بأسهم على الأعداء، يكرّون في نحورهم السيوف المَشرفّية والرماح الصلبة القوية[5]:

فَظَلْنَا نُكِرُّ المَشْرفيّة فيهُمُ وخُرْصانَ لَدْنِ السّمْهريِّ المُثَقَّفِ [6]

ومن أكثر أنواع السيوف التي تحدّث عنها الشعراء الهندية نسبة إلى الهند، مما يوحي بأنّ مثل هذه السيوف كانت تُجلب من الهند بدليل العلاقات التجارية بين العرب في شبه الجزيرة والهند، ومن هنا تكرّرت صورة السيف الهندي والهِنْداوي والمهنّد، ومن ذلك قول المثقب العبدي يشير إلى السيف الهِندواني المُحْكم الصنعة المطروق ببلاد الهند[7]:

---

[1] معجم البلدان: ١٣٢/٥.

[2] الكامل في اللغة والأدب، المُبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمد أحمد الدالي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣: ١٢٦/٣.

[3] ديوان سلامة بن جندل: ١٠٩.

[4] الاختيارين: ٤٠.

[5] ديوان عنترة: ٢٣٠.

[6] فُسّرت المَشرفيّة في قول عنترة بأنّها قد تكون منسوبة إلى مُشرف، وهو جاهلي منسوب إلى ثقيف.

[7] ديوان المثقب: ٢٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنْجِبْ بهِ مِن آلِ نَصْرٍ سُمَيْـدَعٍ أغَرَّ كَلَوْنِ الهِنْدُوانِي رَوْنَـــــقُ

والقُضبُ الهندية يُجعل في مقابضها القَصَب، تُقوَّم بطريقة مُحكمة، يصفها زهير ابن مسعود الضبّي بقوله[1]:

وقُضُبُ الهِنْديِّ مَجْلُـــــــوزَةٌ قَدْ قُوِّمت مِنْها الأنَابيـــــــــبُ

واتّصفت السيوف الهندية بقدرتها على الضرب والقطع، يبدو هـذا فـي قـول المُمزّق العبدي[2]:

يَؤُمُّ بهنَّ الحَزْمَ خِرْقٌ سَمَيْـــدعٌ أحزُّ كَصَدْرِ الهُنْدُوانيّ مِخْفَـــقُ

وورد في الشعر الجاهلي السيوف السُّريجيّة التي تُنسب إلى سُرَيج من أسد، كان حاذقـاً في صُنعها، يصفها بُشامة بن الغدير بقوله[3]:

بِكُلِّ سُرَيْجِيٍّ جَلاَ القَيْنُ مَتْنَـــهُ رَقيقِ الحَواشِي يَتْرُكُ الجُرْحَ أنْجلا

وعُرفت سيوف بُصْرى نسبة إلى بَصرى موقع بالشّام جنـوب دمشـق، يقـول الحُصين بن الحِمام المرِّيُّ[4]:

صَفائحُ بُصرى أخْلَصتها قُيُونُهـا وَمُطّرداً من نَسْجِ داود مُبهَمَـــا

وعَرَف العرب أنواعاً أخرى من السيوف نُسبت إلى أماكن صنعها، منها السيوف اليمنية والمازنية[5]، والأريمية[6]، وفي هذا التنوّع دَلالةواضحة على اهتمام العرب بهـذا النوع من السلاح، وقد تحدّث الشعراء عن مجموعة من الصفات التـي اتّسـمت بهـا

---

[1] شعر ضبة وأخبارها: ٩٩.

[2] المفضليات: ٥٩.

[3] نفسه: ٤٠٦، وانظر: مظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي: ١٥٧.

[4] المفضليات: ٦٦، وانظر المصدر نفسه: ٣١٧، وديوان الحطيئة: ٣٣١.

[5] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٥٦/٧.

[6] شعر الحرب في العصر الجاهلي: ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيوف تدلّ في أغلبها على القوة والصلابة، وشدة الضّرب، من هذه الصفات الحُسام[١]، والإصْليت[٢]، والمأثُور[٣]، والصّارم[٤] وغيرها وهي في مجملها تدلُّ على درجة الإتقان والصُّنع.

- الدُّروع:

عُرِفت الدُّروع قديماً عند كثيرٍ من الأمم، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم، إذ جاءت الإشارة إلى نسبتها إلى داود عليه السلام، وفي هذه الإشارة دَلالة واضحة على قِدَمِها وإحكام صنعتها، فقد قال تعالى: ﴿ ولَقَد آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبالُ أَوِّبي مَعَهُ والطَّيرَ وأَلَنَّا لهُ الحَديد، أَنِ اعْمَل سابِغاتٍ وقدِّر في السَّرد واعْمَلُوا صالحاً إنِّي بما تَعملُونَ بَصير﴾[٥].

وجاءَ في اللسان أنّها لَبُوس الحديد، وهي قميص يُتَّخذُ من الزَّرْد[٦]، يستخدمها المُقاتل لتقيه ضربات السيوف ورمي السِّهام . وهذا يعني أنّها ذات أهميّة بالغة للمقاتل، ومن هنا جاء اهتمام العرب في العصر الجاهلي –عصر الحروب والمنازعات– بصناعة هذا النوع من أدوات الحرب.

ومن اللافت للانتباه، أنّ الدروع غالباً ما كانت تُنسب إلى من كان يُشرف على صناعتها، أو أنها تُنسب إلى الموضع الذي صُنِعت فيه. فهناك الدُروع الحُطَميَّة منسوبة إلى حُطَمة بن مُحارب بن عمرو بن ربيعة بن عبد القيس[٧]، والدُروع التُبَّعيّة المنسوبة

---

[١] شرح أشعار الهذليين: ٢٥٨/١.

[٢] ديوان الشنفرى: ٦٠.

[٣] نفسه: ٥٤.

[٤] ديوان لبيد: ٢٢٨.

[٥] سبأ: الآيتان ١٠-١١.

[٦] اللسان: مادة (درع)، والمخصص: ٧٠/٦.

[٧] العمدة، ابن رشيق: ٢٣٠/٢، وبلوغ الأرب: ٦٦/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى تُبّع ملك من مُلوك اليمن في العهد الحِميري[1]، والدُروع السَّلُوقيّة منسوبة إلى سَلُوق قرية في اليمن[2].

واهتمّ العرب الجاهليون كغيرهم من الأمم بصناعة الدروع، إذ تخيّروا لها مادة أولية من أجود الحديد، وقد تجلّى المظهر الحضاري في طريقة صنعها وإحكامها، أمّا صورتها في الشعر، فقد ذُكِرت على أنها من آلات الحرب الضرورية، فتحدّث الشعراء عن صَلابتها وجودة حديدها وإحكام صنعتها؛ ولهذا صُنعت من صافي الحديد لا عيب فيها ولا خرْق، وفي مساميرها استواء لا شذوذ فيه[3].

وأمّا أسماؤها التي ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، فقد جاءت حسب الصفات التي اتُّصِفت بها من جهة الصُّنع، وبعضها الآخر جاء حَسْب نسبة الدروع إلى مواضع صُنْعها أو إلى أشخاص عُرفوا بصناعتها كما أُشير إلى ذلك.

ونسب الشعراء الدروع إلى داود عليه السلام، وإلى آل مُحَرَّق ملوك الحيرة، يبدو ذلك في قول سلامة بن جندل[4]:

لَبِسُوا من المآذِيِّ كُلَّ مُضَاضَةٍ كالنَّهْي يَوْمَ رِيَاحهِ الرَّقْرَاقِ
مِنْ نَسجِ داودٍ وآلِ مُحَرَّقٍ غَالٍ غرائبُهُنَّ في الآفَاقِ

وقال بِشامة بن الغَدير[5]:

وَمِنْ نَسجِ دَاود مَوْضُونَةً تَرى القَواضِبَ فِيها صَلِيلا

وجاؤ ذكر الدُّروع السّلوقيّة في قول ابن مقبل[6]:

---

[1] العمدة: ابن رشيق: ٢/٢٣٠.

[2] اللسان: مادة (سَلَقَ).

[3] شعر الحرب في العصر الجاهلي، علي الجندي: ١٥٤.

[4] ديوان سلامة بن جندل: ١٤٧.

[5] المفضليات: ٩٨، وانظر المصدر نفسه: ٥٩.

[6] ديوان ابن مقبل: ١٨١، وانظر في هذا المعنى: قصائد جاهلية نادرة، جمع يحيى الجبوري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨: ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حَتّى إذَا احْتَملُوا كانتْ حَقائبهُـمْ طَيَّ السَّلُوقيِّ والملْبُونَةَ الخُنُفَـــا

وقال المُزَرِّد بن ضرار يذكر الدُروع التُبعيَّة[1]:

ومَسْفُوحَةً فَضْفَاضةٌ تُبعِيَّـــــــةٌ وآهَا القَتِير تجْتويها المعَابِـــــلُ

وجاء ذكر الدرّوع الحُطَميَّة في قول راشد بن شِهاب اليَشْكُري[2]:

مُضاعَفَةٌ جَدْلاءُ أوْ حُطمِيَّـــــةٌ تُغَشِّي بَنانَ المَرْءِ والكَفَ والقَدمْ

وقد سُميت الدُّروع بناءً على صَفاتها، فمنها الدروع اللّينة السّهلة التـــي تســمّى الدِّلاص، وردت في قول أبي زيد الطائي[3]:

عَلَيْنـــا كُـــلُّ سَابغـــــــةٍ دِلاصٍ تَرَى فَوْق النِّطاقِ لَها غُصُونَـــا

ويبدو أنّ الدِّلاص ارتبط ذكرها بالسَّابغة وهي الدروع الطويلة التّامة، قال عمرو ابن معديكرب[4]:

تَمنَّانـــي وسَابِغَتـــــــي دِلاصٌ كَأَنّ قَتيرَها حَدْقُ الجَـــــرَادِ

وجاء ذكرها إلى جانب الدرع الواسعة التي تُسمّى فَضْفَاضة، قال عمرو أيضاً[5]:

أعْدَدْتُ لِلْحرْبِ فَضْفَاضَـــــةً دِلاصاً تَثَنَّى على الرَّاهِـــشِ

ومن الدروع التي سُميت بصفاتها الزَّعْفُ، جاء في اللسان أنّها الدرع المُحكمة الرّقيقـة الحسنة السَّلاسل[6].

ونسبها أوس بن حجر إلى النبي سليمان عليه السلام، فقال[7]:

---

[1] المفضليات: ٩٨.

[2] نفسه: ٥٩.

[3] ديوان أبي زيد الطائي: ٩٦.

[4] ديوان عمرو بن معديكرب: ٦٠.

[5] نفسه: ٤٠٢.

[6] اللسان: مادة (زعف).

[7] ديوان أوس بن حجر: ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَبَيْضَاء زُعْفٍ نَثْلَةٍ سُلَميَّـــــةٍ لَها رَفْرَفٌ فَوْقَ الأَنَامِلِ مُرْسَـلُ

وورد وصفها في قول مالك بن العَجْلان بن زيد[1]:

مَا مِثْلُنا يُحتــدَى بِسَفْـــــكِ دَمٍ ما كَانَ فِينَا السُّيوفُ والزَّعْـــفُ

ومن الصفات الحسنة التي تُطْلَبُ في الدرع أن تكون تّامة طويلة، وهي التــي تســمّى بالسَّابغة، وصفها عبد القيس بن خِفاف أحد بني مالك اليربُوعي بقوله[2]:

وسَابِغةٍ مِنْ جِيادِ الـــــــدُّروعِ تَسْمَعُ لِلبيضِ فِيها صَلِيـــــــلا

وقال عمرو بن معد يكرب[3]:

أعْدَدْتُ للحَدَثانِ سَـــــــــــا بِغةً وعَدَّاءً عَلَنْـــــــــــدَى

وهي مُحْكمة الإغلاق بالقَتير، قال مُليح بن الحكم الهذلي[4]:

ولَوْ ظَاهَرْتُ سَابِغَتينِ بَيْنـــــي وَبَيْنَكِ لا يَخُونُهُما القَتِيـــــــرُ

ونوع آخر من الدروع يُسمّى الشَّليل، وهو صفة للدرع القصيرة، قال زِبَّان بــن ســيَّار أحد سادات بني فِزارة وشعرائهم[5]:

وبِيضٌ مِن المَاذِيِّ حَامٍ قَتِيرُهــا حَرابِيُّها كَالقَطْرِ أو هِيَ أَلْطَـــفُ

وقال النابغة الذبياني أيضاً[6]:

مُسْتَحْقِبِي حَلَقَ المَاذِيِّ يَقْدُمُهُــم شُمُّ الغَرانِين ضَرَّابُون لِلْهـــــامِ

---

[1] جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط١، دار القلــم، دمشق، ١٩٨٥، ٥٠٤، وانظر في هذا المعنى: الاختيارين: ١٨٩، وديوان عامر بن الطفيل: ١٥٣.

[2] شرح حماسة أبي تمام: ٢٧٠/١.

[3] ديوان عمرو: ٦٨.

[4] شرح أشعار الهذليين: ١٠٠١/٣.

[5] المفضليات: ٣٥٣، وانظر: ديوان الخنساء: ٢٢٧.

[6] ديوان النابغة: ٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أسماء الدرع الطويلة النَّثْرة، قال فيها حَجْل بن نَضْلَة البَاهِلي[1]:

تَحْتِي الأغَرُّ وفَوْقَ جِلدِي نَثْـــرةٌ زُعْفٌ تَرُدُّ السَّيفَ وهوَ مُثَلَّـــــمُ [2]

وتُسمّى الدرع الواسعة كذلك بالنَّثْلة، ذكرها النابغة الذبياني ونسبها إلى تُبّع مَلِك الـيمن يقول[3]:

وكُلُّ صَمُوتٍ نَثْلَةٍ تُبَّعِيَّـــــــةٍ ونَسْجٍ سُلَيمٍ كلَّ قضَّاءَ ذَائِـــــلِ

وقال فيها مَالِك بن زُغْبة البَاهلي[4]:

مَظاهِرُ نَيْلَةٍ، معهُ أفَـــــــــلٌ حُسامُ الحدِّ، مَأثورٌ رَقيـــــــقُ

ومن الدُروع الدِّرع المَوْضُونة، وهي التي تكون منسوجة حلقتين حلقتين، وفيها يقول أبو قيس بن الأسْلت الأنصاري[5]:

أعدَدْتُ للأعْداءِ مَوْضُونـــــــةً فَضْفاضةً كالنَّهي بالقَـــــــاعِ

ويصف الأعشى هذه الدرع المَوْضونة، بقوله[6]:

وبيضاءَ كالنَّهْي مَوضُـــــــونةً لَها قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَـــــدَنْ

وثمّة صفات أخرى للدرع سُميت بها تحدّث عنها الشعراء، منها اللّأْمَـة وهـي ضربٌ من الدروع المستقيمة[7]، ومنها المُضاعفة، وهي التي ضُوعف فـي حديـدها[8]، والمسفوحة، وهي الواسعة التي صُبَّ فيها الحديد[9].

---

[1] الأصمعيات: ١٣٩.

[2] يُنسب البيت أيضاً إلى الشاعر طريف بن تميم العَنْبري، انظر ديوان شعر الأيام: جمع وتحقيق: عفيف عبد الرحمن، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨، ٦٤

[3] ديوان النابغة الذبياني: ٢٠١.

[4] الاختيارين: ١٩٩.

[5] المفضليات: ٢٨٤.

[6] ديوان الأعشى: ٢٥.

[7] انظر ديوان عبيد بن الأبرص: ٨٤، والأصمعيات: ٥٩.

[8] ديوان قيس بن الخطيم: ٨٢.

[9] اللسان: مادة (سفح)، وانظر: المفضليات: ٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترتبط الدرع بالبَيْضة وهي من لوازم الحرب، تختصّ بالرأس وتستخدم غطاءً واقياً من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها رأس المقاتل، وتُصنع البيضة من الحديد أو الفولاذ الخالص، يُجعل فيها ما يُعرف بالقَوْنس وهو مُقَدّم البَيْضية[1]، وهي محكمة مُتقنة، وقد جاء وصفها في قول قيس بن الخطيم[2]:

صَبَحْنَا بِها الآطامَ حَوْلَ مُزَاحِمٍ قَوْنِسُ أوْلى بَيْضنَا كالكَواكِبِ

ويقول الأعشى يصف الدرع والقَوْنَس في مقدّمة البَيْضَة[3]:

وبيْضاءَ كالنّهْي مَوْضُونةٌ لَها قَوْنَسٌ فَوقَ جَيبِ البَدَنْ[4]

لقد أدرك العرب في الجاهلية ضرورة البيضة للمقاتل؛ ولهذا تحدّث الشعراء عنها في معرض حديثهم عن آلات الحرب الأخرى، مشيرين إلى جودة الحديد الذي تصنع منه حتى تكون صلبة قوية، فمنها نوع يُسمى (التَّرْكة) مصدرها بلاد اليمن، ذكرها قيس بن الخطيم في قوله[5]:

وتسْبِغةٌ في تَركَةٍ حِمْيَريَّةٍ دِلامِصَةٌ تَرْفَضُّ عَنها الجَنادِلُ

- صناعة القِسيِّ والسِّهام :

اعتدّ العرب بامتلاكهم أجود أنواع القسي والسِّهام التي تُصنع من أجود الأخشاب المتوافرة في بلاد العرب، ولِهذا تحدّث الشعراء عن اهتمام العرب بهذا النوع من السلاح، وأشاروا إلى إحكام صنع القسيّ والسِّهام ، وتعدّد أسمائها وصفاتها، فعُرِف

---

[1] شعر الحرب في العصر الجاهلي: علي الجندي: ١٥٩، وانظر: بُلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٦٧/٢.

[2] ديوان قيس بن الخطيم: ٨٦، ومزاحم: أطمٌ من آطامهم.

[3] ديوان الأعشى: ٢٥، وانظر ديوان المتلمس الضُّبعي: ٢٤٧، والمفضليات: ٢٨٢.

[4] النّهي: الغدير شبههما به في تموّج بريقها.

[5] ديوان قيس: ١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضها نسبة إلى صانعها، وبعضها الآخر بأماكن صنعها، أو نُسبت لنوع من الشـــجر كانت تُصنع منه.

أمّا أشهر أنواع القسي فهي المَاسِخيَّة مَنْسوبة إلى رجل من الأزْد اسمه مَاسِـــخ، قيـــل إنّه أول من صنع القسي[١]، فعُرِف هذا النوع بالقسي المَاسِخيّة، يقول فيها الشَّمَّاخ[٢]:

ولمَّا رأيْتُ الأمْرَ عَرْشَ هَويَّـــــةٍ تَسَلَّيتُ حَاجَاتِ الفُؤادِ بِشَمَّـــــرا

فقرّبتُ مُبرَاةً تَخَالُ ضُلُوعُهـــــــا مِنَ المَاسِخيَّاتِ القِسيِّ المُؤَثَّـــرا

ويقول طُفيل بن عوف يذكر القسيّ الماسخيّة[٣]:

رَمَتْ عن قِسيِّ المَاسِخيِّ رِجَالُنا بِأحْسَن ما يُتْباعُ، من نَبْلِ يَتْرَبِ

ويصف الأعشى قوة القِسي الماسخيّة وصلابتها بقوله[٤]:

مَنَعتْ قِياسُ المَاسِخيّةِ رَأسَـــــهُ بسِهَامِ يَتْرَبَ أو سِهَامِ بـــــلادِ

وهناك القسي الهَجرِيّة التي نَسبها العرب إلى رجل من هَجَر كان يُشرف على صناعتها، يقول الأسود بن يعفر في وصفها[٥]:

وَغانِيةٍ قَطَعتُ أسبَابَ وَصْلِهـــــا بِحَرْفٍ كَقَوْسِ الهَاجِرِيِّ المُضَيَّنِ

وعرف العرب القِسي الرَّضَوِيّة، نُسِبت إلى جبل رَضْوى قرب يَنْبع كثرت فيـــه أنواع الأشجار التي تُصنع منها القِسي[٦].

---

[١] اللسان: مادة (مسخ)، وانظر: بلوغ الأرب: ٦٥/٢.

[٢] ديوان الشماخ: ٤٨، وانظر ديوانه: ٤٤٩.

[٣] الاختيارين: ٣٦.

[٤] ديوان الأعشى: ١٣١.

[٥] ديوان الأسود: ٦٤.

[٦] اللسان: مادة (رضي)، وانظر معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٥١/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب بعض الدارسين إلى أنها منسوبة إلى امرأة تُسمّى (رَضْوى) [1]. وورد ذكر القِسي الرّضوية في قول عنترة[2]:

بِكُلِّ هَتُوفٍ عَجْسُها رَضَوِيّـــــةٌ وَسَهْمٍ كَسَيرِ الحِمْيَرِيِّ المُؤنّــفِ

وعرف نوع آخر من القِسي نُسِبَ إلى رجل يُسمى عَصْفوراً، فقيل القِسي العُصْــفورية، حكاه الجاحظ وأنشد لابن بشير[3]:

عَطْفُ السِّياتِ بواقِعٍ في بَذْلِهـــا ثَعْزَى إذا نُسِبَتْ إلى عُصْفُــورِ

وجاء حديث الشعراء الجاهليين عن القِسي عند حديثهم عن أنواع الأخشاب التي كانت تُصْنع منها، إذ إنّ أجود أنواع الأخشاب عندهم ما كان يَنْبت في قِمم الجبال ولــم يَشْرب من ماء الأنهار، ولهذا وصف الشعراء القِسيَّ التي صُنعت من هذا النــوع مــن الخشب وأُحكمَ صُنعها، وفي هذا يمكن أن تتجلّى صورة حضارية مادية.

ويبدو أن البيئات العربية عَرفت أجود أنواع الأشجار التي تُتّخذ منها القِسي، فمن أشهرها النَّبع الذي يُعدّ من أكرم شجر القِسي وأعتقه، وقد تحدّث الشعراء كثيــراً عــن القِسي المصنوعة من النَّبع، وسُمّيت القِسي المصنوعة منه نَبْعة صفراء؛ لأنّ هذا النوع من الشجر أصفر اللون، جاء ذكرها في قول الشَّمّاخ عند حديثه عن صيّاد مــاهر مــن الخَضْر، أخذ يطارد الأُتن ويرميها بالقوس[4]:

وحَلأَّهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِــرٌ أَخُو الخُضْرِ يَرْمي حَيثُ تُلْوَى النَّواحِزُ [5]

---

[1] شعر الحرب في العصر الجاهلي، علي الجندي: ١٣٧.

[2] ديوان عنترة: ٢٣١.

[3] العمدة، ابن رشيق: ٢٣٣/٢، وانظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٦٥/٢.

[4] ديوان الشماخ: ٦٥.

[5] النواحِز: التي بها نِحاز فتكوى في جُنوبها وأصول أعناقها فتُشفى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَليلُ التِّلادِ غَير قوسٍ وأسْهُـــمٍ كأنَّ الذي يَرْمي مِنَ الوَحْشِ تَـــــارِزُ [1]

مُطِلّاً بِزَرْقٍ ما يُداوَى رَمِيُّهـــا وصَفْراءَ مِنْ نبعٍ عَليها الجَلائِـــــزُ [2]

وتبدو صورة القِسيّ المصنوعة من النَّبع صافية في كفِّ الصيّـــاد في قــول امــرئ القيس[3]:

في كَفِّهِ نَبعَةٌ صَفراءُ صَافيـــةٌ ومُرْهَفاتٌ على أسْناخَها العَقُـــبُ

ويصف أوس بن حجر قِسيَّ النّبعة بأنها خالية من العيوب لا صدع في نبعها، ليّنة مــع صلابة عودها، فإذا شَدّ النّازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس ثم ابتعد عنهــا لِقُــوة دَفعها وصَلابتها، يقول[4]:

فَجرّدها صَفراءَ لا الطُّولُ عَابَها ولا قِصرَ أزْرَى بِهَا فَتعَطَّـــــــــلا

كَتُومٌ طِلاعُ الكفِّ لا دُونَ مِلْئهـــا ولا عَجْسُها عنْ مَوْضعِ الكفِّ أفضَلا [5]

إذا ما تعَاطُوها سَمِعْتَ لِصَوْتِهـــا إذا انْبضُوا عَنْها نَئيماً وأزْمَـــــــلا

وإنْ شُدَّ فيها النَّزْعُ أدْبَرَ سَهْمُهـــا إلى مُنْتَهىً مِنْ عِجْسِها ثُمَّ أقْبَـــــلا

ويظهر أنّ ثمّة نوعاً من شجر النّبع يميل لونه إلى الحُمرة ولهذا وصف الشَّنفرى القِسي بأنها حمراء، فقال[6]:

وحَمراءُ من نَبْعٍ أبيٍّ ظَهيـــــرَةٌ تُرَنُّ كَإرْنَانِ الشَّجيِّ وتَهْتِـــــفُ [7]

إذا آلَ فيها النَّزْعُ تَأبى بِعَجْسِهـــا وتَرْمِي بِذِرْوَتِها بِهِنَّ فتَقْـــــذِفُ

---

[1] التّارِز: اليابس، أي كأنّه يابس قبل أن يصيبه السهم، وكثُر ذلك في كلامهم حتى سمّوا الميّت تارِزاً.

[2] الجَلائِز: عقبات تُلْوى على كل موضع من القوس، تشدُّها من غير عيب بها، واحدها: جَلاز وجَــلازة، ولا تكون الجَلائِز إلاّ من غير عيب.

[3] ديوان امرئ القيس: ٣٠٥.

[4] ديوان أوس: ٨٨، وانظر ديوانه أيضاً: ٩٥-٩٨.

[5] الكَتوم من القِسيّ: التي لا تَرِنُّ إذا أُنِضَتْ

[6] ديوان الشنفرى: ٥٤.

[7] الإرْنان: الصّياح بالبكاء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال أوس بن حجر يذكر قِسيَّ النّبعة الصفراء[1]:

وصَفْراءَ مِنْ نبْعٍ كأَنَّ نَذيْرَهَـــا إذَا لمْ تُخفِّضْهُ عَن الوَحْشِ أَفْكَـلُ

تَعلَّمَها في غَيْلِهَا وهْيَ حَظْـــوَةٌ بِوادٍ بِهِ نَبْعٌ طِوالٌ وجَيْثَـــــلُ

وجاء ذكر القِسيّ التي تُتّخذ من شجر السَّرَاءِ في قول عنترة بن شدّاد[2]:

أَبَيْنَا فَلا نُعْطِي السَّواءَ عَدُوَّنـــا قِياماً بِأعْضَادِ السَّراءِ المُعَطَّـفِ [3]

ومن أنواع شجر القِسي كذلك ضرب يقال له الشِّرِيَان؛ وهو شجر جبلي صـلب العود تتّخذ منه القِسي والسِّهام ، وقد وصف زهير بن أبي سُلْمى قوس الشِّـريان فـي حديثه عن الناقة، فقال[4]:

تَظَلُّ في الزِّحَامِ كأَنَّهـــــا إذا بَرَكَتْ قَوْسٌ مِنَ الشِّرْيـــانِ

وقال حُميد بن ثور الهلالي يصف وادياً يكثر فيه الشِّريان الذي تُصنع منه العَلْيَط وهي القوس[5]:

تَكادُ فُروعُ العَلْيَطِ والصُّهبُ فَوْقَنَا بِهِ وَذُرَا الشِّرِيَانِ والنَّيمِ تَلتقِـــي

وقال ابن مقبل في وصف قوس الشِّريان في يد الرّامي، وقد شبّه صوتها بصوت الناقة[6]:

خَفِيُّ الشّخصِ يَغمزُ عَجْسَ فَرْعٍ مِنَ الشِّريانِ مِرْزامٍ سَجُـــوعِ

إذا غُمزتْ ترَنَّمَ أبْهرَاهَـــا حَنينَ النَّابِ بالأُفُقِ النَّـــزوعِ [7]

---

[1] ديوان أوس بن حجر: ٩٦-٩٧.

[2] ديوان عنترة: ٢٣٠-٢٣١، وانظر في هذا المعنى: الاختيارين: ٢٤٦.

[3] الأعضاد: جمع عضد القوس، وهو موضع الحمالة منها. والمُعطَّف: المَحنيّ.

[4] ديوان زهير: ٢٦٩.

[5] ديوان حُميد: ٧٢.

[6] ديوان ابن مقبل: ٨٩-٩٠، وانظر الاختيارين: ٣٤٣.

[7] الأبهر: وسط القَوْس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشجر الذي تتّخذ منه القِسي أيضاً السَّراء، قال فيه كعب بن زهير في حديثه عن الصَّيد[1]:

شَرَقاتٍ بالسَّمِّ من صُلَّبـــــــيٍّ ورَكُوضاً من السَّرَاءِ طَحُـــورَا

وصُنعت بعض أنواع القِسي من السَّنْدري، وهو ضرب من الخشب الصُّلْب تُتّخذ منـــه القِسيّ والنِّبال، قال فيه أبو جُنْدب الهُذلي[2]:

إِذَا أدْرَكَتْ أُولاهُمُ أُخْرَياتِهـــــمْ حَنَوْتُ لَهُمْ بالسَّنْدَرِيِّ المُوَتَّـــــرِ

ويبدو أنّ العرب قد عرفوا أنواعاً من القِسي الفارسية التي وصلت إلـــيهم عـــن طريق التجارة مع الأمم الأخرى، منها (الشُّدُف) وقد ورد ذكرها في شعر أمية بن أبي الصلت، يصف مهارة الرمي بهذا النوع من القِسي، يقول[3]:

لا يَضْجُرون وإنْ جَرَّتْ مَغَافِرهُم ولا تَرَى مِنْهُمُ في الطّعْنِ مَيَّـــالا

يَرمُونَ عن شُدُفٍ كأنّها غُيُـــطٌ بِزَمْخَرٍ يُعْجِلُ المَرْمِيَّ إعْجَـــالا [4]

وأما السِّهام والنِّبل فلم تكن تُذكر القِسي إلاّ ويذكر إلى جانبها السِّهام ، وقد اهـــتم العرب بصناعة السِّهام، وتخيروا لها أجود أنواع الخشب، وذهب ابن رشيق القيروانـــي إلى "أن أجود السِّهام التي صنعها العرب في الجاهلية سِهام بَلام، ويَتْرب، وهما بلـــدان قريبان من حَجَر اليَمامة"[5].

ويُسمى السَّهم قبل أنْ يُراش القِدْح، فإذا رِيشَ وَرُكِّبَ نصلُه سُمِّي سهماً[6].

---

[1] ديوان كعب: ١٨٢-١٨٣.

[2] شرح أشعار الهذليين: ٣٥٩/١.

[3] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٤٥٧.

[4] الزَّمْخَر: السِّهام ، والغُيُط: مفردها غيط، وهو الرحل شبه القِسي الفارسية بخشب الرحل.

[5] العمدة: ٢٣٤/٢.

[6] اللسان: مادة (قدح).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار علي الجندي في حديثه عن السهم إلى أنّه بعد أن يُوضع فيه النَّصْل فهو السهم، له أجزاء كثيرة تدلّ على دقّة صنعه، من هذه الأجزاء: الفُوق أو الكَزّ، الشَّرْحَان، الأطْرَة، الحَفْوة، المِذْبح أو الخَصْر، الضُّبّة، الغَراران، الكُلية، والسَّنَخ[1].

وأمّا صورة السِّهام في الشعر الجاهلي، فقد جاءت في معرض حديث الشعراء عن السلاح وأدوات الحرب، فتحدّثوا عن السِّهام التي أُحْكم صنعها وتُخيّرَ لها أجود أنواع الخشب، وذكر الشعراء أنواع النّصال كالمعَابِل والرِّهَاب والمبَاعَج والثَّجر والسَّلاجم وغيرها.

ويشير أوس بن حجر إلى طريقة صناعة السِّهام واختيار الأنصل والأنضَاء، واستخدام ريش الطير اللين لِتُريَّش به، يبدو هذا في قوله[2]:

وحَشْوَ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعٍ غَرَائِبٍ تَنَطَّعَ فَيها صَانِعٌ وتنبَّلا
تُخيِّرْنَ أنْضاءً ورُكِّبْنَ أنْصُلاً كَجَمْرِ الغَضَا في يَوْمِ رِيحٍ تَزَيَّلا
فَلمَّا قَضَى في الصُّنعِ مِنْهُنَّ فَهْمَهُ فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ أنْ تُسَنَّ وتُصْقَلا
كَسَاهَا مِنْ رِيشٍ يمانٍ ظَواهِراً سُخَاماً لُؤَاماً لَيّنَ المَسِّ أطْحَلا

واتّخذ العرب أجود أنواع الريش لسهامهم، فهذا بشر بن أبي خازم يشير إلى السّهم الذي لم يُرش باللّغاب، وهو الريش الرَّديء يُكْسَى به السّهم فلا يَعْتَدل ولا يلتَئم، فإذا رُميَ به لم يذهب بعيداً ولم يُصِب هدفه، يقول[3]:

وإنَّ الوائليَّ أصَابَ قَلْبي بِسَهْمٍ لم يَكُنْ يُكْسَى لُغَابَا

ومن أجود السِّهام السَّلاجم التي تتّصف بالطول، تُكْسى من أجود الريش، وقد تكرّرت صورتها في الشعر الجاهلي، ومن ذلك ما جاء في قول أبي ذُؤيب الهذلي[4]:

---

[1] شعر الحرب في العصر الجاهلي: ١٣٨.
[2] ديوان أوس بن حجر: ٨٩-٩٠.
[3] ديوان بشر: ٢٥.
[4] شرح أشعار الهذليين: ١٨١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَذاكَ تِلادُه ومُسَلْجَمـــــــــاتٌ نَظَائِرُ كُلُّ خَوَّارٍ بَـــــــروقِ

ويبدو أنّ هذا النوع من السِّهام كان مدار فخر الشاعر يتحدّى به أعداءه، يظهر هذا في قول راشد بن شهاب اليشكري الذي تبدو هيبته بفضل ما بحوزته من سلاجم[1]:

ولا تُوعِدَنِّي إنّي إنْ تلاقِنـــــي مَعِي مَشْرفيٌّ مَضَارِبه قَضَـــمْ

ونُبْلٌ قِرانٌ كالسُّيُورِ سَلاَجِـــــمُ وفَرْعٌ هَتُوفٌ لا سَقِيٌّ ولا نَشَمْ

وعلى الرغم من أنهم صنعوا السِّهام الطِوال، إلاّ أنهم كانوا يتخيّرون لها لـــيّن الخشب وقويِّه، الذي يتّصف بالخفّة لِيصلَ السهم إلى هدفه مهما بلغت المســافة، يقــول سُويد بن أبي كاهل اليشكري[2]:

كالمغَالِي عَارِفَاتٍ لِلسُّـــــــرَى مُسْنِفَاتٍ لمْ تُوَشَّحْ بالنِّسَـــــــعْ [3]

وبجانب السِّهام الجيّدة سِهام رديئة، وهي التي لا رِيشَ لها ولا نِصال، ومن ذلك ما جاء في قول لَقيط الأَسْدي[4]:

فَكَذاك حَقّاً مَنْ يُعَمَّر يُبْلِـــــــــهِ كَرُّ الزَّمانِ عَلَيْهِ والتَّقليـــــبُ

حتى يَعودَ مِنَ البَلَى وكَأَنَّـــــــهُ في الكَفِّ أَفْوَقُ نَاصِلٌ مَعْصُوبُ

ويدلُّ اهتمام العرب بصناعة الأسلحة وآلات الحرب على وجود ملمح حضــاري مادي، يتجلّى في عملية الصناعة والأدوات التي تُستخدم فيها، وتحضير المادة الأوليــة التي توافرت في البيئات العربية، وفيما حصل العرب عليه من أنواع أخرى من الأسلحة من الأمم التي كانت تتّصل بهم عن طريق التجارة.

---

[1] المفضليات: ٣٠٨، وانظر أيضاً: شرح حماسة أبي تمام: ١٠٨٠/٢.

[2] ديوان سويد: ٩٣.

[3] المُسنفات: التي شُدّ عليها خيط السّناف.

[4] الأمالي: (أبو القاسم عبد الرحمن الزّجاجي، ت٣٤٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هــارون، ط٢، دار الجيــل، بيروت، ١٩٨٧م: ١٢٨، وانظر في هذا المعنى: ديوان عمرو بن معديكرب: ٥١، والمفضليات: ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً: حرفة الزراعة أساليبها وأدواتها:

تميّزت بلاد العرب على امتدادها الطويل، واتّساع رقعتها بموقع مهمّ، فهي مترامية الأطراف، معتدلة دافئة المناخ، غزيرة الأمطار، فمهّد ذلك لقيام نشاط زراعي عَرفته البيئات العربية المختلفة، وأشهرها قاطبة بلاد اليمن، حتى أنها سُميت باليمن الخضراء، لكثرة ما فيها من أشجار وثمار وزروع، هيّأ لنجاحها كثرة السدود والآبار[١].

وأشار الهمداني إلى كثرة السدود في بلاد اليمن، إذ أحصى بها ثمانين سدّاً [٢]، ولعلّ أهمّ هذه السدود سدّ مأرب الذي استفاد منه الزُّرّاع في سَقي المزروعات، وقد نبّه الأعشى إلى أهمية هذا السدّ بقوله[٣]:

فَفي ذَاكَ لِلمُؤْتَسي أسْـــــوَةٌ ومَأْرِبُ قَفَّى عَلَيْها العَـــــرِمْ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَـــــرٌ إِذَا جَاءهُ مَاؤُهُمْ لَمْ يَـــــرِمْ
فَأَرْوَى الزُّروعَ وَأَعْنَابَهَـــــا عَلى سَعَةٍ مَاؤُهُمْ إِذ قُسِـــــمْ

وتعدّدت مناطق اليمن المشهورة بالزراعة، وهي في أغلبها تميّزت بتربة خصبة، توافر فيها الماء الذي مهّد لقيام نشاط زراعي.

ومن المناطق التي شهدت نشاطاً زراعياً بلاد الحجاز، وبخاصةٍ يثرب التي كانت تُعدّ واحة للنخيل الذي يُعدّ أهم مورد للثروة الاقتصادية في معظم أرجاء الجزيرة العربية، فهو لا ينمو إلاّ في ظلّ ظروف مناخيّة قوامها الدفء، ولهذا كثرت زراعته في بلاد الحجاز[٤].

---

[١] صفة جزيرة العرب، الهمذاني: ٦٥، وانظر، أحسن التقاسيم، المقدسي: ٨٦-٨٧.

[٢] صفة جزيرة العرب، الهمذاني: ٦٥.

[٣] ديوان الأعشى: ٤٣.

[٤] تاريخ العرب، فيليب حتّي وآخرون، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت: ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أشار قيس بن الخطيم إلى اهتمام أهل يثرب بالزراعة، فقال[1]:

لَنَا مَعْ آجَامِنَا وحَوْزَتِنَـــــــا بَيْنَ ذُرَاها مَخَارِفٌ دُلُـــــــفُ [2]

ويبدو أنّ يثرب كانت تختصّ بزراعة النخيل، ولهذا تكرّر ذكرها في الشعر الجـاهلي على أنّها تتوسّط مزارع النخيل، يبرز هذا الوصف في قول حسّان بن ثابت[3]:

بِيَثْرِبَ قَدْ شَيَّدُوا فِي النّخيـــلْ حُصُوناً ودُجِّنَ فِيهَا النَّعـــــمْ

ومن المواضع التي تميّزت بتربة خصبة، ومناخ ملائم لقيام نشاط زراعي اليمامـة، إذ وُصفت بأنّها أكثر البلدان خيراً وشجراً ونخيلاً [4].

وازدهرت الزراعة أيضاً في بلاد البحرين، وبخاصة زراعة النخيل وغيره، فمن مناطق البحرين التي اشتهرت بالزراعة المُشقّر والخَط، وقد جاء ذكرهما فـي قـول امـرئ القيس[5]:

فَإِنْ تَمْنَعُوا مِنّا المُشقَّر والصَّفَـا فَإِنَّ وجَدْنا الخَطَّ جَمَّاً نَخيلُهَـــــا

وعُرفت هَجَر بكثرة نخيلها، جاء وصفها في قول لبيد بن ربيعة[6]:

كَأَنَّ أَظْعَانَهُمْ في الصُّبْحِ غَادِيَـةً طُلُحُ السَّلائِلِ وسْطَ الرَّوضِ أو عُشَرُ

أَوْ بَارِدُ الصَّيْفِ مَسْجُورٌ مَزَارِعُهُ سُودُ الذُّوائبِ مِمَّا مُتِّعتْ هَجَـــرُ

وانتشر النشاط الزراعي كذلك في بلاد العراق مُنذ القِدم؛ وذلك بسـبب وجـود نهري دجلة والفرات، واشتهرت بالنخيل خاصة، وأشار أبو ذؤيب الهـذلي إلـى ذلـك بقوله[7]:

---

[1] ديوان قيس بن الخطيم: ١١٨.

[2] المخارف: ثمر النخل بُسْراً أو رُطَباً. ودُلف: أي تدلف بحملها.

[3] ديوان حسّان: ٤٢٩.

[4] الممالك والمسالك، البكري: ١٢٠.

[5] ديوان امرئ القيس: ٤٥٨.

[6] شرح ديوان لبيد: ٥٩.

[7] شرح أشعار الهذليين: ١١٧/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صَبَا صَبْوَةً بَلْ لَجَّ وهُوَ لَجُــوجُ وزَالَتْ لَها بالأَنْعُمينِ حُـــــــدُوجُ

كَمَا زَالَ نَخْلٌ بالعِراقِ مُكَمَّــمٌ أُمِرَّ لَهُ مِنْ ذِي الفُراتِ خَلِيـــــــجُ

أمّا المزروعات التي كانت تُزرع في مختلف البيئات العربية، فأهمّها النخيــل؛ لأنّه من أكثر المزروعات انتشاراً في بلاد العرب، وبخاصةٍ في الجزيرة العربيــة؛ لأنّ مناخها يلائم هذا النوع من المزروعات، ولأهميّة شجرة النخيل عند العرب، فقد كَثُــرَ حديث الشعراء الجاهليين عنها، إذ ارتبطت صورتها بالظّعائن، ومن ذلك قول امــرئ القيس يُشبّه الإبل التي يُحمل عليها بالنخل[1]:

وَحَدِّثْ بِأَنْ زَالَتْ بِلَيْلٍ حُمُولُهُــمْ كَنَخْلٍ مِنَ الأَغْراضِ غَيْرِ مُنَبَّـــقِ

وقال يشبّه الأظعان في ارتفاع هوادجهُنّ بالنخل الذي حان صَرامه[2]:

أَوَ مَا تَرى أَظْعَانَهُنَّ بَواكِـــراً كالنَّخْلِ مِنْ شوكَانَ حِينَ صَـــرَامِ [3]

وتظهر صورة غرس النخيل في قول زهير بن أبي سلمى[4]:

فَإِنْ تَكُ صِرْمَةٌ أُخِذَتْ جَهَــاراً كَغَرْسِ النَّخلِ أَزَّرَهُ الشَّكيـــــــرُ [5]

وثمّة نماذج شعرية كثيرة تناول فيها الشعراء الجاهليون وصف النخيل[6]، دَلالــة على كثرته في البيئات العربية، واعتماد العرب عليه في معاشهم.

وعرفت بعض البيئات العربية زراعة أنواع من الحبوب مثل القمح والشعير، فقد اشتهرت بعض المناطق في زراعة الحبوب منها بلاد العراق، وجاء في الشعر الجاهلي

---

[1] ديوان امرئ القيس: ١٦٨.

[2] المصدر نفسه: ١١٥.

[3] شوكان: موضع كثير النخل.

[4] ديوان زهير: ٢٥١.

[5] الشكير: صَغار النخل.

[6] انظر: ديوان النابغة الذبياني: ١٠٤، والمفضليات: ٢٣٨، وديوان عبيد بن الأبرص: ١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكر لهذا النوع من المزروعات، ومن ذلك قول ابن مقبل يشبّه شيب شعره بعيدان الزرع الذي حان موعد حصاده[١]:

وبَيَاضاً أَحْدَثَتْهُ لِمَّتِي مِثْلَ عِيْدانِ الحَصَادِ المُنْحَصِمْ[٢]

وقال المتلمس يذكر الحب المزروع بأرض العراق[٣]:

آلَيْتُ حُبَّ العِراقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ والحَبُّ في القَريَةِ يَأْكُلُهُ السُّوسُ

وانتشرت زراعة العنب في الجزيرة العربية، إذ اهتمّوا بزراعته لما له من فائدة في الطعام وصناعة الخمر، وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر للكروم وعصير العنب، ومن ذلك قول عروة بن الورد مُشبّهاً رُضاب محبوبته بعصير العنب[٤]:

بِآنسةِ الحَديثِ رُضابُ فِيها بُعيْدَ النَّومِ كالعِنَبِ العَصيرِ

وقال المُخبّل السَّعدي يذكر عناقيد الكرمة[٥]:

وَتَضَلٌّ مِدْرَاها المَواشِطُ في جَعْدٍ أغَمَّ كَأَنَّهُ كَرْمُ

وجاء في الشعر الجاهلي ذكر لبعض المزروعات مثل الرّمّان[٦]، والتين[٧]، والتُفّاح[٨]، والسّفرجل[٩] وغيرها من المزروعات.

وأشار الشاعر أمية بن أبي الصلت إلى زراعة القطن بقوله[١٠]:

والطُّوطَ نَزْرَعهُ فِيها فَنَلْبَسهُ والصُّوفَ نَجْتَزُّهُ ما أَرْدَفَ الوَبَرُ

---

[١] ديوان ابن مقبل: ٤٠١.
[٢] المُنحصم: المُنكسر.
[٣] ديوان الملتمس: ٤٤.
[٤] ديوان عروة: ٥٧.
[٥] المفضليات: ٢١٣.
[٦] ديوان أوس بن حجر: ١٤.
[٧] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٥٠٦.
[٨] ديوان عدي بن زيد: ١٥٧.
[٩] ديوان امرئ القيس: ٢٩٨.
[١٠] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٣٨٥، وانظر في الحديث عن المزروعات: مظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي: ٨٧-٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ الجانب الحضاري في حرفة الزراعة يتمثّل في الأساليب التي يتّبعها المزارعون في تجهيز الأرض وزراعتها، والعناية بالمزروعات، والطرق المستخدمة في ريِّها، والأدوات التي يستعان بها لتطويرها والنهوض بها، وجعل ابن خلدون الزراعة صناعة قائمة بذاتها، حين قال: "هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب، بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسّقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثمّ حصاد سنبله واستخراج حَبّه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه، ودواعيه، وهي أقدم الصنائع"[١].

ونهض الزُّرّاع بلوازم هذه الحِرفة، فهي تبدأ بحراثة الأرض وإعدادها للزراعة، إذ استعانوا بأدوات مختلفة وبعض الدَّواب في تهيئة الأرض، وقال جواد علي يصف الفلاّح: "...، وقد ارتدى ثوباً بلغ رُكْبتيه وشدَّ وسطه بحزام، وأمسك بيده اليسرى الحبل أو النِّطاق المُتَّصل بالمِحراث، وباليمين آلة على هيْئة فَأس من خشب رُبّما استعملها في ضرب ثوري المحراث، أو استعملها في حفر الأرض أيضاً وفي تفتيت التّراب المحفور، وقد ربط الثّوران بالمحراث، وأخَذَا يَحْرثان الأرض، والفلاح يُوجِّهما..."[٢].

وأشار الشاعر لقيط بن يعمر الإيادي إلى حراثة الأرض، إذْ يقول في رسالته التي وجهها إلى قومه يحذّرهم فيها من قُدوم كِسرى لمحاربتهم[٣]:

وأنْتُمْ تَحرثُونَ الأرضَ عَنْ سَفَهٍ في كُلِّ مُعْتَمَلٍ تَبْغُونَ مُزْدَرَعَا

---

[١] المقدّمة: ٧٢٣.

[٢] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٦/٧.

[٣] ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، تحقيق خليل إبراهيم العطية، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٥م، ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا الآلات التي استعان بها الزرّاع في الحراثة والزراعة والقطاف، فمنها ما عُرِف بالمِنْقَار، وهو حديدة كالفأس تُقلَّب بها التربة لتسويتها كي تُروّى بالماء، وقد جاء ذكرها في قول أبي زيد الطَّائي[1]:

كأنَّ عَيْنيهِ في وَقْبين مِنْ حَجَرٍ قِيْضَا اقْتِياضاً بأطْرَافِ المَنَاقِيرِ

واستعان الفلاح بالمِعْوَل وهو الفأس يُمهّد بها التربة ويُهيئُها للزراعة والغرس، ورد ذكرها في قول امرئ القيس[2]:

تُغْشِي الإكَامَ سَنابِكاً مَسْنونَةً مِثلَ المعَاوِلِ حَصْدُها الحَصْدُ [3]

وورد ذكر المعاول التي تستعمل في قطف ثمار الزيتون في قول بدر بن عامر الهذلي[4]:

فَتَركْنَني لمّا رَأيْنَ نَواجِذي في الرَّوْقِ مِثلَ مَعَاوِلِ الزَّيتُونِ [5]

وجاءت لفظة الفأس صريحةً في الشعر الجاهلي، وكان الفلاح يستعين بها لتسوية التربة، ومن ذلك قول أبي خُرَاش الهُذَلي[6]:

لَسْتُ لِمُرَّةَ إنْ لَمْ أَوفِ مَرْقبةً يَبدُو لِيَ الحَرثُ مِنْها والمقَاضِيبُ

في ذَاتِ رَيْدٍ كَذَلْقِ الفأسِ مُشْرِفةٍ طَرِيْقُها سَرِبٌ بالنّاسِ دُعْبُوبُ [7]

وربَّما استعان الفلاح بالمِسْعَر لِحَراثة الأرض، وهو حديدة أو خشبة تُحرَّك بها النار[8]، فإذا كان المِسْعر مصنوعاً من الحديد أمكن استغلاله في حراثة الأرض، ولهذا

---

[1] ديوان أبي زيد: ٨٠.

[2] ديوان امرئ القيس: ٢٣٣.

[3] الإكام: التلال، والسّنابك: أطراف حَوافر الخيل.

[4] شرح أشعار الهذليين: ٤٢٠/١.

[5] الرَّوق: أول الشباب.

[6] شرح أشعار الهذليين: ١٢٣٢/٣.

[7] ذلق الفأس: حَدُّه، ودُعبوب: مَوْطوءُ.

[8] اللسان: مادة (سعَر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فُسِّر المِسْعر والمِرْكَض فيما ورد في أشعار الجاهليين على أنّه المحراث، ومن ذلك قول عامر بن العَجْلان الهذلي يذكر المِرْكض وسَط الجَمْر[1]:

تَرَمَّضَ مِن حرٍّ نَفَّاحَةٍ كمَا سُطِحَ الجَمرُ بالمِرْكَضِ

وغالباً ما ذُكِرت المسَاعِر عند حديث الشعراء عن بَلاء القوم في الحروب، ومن ذلك قول أبي شِهاب المازني الهذلي[2]:

يُنَبُّوكِ أنَّا نَفْرُجُ الهَمَّ كُلَّهُ بِحَقٍ وأنَّا في الحُروبِ مَسَاعِرُ

واستعان الفلاحون بآلة المِسْحَاة وهي مصنوعة من الحديد تستعمل في حِراثة الأرض وسدّ المياه، وفتحها في السَّواقي، وقلع الأعشاب[3].

واستخدم الزُّرّاع المعَاضِد، وهي مَناجل تُصنع من حديد يُعضَّد بها الشجر، وقد جاء ذكرها في قول ابن مقبل[4]:

وأعْظَمَ جَمْهُوراً مِنَ الخيلِ خَلفَهُ جَماهيرُ يَحْمِلْنَ الوَشيجَ المُقَصَّدا

تَخَرَّمُ خفّانَيْنِ واللَّيلُ كَانِعٌ وكشْحَاً وآلاتٍ تُغَاوِلُ مِعْضَدَا

وتظهر الصورة الحضارية المادية في جانب آخر من جوانب الزراعة، وهو السّقي وريّ المزروعات، وتبدأ الاستعانة بآلات خاصّة، عند إقامة الأحواض والسَّواقي، سعياً وراء توفير أكبر قدر ممكن من الماء، ولهذا اعتنى الزُّرّاع بحفر السَّواقي وإنشاء القنوات التي تستقبل مياه الأمطار.

وورد ذكر الزّراع والسَّواقي في الشعر ، إذ صوّر الشعراء ما يبذله السَّاقي من جُهدٍ في إخراج الماء، ومن ذلك قول لبيد يصف الساقي وقد تجهّز بلباس العمل[5]:

---

[1] شرح أشعار الهذليين: ٣٠٣/١.

[2] المصدر نفسه: ٦٩٥/٢.

[3] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٦/٧.

[4] ديوان ابن مقبل: ٧٠.

[5] شرح ديوان لبيد: ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَتدَارَكَ الإشْراقُ بَاقِي نفْســـــــهِ متجرِّداً كالمَائِحِ العُرْيَـــــــــانِ [1]

وتأتي صورة السَّقي واستخدام الآلات والأدوات في ثنايا حديث الشعراء عــن زراعــة النخيل، وتبدو صورة انسياب الجداول بين شجر النخيل في قول امرئ القــيس مشــبّهاً دمع العيون بجداول الماء في ظلال النخل[2]:

عَيْناك دَمْعَهُما سِجَــــــــــالُ كأنَّ شأْنيْهِما أوْشَـــــــــــــالُ [3]

أوْ جَدْوَلٌ في ظِلالِ نَخْــــــلٍ لِلمَاءِ من تَحتِهِ مَجَــــــــــالُ

ومن أكثر أدوات السّقي التي استعان بها الزُّرَّاع في نَفْح الماء البكرة التي تُعلّــق فــي الحبل مُحاطة بالحديد على جانبيها، ومن ذلك قول بشر بن أبي خــازم[4]:

تَحدُّرَ مَاءِ البِئْرِ عَنْ جُرَشِيَّـــةٍ على جِرْيَةٍ تَعْلو الدِّيارَ غُروبُهــا [5]

بِغَرْبٍ ومَربُوعٍ وَعَودٍ تُقيمُــــهُ مَحَالَةُ خُطَّافٍ تَصِدُّ ثُقُوبُهــــــا[6]

مُغَالبةً لا هَمَّ إلاّ مُحَجَّـــــــرٌ وَحَرَّةٌ لَيْلَى: السَّهلُ مِنها ولُوبُهــا

ويحتاج النخيل إلى ماءٍ كثير، وكان يُسقى باستخدام البَكَرة، إنْ كان الماءُ يُنضح من البئر، وصُنعت البَكَرة من مادة الحديد وخشب الشِّــيزى، تظهــر صــورة السَّــقي باستخدام البَكَرة في قول عُتَيّبة بن مِرْداس[7]:

---

[1] المائح: الذي ينزل إلى البئر إذا قلَّ الماء يغرف بيده حتى يمتلئ الدلو.

[2] ديوان امرئ القيس: ١٨٩.

[3] أوشال: جمع وَشْل وهو الماء القليل.

[4] ديوان بشر: ١٤.

[5] الجُرَشيّة: ناقة منسوبة إلى جُروش وهي أرض من مخاليف اليمن. والجِرْية: المزروعة. والدِّيار: جمع دبّرة وهي المُثارة من المزرعة أو السّاقية بين المزارع.

[6] المحالة: البكرة، والخُطّاف: الحديد في جانبي البكرة.

[7] الاختيارين: ٣٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذَابَ لُعَابُ الشمسِ فيه وأُزّرَتْ بهِ قاسِمَاتٌ مِنً عانٍ وحَـــــــزْوَرِ
وتُصبحُ عَنْ غِبِّ السُّرى وكأنّها دَمُوكٌ مِنَ الشِّيزى جَرِتْ فوقَ مِحْوَرِ [1]

ويشبّه امرؤ القيس صوت الأسد بصوت بَكَرة البئر، فيقول[2]:

أهْيَبُ قَانِي الوَجْنتينِ أعْثَـــــــــرُ [3]
كَبَكرَةِ البِئرِ نَعَاها المِحْـــــــــوَرُ [4]

واستخدم الزُّراع آلة المَنْجَنُون لِسقي المزروعات، وهي الدُّولاب التي يُستسْـقى عليها، أو أداة ساقية تدور، يتم بوساطتها جلب الماء، وإلى ذلك يشير المتلمّس الضُّبعي بقوله[5]:

هَلُمَّ إليْهَا قَدْ أُثِيرَتْ زُرُوعُهـــا وَعَادتْ عَليها المَنْجَنُونُ تُكَـــدّسُ [6]
وذَاكَ أوَانُ العَرْضِ حَيَّ ذُبابَـــهُ زَنَابِيرهُ والأزْرَقُ المُتلمِّـــــــسُ

ومن الآلات التي استعان بها الزُّراع في استخراج الماء من الأنهـار الدّاليـة، ويبدو أنها سُميت بذلك لأنها تُدَلَّى وتَرْفع الماء من النهر، وقد جاء ذكرهـا فـي قـول المُسَيَّب بن عَلَس[7]:

وَلأنْتَ أجْوَدُ من خَليجٍ مُفعَـــمٍ مُتَراكِمِ الآذِيِّ دُفَّـــــــــاعِ [8]
وكَأنَّ بُلْقَ الخَيلِ في حَافَاتِـــهِ يَرْمِي بِهِنَّ دَوَالِيَ الـــــــزُّرَّاعِ

---

[1] الدّموك: السّريعة المَرِّ من كل شيء.
[2] ديوان امرئ القيس: ٣١٧-٣١٨.
[3] القاني: الأسْود.
[4] كبكرة البئر: أراد صوت الأسد كصوتها إذا نعاها المِحور أي خرج صوته وهو العود المُقرّض في حـدّيها من حديد أو غيره.
[5] ديوان المتلمس: ٢٢-٢٣.
[6] تُكدَّس: يركب بعضها بعضاً في الدّولاب ويستعمل في سير الدواب وغيرها.
[7] شعر المُسيّب بن عَلَس: ١٤.
[8] الآذِي: الموج.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتكرّر صورة سَقْي المزروعات ورَشّها بالماء باستخدام النَّضْح، ويُقصد به رَشَّاش الماء، يبدو هذا في قول حُميد بن ثور الهلالي[1]:

نَضَحُ السُّقَاةِ بِصُبَاباتِ الـــــدِّلاءِ سَاعة لا يَنفعُها مِنْهُ وَحَـــــــــجْ

ومن الآلات التي استعان بها الزُّرّاع استخدام الماء الدِّلاء، إذ كانت تُحمل على ظهور الإبل، فيتم نَضْح الماء ليصل بعد ذلك إلى جذوع النخل، تظهر هذه الصورة في قول أبي ذؤيب الهذلي يُشبِّه الإبل بالنخل ويتحدّث عن نَضْح الماء لِسَقي النخيل[2]:

يَا هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الحيِّ غَادِيَـــةً كالنَّخلِ زيّنها يَنْعٌ وإفْصَـــــــاحُ

هَبَطنَ بَطْنَ رُهاطٍ واعْتَصَبْنَ كمَا يُسْقِي الجِذْعَ خِلالَ الدُّورِ نضَّـــاحُ [3]

ويصوّر مُليح بن الحكم الهذلي السَّفينة فوق الماء وقد التَطم المـوج بَكْلَكَلِهـا، بسواقي النّخيل والشِّرْبة تكون حول النخلة تُمْسِك الماء، يقول[4]:

بَحْرِيّةٌ فَوْقَ غَيْرِ الماءِ غادِيَـــةٌ يَزْفِي كَلاكِلَهُنَّ المَوْجُ والزَّبَـــــدُ

كَدُلَّحِ الشَّرَبِ المُجْتارِ زيَّنَـــــهُ مَحْلٌ عَثاكيلُ فَهوَ الوَاتِنُ الرُّكُـــدُ [5]

وقال زهير بن أبي سُلمى يصف الإبل التي يُستسقى عليها، ويذكر الدِّلاء والبَكَرات، وما استخرج من ماءٍ يُصبُّ في جداول جارية[6]:

كأنّ عَيْنَيَّ في غَرْبَي مُقَتَّلَـــــةٍ مِنَ النّواضِحِ تَسقِي جَنَّةً سُحُقَـــــا [7]

تَمْطو الرّشَاءَ وتُجْرِي في ثِنايَتِها مِنَ المحَالَةِ ثُقْباً رائداً قَلِقـــــــا

---

[1] ديوان حُميد بن ثور: ٢٢.

[2] شرح أشعار الهذليين: ١٦٤/١-١٦٥.

[3] رُهَاط: موضع على ثلاثة أميال من مكّة.

[4] شرح أشعار الهذليين: ١٠١٤/٣.

[5] كدُلح الشّرب المُجْتار: الشربة تكون حول النخلة.

[6] شرح ديوان زهير: ٣٧-٤٠، وانظر في أساليب السقي: مظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي: ١٠١.

[7] المقتلة: الناقة المُذلّلة. والنواضح: جمع ناضح، وهو البعير يُستسقى عليه. وجنّة سُحقا: يريد تسقي نخلا، وجعلها سُحقا أي متباعدة النّواحي فهي أحوج للماء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَهَا أداةٌ وأعْوَانٌ غَدَونَ لَهَـــــا قَتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفزِعَ انْسَحَقَـــا
وخَلْفَهَا سائِقٌ يَحْدُو إذا خَشِيَـتْ مِنهُ العَذَابُ تُمَدُّ الصُّلبَ والعُنُقَـــا
وَقابِلٌ يَتَغَنَّى كُلّما قَـــــدَرَتْ عَلى العَرَاقِي يَدَاهُ قائِماً دَفَقَـــا [1]
يُحيلُ في جَدْولٍ تَحْبُو ضَفَادِعُهُ حَبْوَ الجَوَاري ترَى في مَائِه نُطُقَا

ويظهر أنّ الأساليب التي اتّبعها الزّراع العرب في الجاهلية كانت على درجة كبيرة من التقدّم، وكانت لهم أساليب خاصة في المحافظة على المزروعات وما تُنتجه من ثمر، ومن مظاهر اهتمامهم بهذا الجانب أنهم كانوا يعملون ما يُسمّى بالرُّجبة أو التّرْجيب[2]، وهي عملية يتم بها تعهُّد الشجرة المُثقلة بالثّمار حِفاظاً عليها من أن تقع، فيُبْنى تحتها بناء من الحِجارة تَستند عليه، قال سلامة بن جندل[3]:

والقَادِياتُ أسَابيُّ الدِّماءِ بِهـــــا كأنَّ أعْنَاقَهَا أنْصَابُ تَرْجِيـــــبُ [4]

واتّبع الزُّرَّاع ما يُعرف بالتَّشْذِيب، وهو قطع زوائد الشجرة من أغصان وقَشْر ما عليها من الشوك، وهو ما يُعرف في العصر الحاضر بالتّقليم، إذ يتم التخلّص من الأغصان والأوراق الزائدة على الشجرة حتى تُنْتج أكثر، وقد جاء وصف هذه العملية في قول أبي داؤاد الإيادِي[5]:

وَهَادٍ تقدّمَ لا عَيْبَ فَيْـــــــــــ ـــهِ كالجَذْعِ شُذِّبَ عَنْهُ الكَـــرَبْ [6]

---

[1] القابل: الذي يتلقّى الدلو. العَراقي: الخشبتان كالصليب على الدلو يمسك بها أثناء رفعه.

[2] اللسان: مادة (رجب).

[3] ديوان سلامة، ٩٦، وانظر في هذه الأساليب: مظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي: ١٠٣-١٠٤.

[4] أسابي: جمع إسابة وهو الدم المُراق. والأنصاب: جمع نصب وهي الحجارة تنصب ليذبح عليها.

[5] ديوان أبي داؤاد الإيادي، جارية بن الحجاج، (ضمن دراسات في الأدب العربي لغوستاف)، ترجمة إحسان عباس وآخرون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩: ٢٩٠.

[6] الكرب: أصول السَّعَف الغِلاظ العِرَاض.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستعان الزُّراع بالكِمَام لتغطية عُذُوق النخلة وعناقد الكَرْمة لمنع تساقط الثمر وحمايته من الحر والطير، يبدو هذا في قول الأعشى[1]:

هُوَ الوَاهِبُ الكُومَ الصّفايا لِجَارِهِ يُشبَّهْنَ دَوْماً أو نَخيلاً مُكَمَّمَا

وإذا ما خِيفَ على النخل من السقوط جرّاء هبوب رياح قويّة قام الزّراع بعمل موانِع تحفظه من المَيْل، وربما يقصد بهذه العملية ما يُعرف بمصدَّات ، يبدو ذلك في قول ابن مُقبل[2]:

كَنَخْلٍ بِأعْلَى قُرْحَ حِيطَ فلم يَزلْ لَهُ مَانِعٌ حَتّى أتَى فَتَمَتَّعَا [3]

وكان الزُّرّاع يقومون بطحن الحبوب، وفي ذلك يقول المتلمّس الضُّبعي[4]:

يَا حَارِ إنّي لَمِنْ قَوْمٍ أُلي حَسَبٍ لا يَجْهلون إذا طَاشَ الضّغابيسُ [5]

آليْتُ حُبَّ العِرَاقِ الدّهرَ أطعَمُهُ والحَبُّ يأكُلُهُ في القَرْيَةِ السُّوسُ

وأشار الشعراء إلى اعتناء الزُّرّاع بطحن الحبوب بوساطة أداة مصنوعة من الحجر تسمّى المِرْضَاح، يتم بها ترضيح النَّوى ودقِّهِ، وقد جاء ذكر ذلك في قول أوس بن حجر يتحدّث عن الناقة[6]:

عَيْرانةٌ كأتَانِ الضّحْلِ صَلَّبَهَا جَرْمُ السَّوادِيِّ رَضَّوْهُ بِمِرْضَاحِ [7]

---

[1] ديوان الأعشى: ٢٩٧..

[2] ديوان ابن مقبل: ٣٧٢.

[3] قُرح: اسم موضع، وحِيط: بنى حوله حائطاً يحفظه.

[4] ديوان المتلمّس: ٩٦.

[5] الضَّغابيس: الضِّفاف واحدهم ضيْغوس.

[6] ديوان أوس: ١٨.

[7] عَيْرانة: ناقة صلْبة. وأتان الضّحْل: صخرة ملْسَاء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتسمّى أداة طحن الحبوب أيضاً بِالمِرْداة، تستخدم لكسر الشيء أياً كان، يقول عمرو ابن كلثوم[1]:

فَرَيْناكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ قُبيلَ الصُّبْحِ مِرْداةً طَحَونَا

ويُشبّه ابن مقبل النَّوى وقد تطاير تحت الحجر الذي يُضرب به بتطاير الحصى من تحت أرجل الناقة من أسفل المِرْضَحَة التي تُدَّق بها الحبوب، يقول[2]:

يَهْوِي لَها بيْنَ أيْدِيها وأرْجُلِها إذا اشفَترَّ الحصَى حُمْرٌ مَلاثيمُ [3]

رَضْخَ الإمَاءِ النَّوَى ردتْ نَوازِيَهُ إذا اسْتَدَرّتْ بأيْديها المَلادِيمُ [4]

وذهب جواد علي إلى "أنّ هذا النوع من الرّحى هو النوع المُحسّن الذي يُمثّل تقدّماً في صناعة طحن الحبوب، وقد عُثِر على نوع هو أبسط من الرَّحى المتقدمة، فهو عبارة عن حجر مائل نوعاً ما، أحد طرفيه مرتفع عن الطرف الآخر، يوضع الحبُّ عليه ثم يُسحق بحجر اسطواني الشكل في الغالب يُمسك بالأيدي من مِقْبض نُحِتَ على كل طرف من طرفيه ثمّ يُحرّك على الحبوب لسحقها، وقد يُقبض بطرفي الحجر ثمّ يُحرّك نحو الأسفل فالأعلى حتى تُسحق تلك الحبوب وتتحوّل إلى طحين"[5].

ويتبيّن مما سبق أنّ العرب الجاهليين الذين عملوا في حرفة الزراعة قد استخدموا أساليب متنوعة في الزراعة، بدأت من حِراثة الأرض وتهيئتها للزراعة حتى طلوع الغرس والشجر، والإشراف على سقيه، وتعهده بالعناية والمحافظة على ثمره، وفي هذه الأساليب التي جاءت واضحة في الشعر الجاهلي تظهر الصورة الحضارية بشكل جليّ، واتّضح أنّ بلاد اليمن كانت أكثر البلاد العربية شُهرة وتقدّماً في هذا الجانب؛ لِما شهدته من استقرار أدّى إلى ازدهار حضارتها.

---

[1] ديوان عمرو: ٧٦.

[2] ديوان ابن مقبل: ٢٧٢.

[3] حُمر ملاثيم: الحمر: حصى من دم أخفاف الناقة، والمَلاثيم: الحصى الذي يُلثم الناقة.

[4] الملاديم: جمع مِلْدام وهو حجر يُرضح به النّوى.

[5] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٧١/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

البناء والعمارة

أولاً: مواطن البناء والعمارة

ثانياً: أنواع البناء والعمارة

ثالثاً: مواد البناء والعمارة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: مواطن البناء والعمارة:

يُعدُّ فن البناء والعمارة أحد دلائل الحضارة ومقوّماتها ومعطياتهـا، وقـد تفـاوت ازدهار هذا الفن في البيئات العربية المختلفة في العصر الجاهلي، إذ إنّ مناطق الاستقرار هي أكثر الأماكن التي شهدت تطوّراً واضحاً في هذا الجانب، وقد تمثّل هذا الاستقرار فـي مناطق اليمن والحجاز والعراق وبلاد الشام، وكان لازدهار فن العمارة في البيئات العربية علاقة باتصال العرب بالأمم المجاورة، فهذا التأثير الخارجي لازم لمعرفة العمـل واتخـاذ أدوات خاصة في البناء، والحصول على المواد الخام الأولية، والعمّال المهرة في البناء.

ويتّضح المظهر الحضاري في فن البناء والعمارة من خلال دراسة مواطن العمران وأنواع المباني التي شُيّدت، والمواد الخام الأولية المختلفة التـي اسـتعان بهـا البنَّـاءون والصُنّاع في حرفة البناء، ولمّا كان الشعر الجاهلي صورة واضحة ومعبّرة عن المظـاهر الحضارية عند العرب، فقد عبّر هذا الشعر عن أنواع المباني والطرائق التـي اسـتخدمها العرب في البناء، والمواد التي استعان بها الصُنّاع في بناء مختلف المباني مـن قصـور وحصون وغيرها، وعلى هذا الأساس يمكن دراسة هذه المظاهر الحضارية التـي تـرتبط بالعمارة والبناء.

لقد ازدهر فن العمارة في مواطن كثيرة في العصر الجاهلي، وأكثر هذه المـواطن تلك التي كانت قريبة من عهد الحضارة، والتي توافر فيها مواد خام أولية سـاعدت علـى ازدهار فن العمارة وتعدّد أشكاله، ومن أشهر هذه المواطن بـلاد الـيمن، لأنّهـا كانـت متحضّرة، وتوافرت فيها المواد الخام الأولية التي ساعدت في بنـاء المسـاكن والقصـور وغيرها، وقد أشار القدماء إلى ما كانت عليه بلاد اليمن من تحضّر في جوانـب كثيـرة، قـال ابن الفقيه: "وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائق الشجر ما يستصـغر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما بُنيت في بلاد الأكاسرة والقياصرة، وقد تفاخرت الروم وفارس بالبنيان وتنافسوا فيه، فعجزوا عن مثل غُمْدان، ومَأرب، وحَضْرمَوْت، وقصر مَسْعود، وسد لُقمان، وسَلْحِين، وصِرْواح، ومِرْواح، وبَيْنون، وهِنْدة وهُنَيدة، وخَلْثوم، وبَرْيَدة، قال:

أبَعْدَ بَيْنون لا عَيْنٌ ولا أثَـــــرٌ وَبَعْدَ سَلْحِين يَبْنِي النَّاسُ بُنْيَانَـــــا

وبصنعاء غُمْدان قصر عجيب قد بُني على أربعة أوجه..."[1].

وأشار الجاحظ إلى ما كان عليه عرب الجاهلية من اهتمام في فن البناء والعمران، فقال: "ثمّ إنّ العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء وتفرّد في الشعر، فبنوا غُمْدان وكعبة نجران، وقصر مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب، والأبلق الفرد، وقبّة مارد، قالوا: "تمرَّد مارد وعزّ الأبلق" وغير ذلك من البنيان"[2].

ولهذا التفت الشعراء إلى وصف الآثار العمرانية التي شهدتها بلاد اليمن، لأنّها من أشهر البلاد العربية وأكثرها عِمراناً، فهذا علقمة ذو جَدن الحميري يصف بعض آثار اليمن التي لم يكن لأناس مثلها، يقول[3]:

هَلْ لأُناسٍ مِثْلُ آثارِهـــــــــم بمأْرِب ذَاتِ البِنَاءِ اليَفَـــــــــعْ

أوْ مِثْلُ صِرْواحٍ ومَا دُونَهـــا مِمَّا بَنَتْ بِلْقيسُ أوْ ذو تُبَـــــــعْ

وتشير الدراسات إلى أنّ مناطق صنعاء، وظفَار ونَاعِط، ومَأرب، ونَجْران، وحضرموت، ومَعِين، وبَراقش، هي أكثر المناطق التي ازدهر فيها العمران؛ لأنّها بلاد الحضارة التي عاش فيها العرب منذ أقدم العصور، وقد ساعد أهل اليمن على ذلك جبالها

[1] مختصر كتاب البلدان، ابن الفقيه: ٣٧.

[2] الحيوان: ٧٢/١.

[3] جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي: ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العالية التي تمدّهم بأحجار البناء المتينة، وبأنواع الصخور من رُخَام ومَرْمَر وجَزْع وغيرها[1].

ويبدو أن بلاد اليمن والجنوب الغربي من بلاد العرب عامّة أسبق عهداً وأقرب إلى الحضارة والتحضّر؛ لما اختصّت به هذه البلاد من طبيعة زوّدت المباني بحاجاتها من الجرانيت والرخام والمرمر، " ثمّ إنّ وقوع هذه البلاد قُرب البدو وإغاراتهم المخرّبة حفّز الناس على ضرورة بناء مساكنهم بناءً حصيناً. وأصبحت بلاد العرب الجنوبية بذلك أرض المعاقل والحصون التي ما زالت غنية بأطلالها إلى الآن. إنّ حصن غُمْدان في صنعاء الذي يبلغ ارتفاعه عشرين طابقاً، ومأرب بجدرانه التي بلغ ارتفاعها تسعة أمتار ونصف ...، وكذلك سدّ مأرب العظيم، الذي لا تزال تشاهد بقاياه، كل ذلك ينهض دليلاً على علو الفن المعماري وتطوّره عند عَرب الجنوب"[2].

وذهب جواد علي إلى أنّ أهل اليمن ممّن اختصّوا في صناعة البناء كانوا يتّبعون طُرقاً مختلفة في البناء، فكان من عاداتهم صهر الرصاص وصبّه بين حجارة الأعمدة وفي أسسها وتقويتها. وقد عثر المنقّبون على بقايا منه في مواضع مختلفة من الأماكن الأثرية في اليمن[3].

ومن القدماء من جعل تطوّر البناء وكثرة أشكال العمارة في بلاد اليمن أمراً لم تختصّ به بلاد أخرى؛ لما عُرِف عن اليمن من عراقة وتحضّر في مختلف نواحي الحياة: "ومن خصائص اليمن أيضاً أنّ فيه ما لم يكن في غيره من الحصون والمساكن العامرة

[1] في تاريخ العرب قبل الإسلام، سعد زعلول عبد الحميد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦: ٣٧٥.

[2] الحضارة العربية: ي. هل، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، دار الهلال: ص٢٠.

[3] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٤/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقصور العجيبة. وفيها قصر غُمْدان الذي بصنعاء وهو قصر عجيب فاخر أسّسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب"[1].

ولم تخلُ بلاد العرب من المدن القديمة التي عُرفت بطابعها التاريخي العريق، وهي على هذه الصفة شاهدٌ ماثل للعيان على رُقيِّ العمارة وعلو البنيان، فهناك مدينة مأرب المعروفة بعراقتها التاريخية، وقد كانت تُعرف قديماً باسم سبأ، نسبة إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك هذه الأسرة السبئية[2].

ومن مدن اليمن المتحضّرة صنعاء، وهي حاضرة اليمن، ومدينة نجران، ومدينة صرواح، وظفار المعروفة بأشهر قصورها، وغيرها من المدن[3].

ولعلّ قِدم هذه المدن، وشهرة ملوكها وعراقة أصلها، جعل اهتمام العرب بها في العصر الجاهلي واضحاً، ومهَّد لقيام حضارة مزدهرة، ساعد على رُقيّها هذا الاهتمام بفن العمارة والبناء في أرجاء اليمن، وقد جاء في الشعر الجاهلي وصف دقيق لمواطن البناء والعمارة من مدن، وقصور، وحصون، وبدت الإشارة جليّة إلى مواد العمارة، وهو ما يمكن الحديث عنه والتمثّل به عند الحديث عن أنواع المباني ومواد العمارة.

وفي القرآن الكريم إشارة واضحة لمِا كانت عليه بلاد اليمن من حضارة وعمران، وفي هذه الإشارة دلالة واضحة على عراقتها وقدمها في التاريخ، قال الله تعالى: ﴿ لقَد كانَ لِسبأ في مَسكنِهم آيةٌ عَن يَمينٍ وشِمَال. كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُم وأشْكُروا لَهُ بَلدةٌ طَيبةٌ ورَبٌّ غفور﴾[4]. ولأهمية بلاد اليمن، كانت مطمعاً للأمم الأخرى كالفرس والروم.

---

[1] نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية، ابن الديبغ الشيباني الشافعي، صنعة أحمد راتب خموش، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢: ٨٥.

[2] معجم البلدان، ياقوت الحموي: ١٨١/٣.

[3] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، السيد عبد العزيز، سالم: ٩٧-١٠٠.

[4] سبأ: (١٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن البلاد العربية الأخرى التي شهدت جانباً من العمران الحجاز، ويظهر أنها لم تكن بالمستوى الذي كانت عليه بلاد اليمن في هذا المجال، فكثير من الدراسات تشير إلى أنّ بعض مدن الحجاز اشتهرت ببناء الحصون التي اعتمدت في بنائها على المواد الخام المتوافرة في الجزيرة العربية، وبخاصة المصنوعة من الطين المشوي[1].

وعلى الرغم من بساطة المواد الخام التي كانت تستعمل في بناء الآطام والحصون، فإنّ بعض مدن الحجاز وبخاصةٍ يثرب عُرفت بآطامها وحصونها المنظمة تنظيماً هندسياً مما يعطيها ملمحاً حضارياً واضحاً، وقد أشار امرؤ القيس إلى أنّ هذه الآطام شُيّدت بطريقة محكمة لأنها بُنيت من حجارة ضخمة، فقال[2]:

وَتَيْماءَ لم يَتْرُك بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلا أُطُماً إلاّ مُشيَّداً بِجَنْدَلِ

ويظهر أنّ هذه الحصون والآطام التي اشتهرت بها بلاد الحجاز كانت معدّة لغرض يتعلّق بالحروب، فمن هذه الحصون المشهورة حصن الأبْلَق الذي يعود للسّموأل بن عادياء اليهودي، ويبدو أنّه كان على قدر من الإحكام والصلابة والمنعة، وقد جاء ذكره في قول السّموأل نفسه[3]:

بَنَى لِي عَادِياً حِصْناً حَصِيْناً ... ومَاءَ كُلَّما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

رَفِيْعاً تَزْلَقُ العُقْبانُ عَنْهُ ... إذَا مَا نَابَنِي ضَيْمٌ أَبِيْتُ

[1] المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٩/٨، ٢٢.

[2] ديوان امرئ القيس: ٦١.

[3] ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر، بيروت: ٧٩؛ وانظر، إشارات إلى بعض الأبنية المحاذية لنجد في الشعر الجاهلي، خليل الرفوع، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م٢٧، ع١، ٢٠٠٠م: ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشير الدراسات إلى أنّ الطائف اشتهرت بتحضّرها بفضل ما عُـرِف فيهـا مـن استقرار، فأهلها قد فاقوا بقية أهل الحجاز ببيوتهم المبنية بشكل مـنظّم، وبالأسـوار التـي أقيمت حول المدينة[١].

وممّا يدلّ على الدقّة في التنظيم والتصميم في دور العـرب ومنـازلهم فـي بـلاد الحجاز، أنها كانت مقامة بالحجر ومقسّمة إلى عدد من الغُرف، فقد أشار جواد علي إلى أنّ بيوتات الأثرياء وسادات العرب كانت على هذا الطراز من التصميم[٢].

ومن مواطن البناء والعمارة منطقة الحيرة، فقد عَرفتْ فن العمارة علـى أصـوله وتنظيمه بحكم مجاورتها لبلاد فارس، فأخذ فنّانو الحيرة أصول هذا الفن عن الفرس، لكنهم طوّروا في نظام العمارة؛ حتى أصبح طرازاً خاصاً بهم[٣].

وعرفت الحيرة بقصورها التي بُنِيت على طرازٍ مميّز، وتكاد تكون هذه القصور من أشهر ما عرف العرب، حتى إنّ الشعراء الجاهليين وصفوها بكل مـا فيهـا مـن حُسـن وزخرفة، دلالة على إحكام بنائها، ومن هذه القصـور الخَوَرَنْـق، والسّـدِير، والسِّـنداد، والعُنديب، والعَنْبر، والعَدسِيين، وغيرها[٤].

وقد اشتهرت الحيرة بكثير من الأديرة والكنائس، وهذا يعود إلى تنصُّـر المنـاذرة الذي أدّى إلى تنشيط حركة بناء الأديرة والكنائس[٥].

---

[١] الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، واضح الصمد: ٢٥٨.

[٢] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٤/٤.

[٣] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٧٣-٢٧٤.

[٤] المرجع نفسه: ٢٧٤-٢٧٦.

[٥] نفسه: ٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ ملوك الحيرة كانوا يتسابقون في بناء القصور والقلاع والبيوت، فقد تخيّروا لبنائها أمهر البناة، وأفضل المواد، حتى إنّ كثيراً من قصور الحيرة عُرِفت بأسمائهم، فهذا حسّان بن ثابت يشير إلى النعمان بن منذر الذي بنى الخورنق، فيقول[1]:

وَحَارِثَة الغِطْرِيف أوْ كَابْنِ مُنـذِرٍ وَمِثْلُ أبِي قَابُوس رَبِّ الخَوَرنَقِ

ولمّا كانت بلاد الحيرة على هذا الرُّقي والتحضّر في البناء والعمارة، فقد كانت قصورها وأديرتها وعماراتها المختلفة على أدقّ صورة من الإحكام والزخرفة، وهذا يعني أنّ البنَّاء الذي نهض بهذه الحرفة قد استعان بالرّخام والأحجار الضخمة، ومواد أخرى ساهمت في بناء أشهر أنواع المباني والعمارة، ويمكن أن تكون هذه المواد قد توافرت في بلاد الحيرة، أو وصل بعضها إليهم من بلاد فارس بحكم الموقع والجوار؛ ولهذا كثر الحديث في الشعر الجاهلي عن وصف الحيرة بما فيها من تطوّر في العمران، وهو ما سيأتي الحديث عنه عند دراسة أنواع المباني.

ومن المواطن الأخرى التي شهدت تطوّراً في فن العمارة مدينة الحَضْر، شمال العراق، فقد أقامت بعض القبائل العربية مملكة عُرِفت باسم (عربايا) أي بلاد العرب[2]. وأشار ياقوت الحموي إلى أنّ الحضر اسم مدينة بإزاء تَكْرِيت في البرية بينها وبين الموصل والفرات، وهي مبنيّة بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها، ويقال كان فيها ستون برجاً كباراً[3]. ويبدو أنّها تقع شمال غرب الموصل، وهي مدينة تجارية تاريخية مليئة بالآثار.

[1] ديوان حسّان بن ثابت: ٣٤٣، وانظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٢١٣/١.

[2] إشارات إلى بعض الأبنية في بعض البيئات المحاذية لنجد في الشعر الجاهلي، خليل الرفوع: ٨-٩.

[3] معجم البلدان: ٢٦٨/٢، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٧٧-٢٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد ذكرها في شعر الأعشى مشيراً إلى محاصرة سَابور والجنود لها، فقال[1]:

أَلَمْ تَرَىَ الحَضْرَ إذْ أَهْلُـــــــهُ بِنُعْمى وهَلْ خَالدٌ مَنْ نَعِـــــــمْ
أقامَ به شَاهَبُورُ الجُنُـــــــــو دَ حَوْلَيْنِ تَضْرِبُ فِيه القُـــــدَمْ [2]
فَمَا زادَهُ رَبُّهُ قُـــــــــــوَّةً ومِثْلُ مُجاوِرهُ لَمْ يُقِـــــــــــمْ

ويبدو أنّ الحَضْر قد أصبحت حِصْناً منيعاً؛ ولهذا جاءت في الشعر على أنها حصن له بَانٍ، قال عدي بن زيد[3]:

وأَخُو الحَضْرِ إذْ بَنَـــــاه وإذْ دِجْلَةُ يُجْبَى إليهِ والخَابُـــــــورُ
شَادَه مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْسَـــــــا فَلِلْطّيْر في ذُراهُ وَكُـــــــــورُ

وقد ورد أنّ الحَضْر عبارة عن قصر، ولكن يرجّح أن تكون مدينة بُنِي فيها قصـــر سُمّي باسم المدينة، ولهذا ذهب ياقوت الحموي إلى أنها مدينة تكثر فيها الأسوار والأبـــراج وغيرها من مظاهر العمران.

ويمكن القول بأنّ معظم المناطق والبلاد التي أقام فيها العرب في العصر الجـــاهلي قـــد شهدت ازدهاراً في الحركة العِمرانية، وبخاصةٍ بلاد اليمن والحجاز والعـــراق وبـــلاد الشام، وهي المناطق التي عرفت الاستقرار، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عـــن ازدهار العمران في الأمصار، فأهل الحواضر عاشوا حياة مستقرة، ولهذا راجت عنـــدهم صناعات البناء، قال ابن خلدون عن هذه الصناعة: "أولى صـــنائع العمـــران الحضـــري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المـــدن؛

[1] ديوان الأعشى: ٤٣.
[2] هو شاهبور بن هرمز، والقُدُم: جمع قَدوم.
[3] ديوان عدي بن زيد: ٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك أنّ الإنسان لِما جُبِل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بدّ أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحرّ والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسَّقف والحيطان من سائر جهاتها"[1].

ويظهر أنّ ازدهار العمران يُعد مؤشّراً من مؤشّرات ازدهار الحضارة وعراقتها، حتى إنّ الحضارة أحياناً تتفاوت بتفاوت العمران، فقد ذهب ابن خلدون إلى أنّ هذا الفنّ المتعلّق بالعمران بحاجة إلى تأنّق حتى تكون الحضارة بالعمران أكمل، قال: "فلتعلم أنّ الحضارة في العمران أيضاً كذلك؛ لأنّه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أنّ التّرف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذهب الحضارة والتخلّق بعوائدها، والحضارة كما علمت هي التفنّن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه ...، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل"[2].

ويمكن أن يدلّ هذا على أنّ البلاد العربية في الجاهلية التي شهدت استقراراً حضارياً، كانت أكثر ازدهاراً في فنّ العمارة، فضلاً عن توافر مواد خام ساعدت على ذلك، ووجود عمّال مهرة نهضوا بهذه الحرفة.

[1] مقدمة ابن خلدون: ٤٥١.

[2] المصدر نفسه: ٦٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: أنواع البناء والعمارة:

تبيّن في ضوء الحديث عن مواطن البناء والعمارة أنّ كثيراً من المناطق العربية في الجاهلية شهدت تحضّراً واستقراراً، إذ إنّ معظم ما شهدته البيئات العربية من حضارة ورقيّ واستقرار كان امتداداً لحضارات قديمة عريقة؛ ولهذا ازدهر فن العمارة ازدهاراً شديداً، فأينما وَجِد الاستقرار وُجِدت الحضارة العمرانية، ووفقاً لهذا فقد عَرفت البيئات العربية أنواعاً كثيرة من البناء والعمارة، ويعود هذا الاختلاف في تنوّعها وكثرتها إلى الاستقرار وإلى ما توافر في البيئات العربية من المواد الخام الأولية، وما كان يُجلب من البلاد المجاورة، فضلاً عن وجود عمّال مهرة نهضوا بهذه الحرفة، وهذه الأمور عبارة عن مقوّماتٍ ودعائمَ ساهمت في إعطاء العمارة شكلاً مميّزاً.

ويبدو أنّ التنوّع في المباني له دَلالة واضحة على أنّ مستويات البناء كانت تتّفق ومستوى الحياة الاجتماعية للأشخاص، فبُنيت القصور للملوك والسادة، وبُنيت المنازل البسيطة لمن هم دونهم في المنزلة، وشُيّدت الحصون والآطام والأسوار للدفاع عن الديار والمدن، وكانت الأديرة والحانات لأهل المجون، ويمكن دراسة أنواع المباني وفقاً لما جاء في الشعر الجاهلي، وما ورد في مظان القدماء الذين درسوا ديار العرب ومواقعها وحضارتها في عصر ما قبل الإسلام.

أ- **القصور:**

تكرّر ذكر القصور في الشعر الجاهلي، وصوّر الشعراء معظم ما عُرف منها في البيئات العربية، وبدت أهميتها في طريقة بنائها وما استخدم من مواد، وكان يُتخيّر لبناء القصور المكان المرتفع الذي يشرف على غيره من الأبنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمّا كانت اليمن في الجاهليّة أكثر بلاد العرب تحضّراً، بُني فيها عددٍ من القصور، فقد أحصى القدماء فيها مجموعة كبيرة من القصور، ومن ذلك ما جاء في قول الهمـــذاني يتحدّث عن قصور اليمن: "ونذكر الآن المشهور منها ذكراً مرسلاً، فأولها وأقدمها غُمْـــدان ثمّ تلفُم، ونَاعِط، وصِرْواح، وسِلْحِين بمأرب، وظفار وهَكر وضهر وشَبام وغَيمَان وبَيْنُون ورِيام وبَرَاقش ومَعِين ورَوْثان وإرْياب وهند وهُنيدة وعمران والنَّجير بحضرموت"[1].

ومن أعظم قصور اليمن ذكراً عند القدماء من المؤرّخين والشعراء الجاهليين قصر غُمْدَان المُقام في صنعاء[2]: "قال هشام بن محمد السّائب الكلبي: "إنّ اليَشْرَح بن يَحْصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطَيْوَة فأحضر البنّائين والمقدرين لـــذلك فمـــدّوا الخـــط ليقـــدّروه فانقضَّت على الخيط حِدْاة فذهبت به فاتبعوه حتى ألقته في موضع غُمدَان، فقـــال لِيَشْـــرَح: ابنوا القصر في هذا المكان، فبُني هناك على أربعة أوجه، وجه أبـــيض، ووجـــه أحمـــر، ووجـــه أصفر، ووجه أخضر، وبُني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كـــل ســـقفين منهـــا أربعون ذراعاً، وكان ظلّه إذا طلعت الشمس يُرى على عينين وبينهما ثلاثة أميـــال، وجعل في أعلاه مجلساً بناه بالرّخام الملوّن ...، وقال قوم إنّ الذي بنى غُمدان سليمان بـــن داوود عليه السلام".

يدلُّ وصف القصر على هندسة معمارية تمثّلت في التصميم الذي يبدو فـــي غُرفـــهِ وشرفاته، وتلك الأعمدة الرُّخامية، والحجارة الصلبة التي استعملت في البناء، وفـــي هـــذا تتجلّى الصورة الحضارية لفن البناء والعمارة، وقد أشارت بعض دراسات المستشرقين إلى

صفة جزيرة العرب: ٣٢٢، وانظر تاريخ مدينة صنعاء، الرازي، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٤٦٠هـــ)، هـــ)، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، ط٣، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ١٩٨٩: ٧٩.

[2] معجم البلدان: ٢١٠/٤، وانظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٢٠٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّ ارتفاع هذا القصر بلغ عشرين طابقاً، وأنّ ذلك ينهض دليلاً على علو الفن المعمـــاري وتطوّره عند عرب الجنوب[١].

وقد جاء وصف غُمْدان في قول أوس بن حجر مشيراً إلى حراسة الأحباش له دَلالة على أهميته[٢]:

وَلَوْ كُنتُ في غَمْدَانَ يَحْرُسُ بَابَهُ أَرَاجيلُ أَحْبُوشُ وأغْضَفُ أَلِـــفُ
إذاً لأَتَتْنِي حَيثُ كُنتُ مَنِيَّتـــــي يَخُبُّ بِها هَادٍ لإِثْرِيَ خَائِـــــفُ

ووصفه ذوجدن الحميري مشيراً إلى مكانته الكبيرة، إذ إنّه بُني في موضع مرتفـــع، أُسِّس بنيانه بحجارة ضخمة، وكُسيت جدرانه بالمرمر، وعُلِّقت بسقوفه المَصـــابيح، حتـــى أبهج الأبصار بجماله وطريقة تصميمه، قال[٣]:

وغُمْدَانَ الّذي حُدِّثْتِ عَنْـــــهُ بَنَاهُ مَشيداً في رَأْس نِيْـــــقِ
بِمَرْمَرَةٍ وأعْلاهُ رُخَـــــــامٌ تُخَامٌ لا يُعَيَّبُ بالشُّقُـــــــوقِ
مَصَابيحُ السَّليطِ يَلُحْنَ فِيـــــهِ إذا يُمْسِي كَتوْمَاضِ البُـــروقِ

ويُقال إنّ غُمْدان لم يزل قائماً حتى هدمه فروة بن مُسَيْك المرادي بـــأمر الرســـول عليه السلام، وقد قيل هُدِم في أيّام أبي بكر رضي الله عنه، وقيل هُدِم في أيّام عثمان رضي الله عنه[٤]. ولعلَّ هذا التضارب في الروايات، ينفي أنّ الرسول عليه السلام، أو خلفاءه مـــن بعده، قد أمروا بهدم بناء له أهمية كهذا القصر.

---

[١] الحضارة العربية، ي. هل: ٢٠.

[٢] ديوان أوس بن حجر: ٧٤، وانظر المفضليات: ٢٨٣، والبيتان منسوبان إلى ثعلبة بن عمرو العبدي.

[٣] معجم البلدان: ٢١٠/٤.

[٤] تاريخ مدينة صنعاء، الرّازي: ٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ معظم القصور تكثر فيها الشُّرف والممرّات، ولهذا كثر الحديث عنها في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول عدي بن زيد[١]:

تَرَكُوني لَدَى قُصورٍ وأعْـــرا ضِ قُصُورٍ لِزَيْفِهِنَّ مَرَاقـــي [٢]

وقال طرفة بن العبد مشبّهاً فخذي ناقته بِبَابين مشرفين مُؤخَرين إذا كانا لقصر مشرف[٣]:

لهَا فَخْذانِ أُكْمِلَ النّحْضُ فِيهمـا كَأَنّهُما بَابا مُنيفٍ مُمَـــدَّدِ

ومن قصور اليمن المشهورة قصر نَاعِط، وقيل هو حِصن في رأس جبل بناحية اليمن القديم قُرب عدن[٤].

وقد جاء وصف هذا القصر في قول امرئ القيس يهجو بني أسد ويستنجد بقيصر[٥]:

عَلَيْهَا فَتَىً لَمْ تَحْمِلِ الأرضُ مِثْلَـهُ أبَرَّ بميثاقٍ وَأوْفَى وأصْبَـرا

هُوَ المُنْزِلُ الآلافَ مِنْ جَوِّ نَاعِـط بَنِي أسَدٍ حَزْناً مِنَ الأرْضِ أوْعَرا

وجاء في بعض الدراسات التاريخية أنّ نَاعطاً قصر لملوك همدان بُني في أرض اليمن[٦]، وقد فضّله الهمذاني على غيره من القصور فقال: "فلم أرَ مثل نَاعِط ومَأْرب وضمر ولِنَاعط الفضل ..."[٧].

ويبدو أن أرباب هذا القصر من ملوك اليمن من همدان، وإلى هذا أشار لبيد بقوله[٨]:

---

[١] ديوان عدي بن زيد: ١٥٦.

[٢] الزّيف: شُرف القصور واحدته زيفة، يريد أنهم إذا مشوا فيها فكأنّما يصعدون في درج ومراقي.

[٣] ديوان طرفة: ١٥.

[٤] معجم البلدان: ٢٥٣/٥.

[٥] ديوان امرئ القيس: ٩٥.

[٦] بلوغ الأرب: ٢٠٤/١.

[٧] الإكليل، الهمذاني: ٨٣/٨.

[٨] شرح ديوان لبيد: ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَكَائِنْ رَأَيْتُ من مُلُوكٍ وسُوقَــةٍ وَرَامِلةٍ شُدَّتْ بِرَحْلٍ مُحبَّـــــــرِ
وأفنَى بنَاتُ الدّهْرِ أرْبَابَ نَاعِــطِ بِمُسْتَمِعٍ دُونَ السّماءِ ومَنْظـــــرِ

وذكرت المصادر القديمة والدراسات الحديثة التي تحدّثت عن بلاد اليمن، أنّ قصر ناعط يأتي من حيث الأهمية بعد قصر غُمدان، وكلاهما قصران من قصور الملوك، بـدت فيه صورة حضارية تمثّلت في طريقة البناء والتصميم الداخلي للقصر. ومن قصور اليمن كذلك، قصر غَيْمَان، فقد ذهب الهمذاني إلى أنّ هذا القصر كان مكاناً يُـدفن فيـه الملـوك والشرفاء[1].

ويظهر أنّ هذا القصر قد تعرّض للدّمار والخراب، فأمسى خاوياً سكنته الثعالب بعد أن أمّتهُ الملوك والسّادة، يبدو هذا الوصف في قول الأعشى[2]:

يَـا مَـنْ يَـرَى غَيْمَـانَ أمْـ سَى خاوِيَاً خَرِباً كِعَابُـــــــهْ
أمْسَى الثّعالِبُ أهْلَـــــــهُ بَعْدَ الذينَ هُمو مَآبُـــــــهْ
بَكَرَتْ عليهِ الفُرْسُ بَعْـــــ ـدَ الحُبْشِ حتَّى هُدّ بَابُـــــهْ
فَتَرَاهُ مَهْدومَ الأَعَـــــا لِي وَهوَ مَسْحُولٌ تُرابُـــــهْ

وأشارت الدراسات إلى قصور أخرى في بلاد اليمن، منها قصرا بَيْنُون وسِـلْحِين، وهما قصران قُرب صنعاء لملوك اليمن، وقد ذكرهما ذوجدن الحميري في قوله[3]:

يَا خِلَّتي ما يَرُدُّ الدَّمعُ مَا فَاتَـــا لا تَهْلَكي أسَفاً في إثْرِ مَنْ مَاتَـــا
هَلْ بَعْدَ غُمْدانَ أوْ سِلْحينَ مِنْ أثَرٍ أوْ بَعدَ بَيْنُونَ يَبْنِي النّاسُ أبْيَاتَـــا

[1] الإكليل، الهمذاني: ٨/٧٨.
[2] ديوان الأعشى: ٢٨٩.
[3] معجم البلدان: ٤/٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُعدّ قصر مأرب من أعظم قصور اليمن أيضاً، فهو عالي الجدران، بُني بطريقة محكمة زادته تحصيناً، وإلى هذا أشار جَهْمُ بن خلف في قوله[1]:

وَلَمْ تَدْفَعِ الأحْسَابُ عن رَبِّ مَأْرَبِ مَنيَّتَهُ ومَا حوَالَيْهِ مِنْ قَصْـــــرِ

تَرْقَى إليهِ تَارةً بعدَ هَجْعَـــــــةٍ بِأمْراسِ كَتّانٍ أُمِرَّتْ على شَـذَرِ

وقال في ذكره أبو الطَّمحان القيني[2]:

أمَا تَرى مَأرِباً ما كَانَ أحْصنُـــهُ وَمَا حوَالَيهِ مِنْ سُورٍ وَبُنيَـــــانِ

وعُرِف في اليمن قصر يسمّى القَشِيب، بناه الملك شُرَحبيل بن يَحْصُب، جاء ذكره في قول علقمة بن مَرْثَد بن عَلس ذِي جدن[3]:

أقْفَرَ مِنْ أهْلِهِ القَشِيـــــــبُ وَبَانَ عَنْ أهْلِهِ الحَبِيـــــــــبُ

وفي صنعاء قصر يُقال له كوْكَبان، وكوكبان جبل قُرب صنعاء وإليه يُضاف هذا القصر، وقيل: سُمي كذلك لأنّه كان مبنيّاً بالفضة والحجارة وداخله بالياقوت والجوهر، وكان ذلك الدُّر والجوهر يلمع بالليل كما يلمع الكوكب فسميَّ بذلك، وقيل إنّه من بناء الجِنّ[4].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا التنوّع والتعدّد في قصور اليمن يدلّ على مدى التحضّر الذي وصلت إليه بلاد اليمن، ولما كانت معظم مدنها مستقرّة فإنّها شهدت حضارة متقدّمة، ساعد على ازدهارها تعاقب الملوك الذين اهتمّوا ببناء القصور العظيمة اهتماماً ملحوظاً؛ لأنّها تعكس مكانتهم وعزّهم.

---

[1] معجم البلدان: ٣٧/٥.

[2] السيرة النبوية، ابن هشام: ٣٢/١.

[3] معجم البلدان: ٣٥٢/٤، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٨٥-٢٨٦.

[4] معجم البلدان: ٤٩٤/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما قصور الحيرة فهي لا تقلّ ذكراً وشهرةً في الروايات والأخبار، ولا وروداً وتردّداً في الشعر الجاهلي، وبخاصة الخَورْنق والسَّدِير، فهما قصران عظيمان مشهوران، ويمكن القول بأنّه لا يُعرف للعرب خارج اليمن قصور هامّة كقصور اليمن إلاّ في الحيرة، حيث كان الخَوْرنق والسّدير[1].

أمّا الخورنق، فكان بظهر الكوفة بناه رجل من الروم يُقال له سِنمَّار للملك النعمان الأكبر بن امرئ القيس اللّخمي، الملقّب بالمُحرّق، في مدة عشرين سنة، فلما فرغ من بنائه ألقاه الملك من أعلاه فقتله لئلا يبني مثله لغيره، فضربت العرب بذلك المثل (جزاء سنمَّار)[2].

ويقع هذا القصر على بُعد ثلاثة أميال من الحيرة، ويقال إنّه لفظ فارسي معرّب أصله (خُورَنْ كَاه) يعني موضع الأكل والشرب[3].

وأمّا قصر السّدير، فهو لا يقلُّ أهميّة عن الخورنق، وهو لفظ فارسي أيضاً أصله (سِه دَلَه) أي فيه قباب متداخلة، ويقع السّدير قرب الخورنق وسط البرية التي تتّجه إلى الشام، وقيل سُمي بهذا لكثرة شجره[4].

ويبدو أنّ العمارة في الحيرة اتّخذت نظاماً معيّناً، وبخاصة عمارة القصور من حيث التصميم الداخلي للقصر المتمثل بالقباب، ولعلّ قصري الخورنق والسّدير من أعظم القصور التي عرفها العرب، ولهذا تحدّث الشعراء الجاهليون كثيراً عن هذين القصرين،

[1] في تاريخ العرب قبل الإسلام، سعد زغلول: ٣٩٣.

[2] بلوغ الأرب: ٢١٣/١، ومعجم البلدان: ٤٠٢/٢.

[3] معجم البلدان: ٤٠٢/٢، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٠١/٣.

[4] معجم البلدان: ٤٠٢/٢، وانظر معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، عاصم محمد رزق، ط١، مكتبة مدبولي: ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأبدعوا في تصويرها بصور كثيرة، فبدت صورة العظمة والشموخ، فهذان القصران بُنيا بطريقة محكمة، وبمواد أولية خاصة ساعدت في رصّ بنيانهما.

ومما جاء في وصف الخورنق قول عدي بن زيد[1]:

خفَّ القَطينُ وأَخْلَفُوا أربِي وأعْتَادَنِي مِنْ ذِكْرِهُمْ وَصَبِي

واحْتَلَّ أَهْلِي بِالخَورْنَقِ والـ ـحَيرةِ وَاحتَلُّوا بِذي حُشُبِ [2]

وورد ذكره في وصف عَدِي بن زيد للنعمان بن المنذر، وقد أخذ يتأمّل في حياة المُلك وما تؤول إليه بعد الموت، إذ يقول[3]:

وتَأمَّلْ رَبَّ الخَوَرْنَق إذْ أشْـ ـرَفَ يَوْماً وللْهُدى تَفْكيرُ

سَرّهُ حَالُهُ وكَثرةُ مَا يَمْـ ـلِكُ والبَحْرُ مُعْرِضٌ والسَّدِيرُ

فَارْعَوى قَلْبُه وقَال ومَا غِبْـ ـطَةُ حَيٍّ إلى المَماتِ يَصيْرُ

وقد أدرك الشعراء أهمية هذين القصرين، ولهذا اقترن اسم السّدير بالخورنق، ومن ذلك قول المُنخّل اليشكري[4]:

فَإذا انْتَشَيْتُ فَإنَّنِي رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسّدِيرِ

وَإذا صَحَوْتُ فَإنَّنِي رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعيرِ

وذكر سلامة بن جندل السّدير بقوله[5]:

أبَى القَلْب أنْ يأتِي السّديرَ وأهْلَهُ وإنْ قِيلَ: عَيْشٌ بِالسّديرِ غَرِيْرُ

---

[1] ديوان عدي: ٨٠.

[2] ذو خشب: موضع، وهو وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة.

[3] ديوان عدي: ٨٩.

[4] المفضليات: ٥٣.

[5] ديوان سلامة: ٢٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنّ مثل هذه القصور قد اكتسبت عظمة وشموخاً من عظمة أربابها من الملوك، ومن هنا فإنّ الشعراء غالباً ما نسبوا القصور إلى أربابها من الملوك، ومن ذلك ما جاء في قول حسّان بن ثابت مشبّهاً نفسه بالعظام من الملوك[١]:

كَجَفْنَةَ والقمْقامِ عَمْرو بن عَامِرٍ وأوْلادِ مَاءِ المُزْنِ وابْنَيْ مُحَرِّقِ

وَحَارِثَةِ الغِطْرِيفِ أو كَابْنِ مُنْذرٍ ومِثْلِ أبي قابُوسَ رَبِّ الخَورْنَقِ

وتشير الدراسات إلى وجود قصور أخرى في أرض الحيرة، منها قصر سِنْداد، الذي يقع بين الحيرة والأيلة، وكان منزلاً لإياد[٢]، وقد جاء ذكره في قول الأسود بن يعفر مشيراً إلى الخورنق والسّدير، وقصر سنداد ذي الشُرفات[٣]:

مَاذا أُؤمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَركُوا منازِلَهُمْ وبَعْدَ إِيادِ

أهْلُ الخَورْنَقِ والسّدِيرِ وبَارِقٍ والقَصْرِ ذي الشُّرفاتِ مَن سِنْدادِ

وقال المتلمس لعمرو بن هند ذاكراً الخورنق والسّدير وقصر سنْداد[٤]:

أَلَكَ السَّدِيرُ وَبَارِقٌ ومُبَايضٌ ولَكَ الخَوَرْنَقُ [٥]

والقَصْرُ ذُو الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادِ والنّخْلُ المُبَسَّقُ [٦]

---

[١] ديوان حسّان: ٢٩٨.

[٢] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٧٦.

[٣] المفضليات: ٢١٧.

[٤] ديوان الملتمس: ٢٤١.

[٥] مُبايض: موضع كان فيه يوم للعرب قُتل فيه طريف بن تميم فارس بني تميم، وقُتِل فيه أبو جدعاء الطُّهوي، انظر معجم البلدان: ٥/٥١. وبارق: ماء بالعراق وهو الحدّ بين القادسية إلى البصرة.

[٦] المُبسَّق: المُستوي حتى يُصعد عليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن قصور الحيرة كذلك قصرا العُذيب والصَّنبر، نُسب بناؤهما لأمرئ القيس بن النعمان بالقرب من الفرات، ومنها قصر الفرس، وقصر الزوراء، ومن أهم قصور الحيرة أيضاً قصر العدسيين، ويُنسب إلى بني عمّار بن عبد المسيح بن قيس بن حَرْملة بن علقمة ابن الكلبي، وسُمي كذلك نسبة إلى جَدّتهم عدَسة بنت مالك بن عوف الكلبي، ويقع هذا القصر في طرف الحيرة[1].

ويبدو أنّه لم يرد ذكر لهذه القصور فيما بقي من الشعر الجاهلي، ولا يعني هذا أنّ هذه القصور كانت قليلة الأهمية.

ومما يجدر ذكره أنّ كثرة هذه القصور تدلّ على فن عُمراني مزدهر في بلاد الحيرة، وفي هذا دِلالة واضحة على مدى التحضّر في تلك البلاد، وما توافر فيها من مواد أوليّة، وعمّال مهرة نهضوا ببناء أعظم القصور.

وثمّة صورة واضحة تضمّنها الشعر الجاهلي الذي وصف القصور، وهي تبدو في رؤية الشاعر الثاقبة للحياة والواقع الحضاري، وجاءت هذه الرؤية عن طريق تشبيه الناقة القوية التي تتحمّل المصاعب بالقصر القوي المتماسك المحكم البنيان، وفي هذه الصورة دِلالة على مظهر حضاري مادي يتمثّل في طريقة البناء ودرجة إحكامه، فهذا دريد بن الصِّمة يجعل من ناقته قصراً أُحْكِم بناؤه، قد شُيِّد بِالطّين، يقول[2]:

لَمَّا رَأَيْتُ بِأَنْ جُدُّوا وشَيّعنِي ... يَوْمُ الصَّبَابَةِ والمَنْصورُ مَنْصُورُ

واكبَتُهُمْ بِأَمُونٍ جَسْرَةٍ أُجُرٍ ... كَانَّها فَدَنٌ بِالطِّينِ مَمْدورُ

ويشبه لبيد النّاقة بالقصر ذي البنيان المتماسك، يقول[3]:

---

[1] معجم البلدان: ٣٦٠/٤، وانظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، السيد عبد العزيز سالم: ٢٧٦.

[2] ديوان دريد: ٧٣، وانظر في هذا المعنى: شرح حماسة أبي تمام: ١٠٠٠/٢.

[3] شرح ديوان لبيد: ١٤٠، وانظر ديوان عنترة بن شداد: ١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَصَدَدْتُ عَنْ أطلالِهنَّ بِجَسْـرَةٍ عَيْرَانةٍ كَالعَقْرِ ذِي البُنيـــــانِ

وتظهر هذه الصورة كذلك في قوله[1]:

كَعَقْرِ الهَاجِرِيِّ إذا ابْتَنَـــــاهُ بِأَشْباهٍ حَذَيْنَ عَلى مِثَـــــالِ

وثمّة صورة أخرى لافتة للانتباه، وهي أنّ الشاعر الجاهلي تصوَّر بنـاء القصـر مـن الداخل، وعَرف تصميمه وما فيه من شُرف وأبواب، وتدلّ هذه الصورة على إنجـاز حضاري، وتبدو هذه الصورة في قول طرفة بن العبد يشبّه فَخْذي الناقة المُكْتمِلـين بِبَـابي قصر مُشْرف[2]:

لَهَا فَخْذَانِ أُكْمِلَ النَّحصُ فِيهمـا كَأَنَّهُما بَابَا مُنيفٍ مُمَـــــدَّدِ

ويرى زهير بن أبي سلمى أنّ ناقته تبدو كالقصر المبوَّب الواسع الذي تدور حوله البناة، يقول[3]:

وكَأَنّهَا إذا قُرِّبَتْ لِقُتُودِهـــــا فَدَنٌ تطُوفُ بهِ البُناةُ مُبـــوَّبُ

ب- الآطام والحصون:

[1] شرح ديوان لبيد: ٧٦.

[2] ديوان طرفة: ١٥.

[3] ديوان زهير: ٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الشعر الجاهلي مظهر آخر للبناء والعمارة، يتمثّل في الآطام والحصون التي انتشرت في مختلف البيئات العربية، ولمّا كانت اليمن من أكثر البيئات العربية تقدّماً وازدهاراً وقرباً من مناطق الحضارة والرُّقي، فإنها كانت زاخرة بالقصور والحصون والمساكن، حتى إنّ الازدهار العمراني كان خصيصة من خصائصها التي امتازت بها، هذا ما يبدو في وصف القدماء لبلاد اليمن: "ومن خصائص اليمن أيضاً أنّ فيه ما لم يكن في غيره من الحصون والمساكن العامرة، والقصور العجيبة الفاخرة"[1].

وأشار الهمذاني إلى كثرة الحصون في بلاد العرب، وبخاصة حصون اليمن، فقال[2]: "الحصون منها المشهورة: صنَاع والقمر، وجَبْل حَب ووَرَاخ والعَود وتَعْكُر، وصَبْر والجُؤْ وقُرعْدُ، وخَلَقة ورَيمة الكِلاَع وكَحْلان ومَثْوَة وضَلَع ورَيْمَة وبُرع وشِبام حَرَاز، ومسار حَرَاز، وحَراز المُسْتحْرِزَة وضَوْران ونعمان ورأس حضور ويُسمى بيت خولان وجبل تخلى – وهو وِهْنَوَم الرأس منها، وحجّة ومَوْتك وشظب ومُذرح، ومُدَع وحضَور بني إزاد وناعط، وتنِعمة وذَباب وصرع وقلعة ظهر، ويَكْلى وهكر وتَلفُم وذَرْوة[3]، وعُولي ووَعيلة ورَيْشان ومَحْيَب ومُدَع وشُهارة والعيلاء[4]، وحصن العَشَّة وأبْذر وعُراش وغيْلان والغرا وبرَّان ودفا، وعنم والخُنْفَعَرَّ من بلد حَوْلان".

---

[1] نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية، ابن البديع الشيباني: ٨٥، وانظر في خصوصيّة حصون اليمن، محمد عبده غانم: اليمن في الشعر غير اليمني حتى أواخر العصر العباسي، مجلة كلية الآداب، ع٣، صنعاء، ١٩٨١: ٢٣٩-٢٤٠.

[2] صفة جزيرة العرب: ٢٣٨.

[3] ذروة: حِصن منيع ومعقل أشم في خارف والصيد ويطل على ذي بين من بلد حاشر. انظر معجم البلدان: ٥/٣.

[4] شُهارة: من حصون صنعاء باليمن، كانت ممّا استولى عليه عبد الله بن حمزة الزيدي الخارجي أيّام سيف الإسلام، انظر معجم البلدان: ٣٧٤/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنّ العناية ببناء الحصون والآطام لم تقل عن العناية ببناء القصور، فهي على درجة من الأهمية؛ لأنّها استخدمت ملجأ من الأعداء المهاجمين، ولهذا جاءت الآطام والحصون منظمة تنظيماً هندسياً دقيقاً محكماً.

وذهب جواد علي إلى أنّ بعض العرب أطلقوا على حصونهم لفظة القصر، فقال[1]: "وقد أطلقها عرب العراق لفظة قصر على حصونهم التي كانوا يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم، فكانت الحيرة مكوّنة من قصور، أقامها أشرافها، واتّخذوها بيوتاً لهم، وحماية لأموالهم، وملجأ يلجأ إليه أتباعهم عند دنو الخطر للدفاع عن سادتهم وعن أموالهم، يصعدون إلى أعلى القصر، فيرمون المهاجم بالحجارة والخزف والسهام والنار، ويصبّون عليه الماء الحار".

ولعلّ هذا يعود إلى أهمية الحصون وحرصهم على تنظيمها وإحكام بنائها، حتى إنّ بعضها كان مكوّناً من عدّة طوابق، وهي بهذا شبيهة بالقصر، وقد أشار جواد علي إلى هذا الأمر أيضاً عند حديثه عن آطام يثرب، التي امتازت بنوع خاص من الأطم، إذ تتكوّن من طابقين في الغالب أو ثلاثة طوابق[2].

ومن هنا يتّضح أنّ الحصن بناء ضخم مصمّم تصميماً خاصّاً يناسب الغرض الذي بُني من أجله، وهذا لا ينفي حرص البنّائين على توشية الحصن من الداخل والخارج، والاعتناء بالسُّقف والجدران، وهذا يدلّ على منعته وصلابته من جانب، ويدلّ على أنّه يعود إلى السادة العظام من جانب آخر.

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٤/٨، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٨٩-٢٩٠.

[2] المرجع نفسه: ٩/٨، ٣٥، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أكثر حصون اليمن المشهورة التي جاء ذكرها في أشعار الجاهليين حصن (رَيْمَان)، ويمكن أن يكون قصراً كان يُدفن فيه ملوك اليمن وعظماؤها، ومما جاء في ذكره قول ابن مقبل يصف منعته وارتفاعه[1]:

زَارَ الخَيالُ لِدَهْمَاءَ الرّكابَ وقَدْ نَامَ الخَلِيُّ بِبَطْنِ القَاعَ مِنْ أُسُنِ
مِنْ طَيّ أَرْضَيْن أوْ مِنْ سُلَّمٍ نَزِلٍ مِنْ ظَهْرِ رَيْمَانَ أوْ مِنْ عَرْضِ ذي جَدَنِ

وقال يذكر أهل هذا الحصن[2]:

لَمْ تَسْرِ لَيْلَى ولَمْ تطْرُقْ بِحَاجَتِها مِنْ أهْلِ رَيْمَانَ إلاّ حَاجَةً فِينَا

وقال أوس بن حجر يذكر ريمان ومنعته، وكيف أنّ صلابته وقوّته لا تدفع عنه المنية عند مجيئها إياه[3]:

ولَوْ كُنْتُ في رَيْمَانَ تَحْرُسُ بَابَهُ أرَاجيلُ أُحْبُوشٍ وأغْضَفُ آلِفُ [4]
إذَنْ لأَتَتْنَي حَيْثُ كُنْتُ مَنيَّتي يَخُبُّ بِهَا هَادٍ لإِثْرِيَ خائِفُ

وغالباً ما تظهر صورة الحصون جليّة عند حديث الشعراء عن الملوك والسّادة، ودورهم في الدفاع عن الحصن محافظة عليه من الوقوع في سطوة العدو، أو أن يتعرّض إلى الدمار والخراب؛ ومن الملاحظ كذلك أنّ بعض حصون اليمن كانت تُتخذ على شكل قصر، ولهذا يجد الدارس للشعر الجاهلي اختلافاً في أسماء بعض الحصون، ومن ذلك حصن ريمان الذي ورد في شعر الأعشى على أنّه قصر سُمي غيمان[5].

---

[1] ديوان ابن مقبل: ٣٠٨.
[2] المصدر نفسه: ٣١٦
[3] ديوان أوس: ٧٤.
[4] الأحبوش: الجماعة.
[5] ديوان الأعشى: ٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب ياقوت الحموي إلى أنّ اليمن اشتهرت بحصن لم يُبنَ مثلــه، يســمّى هــذا الحصن (رِيْدَان) وهو في مِخْلاف يحصب[١].

وقد أشار إليه جواد علي عند حديثه عن ملوك حمير فقال[٢]: "وقد كان الحميريــون يسيطرون على القسم الجنوبي الغربي من العربية الجنوبية، ولا سيما فــي مدينــة ظفــار وحصنها الشهير المعروف بــ (ريدان) الذي يرمز إلى ملوك حمير والذي يحمي العاصمة من غارات الأعداء، وهو بيت الملوك وقصرهم أيضاً".

ويبدو أنّ هذا الحصن كان يُعرف بــ (ذي ريدان) ولما كان الحميريون يقيمون في الأرض المعروفة بــ (ذي ريدان) وذلك حينما كانوا أتباعاً لمملكة قتبــان، أطلقــوا علــى الحصن الذي بنوه بــ (ظفار) حصن ذي ريدان، تيمُّناً باسم قصرهم القديم، فــأطلقوا (ذي ريدان) على وطنهم الجديد الذي أقاموا فيه بعد ارتحالهم عن قتبان، ليذكرهم باسم وطــنهم القديم[٣].

وقد ورد ذكر هذا الحصن في شعر امرئ القيس، إذ يقول[٤]:

تَمكَّن قَائِماً وبنى طَمّــــــــراً على ريْدَان أعْيطَ لا يَنَــــــــال

وفي الشعر الجاهلي ذكر حصن آخر في بلاد اليمن، يسمّى (بَرَاقش)، وهو حصــن حصين منيع، قال فيه علقمة الفحل مشيراً إلى أنّه بُني على أرض قفراء[٥]:

وَهَلْ أَسْوَى بَراقِشُ حِينَ أَسْوى بِبَلْقَعَةٍ ومُنْبَسِــطٍ أَنِيــــــــقِ

وحَلَّوا مِنْ مَعِينٍ يَوْمَ حَلُّــــــوا لِعِزَّهِمُ لَدَى الفَجِّ العَميــــــــقِ

---

[١] معجم البلدان: ١١١/٣.

[٢] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥١٦/٢.

[٣] المرجع نفسه: ٥١٦/٢، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٩٥.

[٤] ديوان امرئ القيس: ٤٧٢.

[٥] ديوان علقمة: ١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الشعر الجاهلي ذكر لحصون الحجاز، ومن ذلك حصن (الأبْلَق)، ويُنسب هـذا الحصن إلى السموأل بن عادياء اليهودي، وهو يشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب، فيه آثار من أبنية من لِبن، وإنما قيل له الأبلـق لأنّ فـي بنائـه بياضـاً وحُمرة[1].

وممّا يدلّ على أنّ أول من قام ببنائه عاديا أبو السموأل قول السموأل في ذلك[2]:

بَنى لِي عَادِياً حِصْناً حَصِينـاً ... ومَاءً كُلَّما شِئْتُ اسْتَقَيْـتُ

رَفِيعاً تَزْلَقُ العُقْبانُ عَنْـهُ ... إذا مَا نَابَني ضَيْمٌ أبِيـتُ

ويستنتج من قول السموأل أنّ هذا الحصن كان قوياً شاهقاً، مُحصّناً يحمي صاحبه من كـل ضيم وجور.

ويبدو أنّ هذا الحصن كان يُسمّى الأَبْلق الفَرد، لا يوصل إلى ذروته وشموخه وعلو بنيانه، وإحكام صنعته، يقول السموأل[3]:

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ من نُجيـرُهُ ... مَنيعٌ يَرُدُّ الطّرْفَ وهُوَ كَلِيـلُ

رَسَا أصْلُهُ تَحْتَ الثَّرى وسَما بهِ ... إلى النَجمِ فَرْعٌ لا يَنَالُ طَويـلُ

هُوَ الأَبْلَقُ الفَرْدُ الذي سَارَ ذِكْرُهُ ... يَعزُّ عَلى مَنْ رَامَهُ ويَطُـولُ

ويظهر هذا الحصن في شعر الأعشى على درجة كبيرة من الفخامة والعظمة، حتى إنّه نسب بناءه إلى سليمان عليه السلام، وهذا ما زعمته الروايات والأساطير، فهو يصـف هذا الحصن وقد تطاول بنيانه في السماء، ثمّ هو يكشف عن جانب حضاري يظهـر فـي حديث الشاعر عن تصميم الحصن من الداخل والمواد الخام التي بُني منها، والغرف التـي

[1] معجم البلدان: ٧٥/١.

[2] ديوانا عروة بن الورد والسموأل: ٧٩.

[3] المصدر نفسه: ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت تُشرب فيها الخمر، وعلى الرغم من هذا الوصف إلاّ أنّه لم يمنع من بناه وتنعَّم بملكه من الموت، يقول الأعشى[1]:

وكِسْرى شَهِنْشاهُ الّذي سَارَ مُلْكُهُ لَهُ ما اشْتَهى رَاحٌ عَتيقٌ وزنْبَــقُ
ولاَ عَادِيا لَمْ يَمْنَع المَوْتَ مالُــهُ وَحِصْنٌ بِتَيمَاءَ اليهُوديِّ أبْلَـــقُ
بَنَاهُ سُليمانُ بنُ دَاودَ حِقْبـــــةً لَهُ أزَجٌ عَالٍ وَطيٌّ مُوَثّـــــقُ
يُوازي كُبَيْدَاءَ السّمَاءِ ودُونَـــهُ بَلاَطٌ ودَارتٌ وكِلْسٌ وخَنْـــدَقُ
لَهُ دَرْمَكٌ في رَأْسِهِ ومَشَــاربُ ومِسْكٌ وَرَيْحَانٌ ورَاحٌ تُصفِّـــقُ [2]
وحُورٌ كأمْثالِ الدُّمى ومَناصِفُ وقِدْرٌ وطَبّاخٌ وصَاعٌ ودَيْسَـــقُ
فذاكَ ولَمْ يُعْجِزْ مِن الموْتِ رَبَّهُ ولكنْ أتَاهُ الموتُ لا يَتَأَبَّـــــقُ

ويدلّ هذا الحصن على تقدّم وازدهار في صنعة البناء وإحكامــه، وتؤكّــد معظــم أوصافه في الشعر الجاهلي منعته وعلو بنيانه، وقال الأعشى يصفه من قصيدة له في مدح شريح بن حصن بن عمران بن السموأل[3]:

بالأبْلَقِ الفَردِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُـــهُ حِصْنٌ حَصينٌ وجَارٌ غيرُ غـــدّارِ

وتبدو صورة حضاريّة أكثر جمالاً في قول حسّان بن ثابت يفتخر بآطامه ونخيله[4]:

لَنَا حُرّةٌ مَأطُورةٌ بِحِيَالِهَـــــــا بَنَى المَجْدُ فِيها بَيْتَهُ فَتَأَهَّـــــلا
بِهَا النّخْلُ والآطامُ تجري خِلاَلَها جَدَاوِلُ قَدْ تَعْلو رِقَاقاً وجَــرْولاً

[1] ديوان الأعشى: ٢١٧، وإشارات إلى بعض الأبنية في بعض البيئات المحاذية لنجد، خليل الرفوع: ٧.
[2] الدّرمك: التّراب الناعم.
[3] ديوان الأعشى: ١١٦، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٢٩٢.
[4] ديوان حسّان: ٤٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واشتهرت أرض جَوَّ وهي اليمامة بآطامها، وفيها قال الأعشى[1]:

ألَمّتْ بِأقْوَامٍ فَعَافَتْ حِيَاضَهُـــمْ قَلُوصي وكَانَ الشَّربُ مِنْهَا بِمَائِكا

فلّما أتَتْ آطامَ جَوٍّ وأهْلَـــــــهُ أُنِيخَتْ وألْقَتْ رَحْلَها بِفِنَائِكـــــا

ومن حصون هَجَر في البحرين، والذي نال شهرة كبيرة، حِصن المُشقَّر، الذي كان يشكّل موقعاً حضارياً بالغ الأهمية؛ لخصوصيّة مكانه، وإحكام بنائه وتصميمه، وقد أشـــار الجغرافيون إلى أنّه حصن في البحرين يعود إلى عبد القيس[2]، وذكر الهمذاني أنّ المُشـــقَّر نحو هجر، وأنّه أرض البحرين[3]، وجاء في الاشتقاق: "والمُشقَّر: موضع بالبحرين زعمـــوا ممّا بُني في الدهر الأول"[4]، وذهب الميداني إلى أنّه حصن قديم من أرض البحرين[5]. ويتبيّن من ذلك كلّه، أنّ المُشقَّر من حصون هجر المشهورة، كان عظيم الشأن في الجاهلية، يـــدلّ على ذلك حديث المؤرّخين والجغرافيين عنه، ووصفهم لضخامة بنائه وقوة أركانه[6]، ومـــن هنا جاء ذكره كثيراً في أشعار الجاهليين، ومن ذلك قول الأعشى مشيراً إلى يوم المُشـــقَّر واعتداء بني تميم على قافلة لكسرى واحتمائهم بحصن المُشقَّر[7]:

سَائِلْ تَمِيْمَاً بِهِ أَيَّامُ صَفْقَتِهِـــــمْ لمَّا رَآهُمْ أُسَارَى كُلُّهمْ ضَرَعَـــــا

وَسْطَ المُشقَّرِ في عَيْطاءَ مُظْلِمَةٍ لا يَسْتطيعُون فِيها ثَمَّ مُمْتَنَعَـــــا

---

[1] ديوان الأعشى: ١٤١.

[2] انظر: معجم ما استعجم، البكري، أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز، تحقيق مصطفى الســقا، القــاهرة، ١٩٤٥: ١٢٣٢/٢؛ ومعجــم البلدان: ١٣٤/٥.

[3] صفة جزيرة العرب: ٣١٤.

[4] الاشتقاق، ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١: ١٩٧.

[5] مجمع الأمثال، الميداني، أبو الفضل النيسابوري، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت: ٤٣٣/٢.

[6] انظر حديثاً مفصّلاً عن هذا الحصن: المُشقَر في الشعر الجاهلي، خصوصية المكان، عبد الحميد المعيني، مجلة الدرعيّــة، الســعودية، العددان السادس والسابع، ١٩٩٩: ٥٤٩-٥٥٥.

[7] ديوان الأعشى: ١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار المُخبَّل السعدي إلى أنّ المُشقَّر قد بُني على مكان مرتفع، دلالة على تخيُّر الأماكن المرتفعة لبناء الحصون، قال[1]:

وَلَئِن بَنَيْتَ لِيَ المُشقَّرَ فـــــي هَضْبٍ تُقَصِّرُ دُونَهُ العُصْمُ

لَتُنَقِّبــنْ عَنِّــي المَنِيَّـــــةَ إنَّ اللهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْـــــــمُ

ويبدو أنّ هذه الحصن كان يتّصف بالمنعة والقوة وبتماسك في البنيان، ولهذا اتّخذه بعض الشعراء مداراً للعبرة في أنّ الإنسان لا يستطيع دفع الموت عنــه بالتحصّــن بهــذا الحصن، يظهر هذا في قول لبيد بن ربيعة العامري[2]:

وَأَهْلَكْنَ يَوْمَاً رَبَّ كِنْدَةَ وابْنِـــــــهِ وَرَبَّ مَعَدٍّ بَيْنَ خَبْتٍ وَعَرْعَرِ [3]

وأعْوَضْنَ بِالدُّومِيِّ مِنْ رأسِ حَصْنِهِ وَأَنْزَلْنَا بالأسْبَابِ رَبَّ المُشقَّرِ

وورد ذكر المُشقَّر في قول لامرئ القيس يشير فيه إلى أنّ جدّه قد غزا يعرب اليمن وساق جموعهم إليه حتى استقرَّ فيه واتّخذه عاصمة له[4]:

وبَعْدَ أَبِي في حِصْنِ كِنْدَةَ سيِّــداً يَسُودُ جُموعاً مِنْ جُيوشٍ وبَرْبَرَا

وَيَغْزو بِأعْرابِ اليَمانِينَ كُلِّهِـــمْ لَهُ أمْرُهُمْ حَتَّى يَحُلَّ المُشَقَّـــرا

وأشار امرؤ القيس إلى أنّ هذا الحصن كان محاطاً بالنخيل، فقال[5]:

فَشبَّهتُهُم في الآلِ لَمَّا تَكَمَّشُـــوا حَدائِقَ دَوْمٍ سَفيناً مُقَيَّـــــــرا [6]

أو المُكْرَعَاتِ مِنْ نَخيلِ ابْنِ يامنٍ دُوَيْنَ الصَّفَا اللائي يَلِيْنَ المُشقَّرا [7]

---

[1] شعر بني تميم في العصر الجاهلي: ١١٣.

[2] شرح ديوان لبيد: ٥٦؛ وانظر: المشقّر في الشعر الجاهلي، عبد الحميد المعيني: ٥٧١-٥٧٢.

[3] معدّ: حُذيفة بن بدر. والخَبت: المستوي من الأرض.

[4] ديوان امرئ القيس: ٢٦٩.

[5] المصدر نفسه: ٥٧.

[6] تكمّشوا: أسرعوا. ومقيّر: المطلي باللون الأسود.

[7] المُكرعات: هي النخيل المغروسات في الماء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان حصن المُشقّر يُتّخذ أحياناً لسجن بعض الشعراء، وهذا ما حدث مع الشاعر طرفة بن العبد، الذي سجن في المُشقّر وقتل ودُفن فيه[1].

ولأهمية الحصون ودورها في إظهار حضارة العصر الذي أُنشئت فيه، كان يكتب على أركانها تخليداً لأمر عظيم، أو موعظة، أو إحياء شرف يُراد تخليد ذكره، وقد أشار الجاحظ إلى ما كان يكتب عليها من عبارات، ومن بين هذه الحصون حصن المُشقّر، فقال: "وكانوا يجعلون الكتابة حُفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وحِلقة مركّبة في البنيان ...، كما كتبوا على قبّة غُمْدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المُشقّر"[2].

وتضمّن الشعر الجاهلي حديثاً عاماً عن الحصون والآطام، لكثرة ما بُني منها في البيئات العربية، وما اتّصفت به الآطام من رقي في البناء والتصميم، ومن ذلك قول النابغة الذبياني يذكر المعاقل والحصون[3]:

فَأَلْفَيْتُ الأَمَانةَ لم تَخُنْهَا ... كَذلِكَ كانَ نَوْحٌ لا يَخُونُ

أغَيْرَكَ مَعْقِلاً أبْغِي وحِصْنَاً ... فَأعَيَتْني المعَاقِلُ والحُصُونُ

وقال أبو دؤاد الإيادي يذكر الآطام المبنية بالحجارة[4]:

فَإذَا أقْبَلَتْ تَقُولُ إكَامٌ ... مُشرِفَاتٌ فَوْقَ الإكَامِ إكَامُ

وإذا أعْرَضْتَ تقُولُ قُصُورٌ ... مِنً سَمَاهِيجَ فَوْقَها آطَامُ [5]

---

[1] ديوان طرفة بن العبد: ١٧٤.

[2] الحيوان: ٦٨/١-٦٩.

[3] ديوان النابغة الذبياني: ٢٦٦.

[4] الأصمعيات: ١٨٨.

[5] سماهيج: جزيرة وسط البحر بين عُمان والبحرين، وقيل: جزيرة بالبحر تدعى بالفارسية ماشَ ماهي، فعرَّبته العرب، وقيل: هي قرية على جانب البحرين. انظر معجم البلدان: ٢٤٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أنّ امتلاك الحصون والآطام كان مدار فخر بين الشعراء، فهذا ابن مقبل يفخر بما تمتلكه قبيلته من آجام، يقول[1]:

قَالَ لنَا النّاسُ: مَعْشَرٌ ظَفِرُوا قُلْنَا: فَأَنَّى بِقَوْمِنَا خَلَفُ

لَنَا مَعْ آجامِنَا وحَوْزَتِنَا بَيْنَ ذُراها مَخَارِفٌ ذُلُفُ [2]

يَذُبُّ عَنْهُنَّ سَاجِرٌ مَصِعٌ سُودَ الغَواشِي كَأَنَّها عُرُفُ

ويقول ابن مقبل يذكر المعاقل والآجام أيضاً[3]:

مَعَاقِلُهُمْ آجامُهُمْ ونِسَاؤُهُمْ وأَيْمَانُنَا بالمشْرَفيّةِ مَعْقِلُ

وغالباً ما ارتبط ذكر الحِصن بالحروب، لأنّ الحصون أُعدَّت لهذا الغرض، ومن ذلك قول سُبيع بن الخطيم سيد من سادات بني تميم[4]:

طَوَيْنَا لَهُمْ بَابَ الحُصَيْنِ ودُونَهُ عزيزٌ تمَشَّى بالحُروبِ مَقاوِلُهْ

وقالت برّة بنت الحارث من بني عمرو بن مالك تذكر الحصون[5]:

أدَعُ المَزارعَ والحُصَّونَ بِهِ وأحِلُّهُ في المَهْمَهِ القَفْرِ

وورد في الشعر الجاهلي ذكر لما شُيِّد من آطام في بلاد فارس، ويبدو هذا في قول ابن مقبل[6]:

---

[1] ديوان ابن مقبل: ١١٨-١١٩.

[2] مخارِفُ ذُلُف: أي نخل يخترق من الاختراق لقطف ثمر النخل بُسْراً أو رُطباً، وذُلُف: أي تدلف يحملها تنهض به.

[3] ديوان ابن مقبل: ١٣٧.

[4] الاختيارين: ٦٩٨.

[5] المصدر نفسه: ٢٨٩.

[6] ديوان ابن مقبل: ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كُلِّ ذلكَ يا كُبَيشَ بُيُوتُنـــــــا حلَقُ الحُلُولِ ثوابتُ الأطْنَـــــابِ
آطامُ طِينٍ شيّدَتْهَا فـــــــارِسٌ عندَ السُّيوحِ رَوافِدٍ وقِبـــــــابِ [1]
نَرْمِي النّوابِحَ كُلّما ظَهَرتْ لنَـــا والحقُّ يَعْرِفُهُ ذوُو الألْبَـــــــابِ

وشُبِّهت الناقة بالآطام العظيمة الصلبة، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص[2]:

أفَلاَ تَناسَ حُبَّها بجُلالَـــــــــةٍ وجْنَاءَ كالأُجُمِ المَطينِ ولُـــــوسِ

وشُبِّهت السفينة أيضاً بالأطم الراسخة، ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت[3]:

حَتّى تَسَوَّتْ على الجُودِي رَاسِيَـــةً بِكُلِّ مَا اسْتَوْدَعَتْ كأنّها أُطُـــــمُ

ج- القِبَاب:

عَرفت البيئات العربية نوعاً من العمارة والأبنية يُسمى بالقِبـــاب، والقُبَّـــة: "بنـــاء مستدير مُقَوَّس مُجوَّف يُعقد بالآجُر ونحوه، وفي المصلح الأثري المعماري أنّ القبّـــة هـــي بناء مُحَدّودب أشبه بكرة مشطورة من وسطها، أو بناء دائري مُقعَّر من الداخل مُقبّب مـــن الخارج يتألّف من دوران قوس على محور عمودي ليصبح نصف كرة تقريباً يأخذ مقطعها شكل القوس، وتقام مباشرة فوق مُسطّح أو ترتفع على رقبة مُضلّعة أو دائرية أو على حَنايا رُكنيه أو مثلثات كروية أو مقرنصات لتسهيل الانتقال من المربع إلى المثمّن ثمّ إلى الدائرة، وقد تكون القبّة كبيرة أو صغيرة أو بيضاوية أو نصف كروية أو مخروطية أو مضـــلّعة. وكانت هناك طريقتان لبناء القباب بالطّوب كان يتمّ في أولاهما وضع الطوب المربع فـــي صفوف أفقيّة على جوانب مركز القبّة صفاً فوق آخر حتى تتلاقى في قمّتها، وكان يتمّ في ثانيتهما وضع الطوب المربّع رأسياً بدلاً من وضعه أفقياً لكي يتكوّن القبـــو أو القبـــة مـــن

[1] السُّيوح: جمع سيح وهو الماء الجاري.
[2] ديوان عبيد بن الأبرص: ٦٨.
[3] ديوان أمية بن أبي الصلت: ٤٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلسلة من الحلقات أو الشرائح ذات وصلات تشع من المركز، توضح كل طوبة فيها مقابل الطوبة السابقة عليها"[1].

ويبدو من هذا الوصف للقبة وأشكالها وطريقة بنائها أنها محكمة الصنع، ومما يلاحظ أنّ المواد الأولية التي كانت تصنع منها القباب توافرت في مختلف البيئات العربية كالطين والطوب والآجر.

واشتمل الشعر الجاهلي على وصف للقباب المحكمة البناء، ومن ذلك قول سَلَمة بن الخُرْشُب الأنماري يذكر القِباب وأبوابها[2]:

يَسُدُّنَ أبْوابَ القِبَابِ بِضُمَّـــــــدٍ إلى عَنَنٍ مُسْتَوْثِقاتِ الأواصِـــــرِ

وقول امرئ القيس يذكر القِباب أيضاً [3]:

أبَعْدَ الحَارِثِ الملكِ بن عَمْـــــروٍ وبَعْدَ الخيرِ حُجْرٍ ذِي القِبَـــــابِ

وقال الأعشى يذكر القباب العِظام[4]:

فَإنَّ مُعاويةَ الأكْرَمِيـــــــــنْ عِظَامُ القِبابِ طِوَالُ الأُمَـــــمْ

ويظهر أنّ بعض السَّادات كانوا يقطنون القِباب، يبدو هذا في قول الأعشى[5]:

ولِمثلِ الّذي جَمَّعتَ من العُـــــدّ ةِ تأبْى حُكومَةَ المِقْتَـــــالِ

جُنْدكَ التَّالِدُ العتيقُ مـــــن الـــ سَّاداتِ أهْلُ القِبابِ والآكَـــالِ [6]

---

[1] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، عاصم محمد رزق: ٢٢٢، وانظر، اللسان: مادة (قبب).

[2] المفضليات: ٣٧. والشاعر هو سَلَمة بن عمرو بن نصر بن حارثة، والخُرشب لقبٌ لأبيه، المصدر نفسه:٣٩ .

[3] ديوان امرئ القيس: ٩٩.

[4] ديوان الأعشى: ٤١.

[5] المصدر نفسه: ٦١.

[6] الآكال: قطائع كانت الملوك تقطعها للأشراف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن مقبل يذكر قباب اليهود الشاهقة[1]:

كأَنَّ القَرَنْفُلَ والزّنْجَبيـــــــــلَ وذَاكِي العَبيرِ بِجِلْبابِهَـــــــــا

نَمَتْهَا اليَهُودُ إلى قُبّـــــــــــةٍ دُوَيْنَ السَّماءِ بِمِحْرَابِهـــــــــا [2]

وتتجلّى الصورة الحضارية المادية في طريقة بناء هذا النوع من العَمارة، والتصميم المحكم الذي تبدو فيه، والمواد الأوليّة التي استخدمت في البنـــاء.

د- الأديرة:

من أنواع الأبنية التي عُرِفت عند العرب في العصر الجاهلي الأديرة، وهـــي مـــن الأبنية الخاصّة بالنّصارى، إذ يُرجّح الأخباريون أنّ تنصُّر المناذرة أدّى إلى التوسّع في بناء الأديرة، وبخاصة بعد أنّ أصبحت الحيرة أسْقُفِّية تابعة لكرسي جاثاليق المدائن، فمن بـــين كنائس الحيرة كنيسة تُنسب إلى قوم من الأزد من بني عمرو بن مازن وتسمّى بيعة مازن[3]. ومنها كنيسة البَاغوتة التي اعتبرها الهمذاني من المراكز السبعة للعبادة عند العرب[4]. ومن الملاحظ أنّ من الأديرة ما كان يُنسب إلى ملوك الحيرة وأمرائها، وبعضها الآخـــر كـــان ينسب إلى أفراد من العُبَّاد والأشراف[5].

ومن أهم الأديرة التي عرفها العرب في الجاهلية دَيْر (اللُّجّ)، وهو بالحيرة، أشرف على بنائه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيّام مملكته، وقد أشار ياقوت إلى أنّه لم يكـــن فـــي الحيرة ديارات أحسن منه ولا أنزه موضعاً، وقال فيه إسماعيل بن عمارة الأسْدي[6]:

---

[1] ديوان ابن مقبل: ١٣٥.

[2] نَمَتْها: رفعتها.

[3] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٧٧.

[4] صفة جزيرة العرب: ١٢٧.

[5] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٧٧.

[6] معجم البلدان: ٢/٥٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَا أَنْسَى سُعْدَةَ والزَّرْقاءَ يَوْمَهَـا بِاللُّجِ شَرْقِيهُ فَوْقَ الدَّكَاكِيـــنِ

وذهب البكري إلى أنّ النعمان كان يركب إليه في كل يوم أحد وفي كل عيد ومعـه أهل بيته خاصة من آل المنذر عليهم حُلل الديباج المُذهَّبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الـذهب، وغير ذلك من طقوس خاصة في الملابس أو في صلاتهم داخل الـدير، فشـرب النعمـان وأصحابه فيه بقية يومهم[١].

ومن الأديرة التي ارتبط اسمها بالأشخاص، دير (عَلْقَمة) بالحيرة، يُنسب إلى علقمة ابن عدي بن الرُّميل بن ثوب بن أسس بن ريّى بن نُمارة بن لخم[٢]. وورد ذكر هذا الدير في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول عدي بن زيد يصف منادمته بَني علقم في الدير[٣]:

نَادَمْتُ في الدَّيْرِ بَني عَلْقَمـــــا عَاطَيْتُهُمْ مَشْمُولَةً عَنْدَمـــــا

كأنَّ رَيحَ المِسْكِ في كَأْسِهـــــا إذا مَزَجْنَاها بِمَاءِ السَّمَـــــا

عَلْقَمُ ما بالُكَ لم تأْتِنَـــــــا أمَا اشْتَهَيْتَ اليَوْمَ أنْ تَنعَّمَـــــا

وكانت الأحلاف تعقد في بعض الأديرة، ومن ذلك دَيْر (السَّوَا) "بظـاهر الحيـرة، ومعناه دَيْر العدل؛ لأنهم كانوا يتحالفون عنده فيتناصفون؛ وقال الكلبي: هو منسـوب إلـى رجل من إياد، وقيل: هو منسوب إلى بني حذافة، وقيل: السَّوا امرأة منهم، وقيـل: السَّـوا أرض نُسب الدّيْر إليها، وذكر في شعر أبي دُواد الإيادي، حيث قال[٤]:

[١] معجم ما استعجم، البكري: ٥٩٦/٢.

[٢] معجم البلدان: ٥٢٤/٢.

[٣] ديوان عدي بن زيد: ١٦٦.

[٤] معجم البلدان: ٥١٨/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلْ تَأمّلْ وأنتَ أبْصَرُ مِنِّـــــــي قَصْدَ دَيْرِ السَّوا بِعَيْنٍ جَلِيَّـــــهْ

لِمَنِ الظُّعْنُ بالضُّحَـــــى وَارِدَاتٍ جَدَاوِلَ الماءِ ثُمَّ رُحْنَ عَشِيَّـــــهْ "

وتؤكّد كثرة الأدْيرة في أرض الحيرة انتشار النصرانيّة الواسع فيها، ولعلَّ استقرار المناذرة في هذه المنطقة شجّع على اعتناق النصرانيّة، فكثرت الأديرة والكنائس.

ويظهر أنّ بعض الأدْيرة كانت خاصة بالأشراف، ومن ذلك دَيْر (بني مَرِينا)، ويقع أيضاً بظاهر الحيرة، وهو يُنسب إلى أسرة مَرِينا من أشرف أُسر الحيرة، ويبدو أنّه بُني في موضع جفر الأملاك الذي ضَرِبت فيه أعناق بني حجر بن عمرو آكل المرار بـــأمر مـــن المنذر بن النعمان[1]. وقد أشار امرؤ القيس إلى وذكر اسم الدَّيْر في قوله[2]:

ألاَ يَا عَيْنُ بَكِّي لِي شَنِيْنـــــــــاً وَبَكِّي لِيَ المُلُوكَ الذَّاهِبِينَـــــــا

مُلُوكاً من بَني حُجْرِ بن عَمْـــــروٍ يُسَاقُونَ العَشِيَّةَ يُقْتَلُونـــــــــــا

فَلَوْ في مَعْرَكةٍ أُصِيبُـــــــــوا ولَكنْ في دِيَارِ بَني مَرِينـــــــا

ومن الأدْيرة التي جاء ذكرها في أشعار الجاهليين دَيْر (عَمْروٍ)، وهو يقع في طيءٍ قُـــرب قرية لهم يُقال لها جوّ [3].

وورد ذكر هذا الدّير في قول زهير بن أبي سُلْمى[4]:

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجوٍّ في بَني أسَـــــدٍ في دَيْرِ عَمْروٍ وحالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

لَيَأتِيَنّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَـــــــذِعٌ بَاقٍ كَمَا دَنّسَ القُبطِيَّةَ الـــــوَدَكُ

[1] معجم البلدان، ٥١٠/٢، وانظر دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٨٠.
[2] ديوان امرئ القيس: ٢٠٠.
[3] معجم البلدان، ٥٢٤/٢.
[4] ديوان زهير: ١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعُرِف دَيْر (دِينار) وهي ناحية بجزيرة أَقُور ولم يحدّد ياقوت موضعه[1]، وقد ورد ذكر هذا الدّيْر في شعر ابن مقبل، إذ قال[2]:

يَا صَاحِبَيَّ انظُرَانِي لا عَدِمْتُكمَـا هَلْ تُؤْنِسَانِ بِذي رَيْمانَ مِنْ نَـارِ

نارُ الأحِبَّةِ شطّتْ بَعْدَما اقتربَـت هَيْهَاتَ أهلُ الصَّفا مِنْ دَيْرِ دِيْنارِ

وثمّة دَيْر قديم بالحيرة يُسمى بديْر (حَنّة)، وهو لقوم من تنوخ يُقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمَرْقب تُسمّى القائم لبني أوس بن عمرو بن عامر[3]. وبظاهر الحيـرة دير يُقال له دير عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغسّاني[4]، وقد ذكـر يـاقوت دَيْـر هنـد الصَّغرى، بنت النعمان بن المنذر[5]، وديْر هند الكبرى بنت الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرّار الكندي[6].

وعُرف في البيئات العربية الأخرى أدْيرة مختلفة، منها ما كـان بظـاهر الكوفـة والبصرة، ومنها ما كان بالشَّام، ومن ذلك دَيْر الجَماجِم بظاهر الكوفة على سبعة فراسـخ منها على طرق البر للسالك إلى البصرة[7]. ولا تتضمن الأشعار الجاهلية المتيسّرة إشـارة إلـى هذه الأديرة.

هـ- القَناطِر:

---

[1] معجم البلدان: ٢/٥٠٩.

[2] ديوان ابن مقبل: ١١٣.

[3] معجم البلدان: ٢/٥٠٧.

[4] المصدر نفسه: ٢/٥٢٠.

[5] المصدر نفسه: ٢/٥٤١-٥٤٢، وانظر: الدّيارات، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (ت٣٨٨هـ)، تحقيق كوركيس عواد، ط٢، دار الغرب، بيروت، ١٩٦٦: ١١٥.

[6] معجم البلدان: ٢/٥٤٢-٥٤٣.

[7] نفسه: ٢/٥٠٣-٥٠٤، وانظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٨٠-٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تُعدّ القَناطِر من أنواع الأبنية التي ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، والقَنْطرة ما ارتفع من البنيان على شكل عَقْد، وقد عُرفت القناطر المائية خلال العصر الروماني ثمّ انتقلت إلى العمارة الإسلامية المبكّرة، كما حدث في القناة التي عملها يزيد بن معاوية في سفح جبل قاسيون من نهر بردى إلى قريتي مرستان والقابون بين سنتي (٦٠-٦٤هـ) [١].

ويبدو أنّ الروم قد أتقنوا صناعة البناء وهندستهُ، وبخاصة بناء القناطر، فقد وردت إشارات في الشعر الجاهلي تشير إلى إحكام القناطر الرومية، ومن ذلك قول طرفة بن العبد في تشبيه الناقة بقنطرة الرومي المحكمة البناء، الذي أقسم صانعها بأن يخرجها إخراجاً محكماً، مؤسسة على بنيان قوي عماده الحجارة الضخمة، قال[٢]:

لَهَا مِرْفَقان أفْتلانِ كَأنّمـــــــا أُمِرَّاً بِسَلْمِيْ دَالجٍ مُتَشَـــــــدِّد
كَقَنْطَرةِ الرُّوميِّ أقسمَ رَبُّهـــا لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشادَ بِقَرْمَـــــــدِ

ويظهر أنّ البنّاء الرّومي كان ماهراً في بناء القَناطر؛ ولهذا تكرر في الشعر الجاهلي ذكر القنطرة الرومية، ومن ذلك ما ورد في قول الأعشى يتحدّث عن الماء في أسفل الآنية ومصَّب الماء من القِربة[٣]:

واسْتُحِثَّ المُغَيّرون مِنَ القَـــوْ مِ وكان النِّطافُ مَا في العَزالِـي
مَرَحَتْ حُرَّةٌ كَقنطرةِ الـــــرُّو مِيِّ تَفْري الهَجيرَ بِالإرْقـــــالِ [٤]

وقد فُسّرت القنطرة في قول الأعشى بأنها بُرْج من بناء الروم.

و- الدُّكَّان:

[١] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية: ٢٤٤.

[٢] ديوان طرفة: ١٨، وانظر العمارة في صدر الإسلام، سامح كمال الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٧: ٣-٤.

[٣] ديوان الأعشى: ٥.

[٤] الإرقال: ضرب من عدو الإبل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء في الشعر الجاهلي ذكر لنوع خاص من الأبنية يُسمّى (الدُّكَّان)، وهو مأخوذ من الفارسية (دَكَانْدار)، أي صاحب الدُّكان، أو مشتق من دَكن المتاع، أي نضَّد بعضه على بعض، وهو أيضاً المَصْطبة يُصفَّد عليها في الأسواق وفي الحوانيت، مثله في ذلك مثل الدِّكة[١].

وجاء في اللسان: الدُّكان واحد الدَّكاكين، وهي الحوانيت، فارسي مُعرّب. وفي حديث أبي هريرة: فبنينا له دُكاناً من طين يجلس عليه؛ الدكان: الدَّكة المبنية للجلوس عليها[٢]. ويبدو أنها كانت تُبنى من الحجارة الكبيرة جاء ذكرها في قول المثقّب العبدي[٣]:

فَأَبْقَى بَاطِلِي والجِدَّ مِنْهَا كَدُكّانِ الدّارِبنَةِ المَطِينُ [٤]

وجاء ذكر الدكّان كذلك في قول مُليح بن الحكم الهذلي[٥]:

إذا اسْتَحْلَقَتْ مَأْطورةً يَسْتقلُها مَحَالٌ كَدُكّان الضَّفيرةِ مُدْمَجُ [٦]

ز- الإيوان:

جاء في الشعر الجاهلي لفظ (الإيوان)، وهو يأتي في المصطلح الأثري المعماري للدَلالة على المجلس الكبير، يكون على هيئة قاعة أو مُقبَّبَة بقِبوة ذات مقدمة مفتوحة على بهو أو فناء بواسطة عقد أياً كان نوعه، وذات مؤخرة مغلقة بجدار أو هو صُفَّة واسعة له سقف محمول من الأمام على عقد يجلس فيه كبار القوم، وهو بذلك عبارة عن وحدة معمارية مربّعة أو مستطيلة ذات سقف مُقبّىً غالباً ومسطّح أحياناً، تحيط به ثلاثة جدران

---

[١] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية: ٧٢.

[٢] اللسان: مادة (دكَنَ).

[٣] ديوان المثقب العبدي: ٢٠٠.

[٤] الدّرابنة: البوابون.

[٥] شرح أشعار الهذليين: ١٠٣٦/٣.

[٦] الضّفيرة: حجارة تمنع من السيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ثلاث جهات فقط، أمّا الجهة الرابعة، فهي مفتوحة بعقد أياً كان نوعه؛ لأنّ هذه الجهة الرابعة إذا كانت مسدودة سُميَّ الإيوان في هذه الحالة مجلساً[1].

وفي ضوء هذا الوصف للإيوان يظهر مقدار ما يبذله الصانع والبنَّاء في إخراج الإيوان إخراجاً هندسياً، وقد اشتهرت بلاد فارس بهذا النوع من الأبنية، وورد ذكر الإيوان في قول الأعشى يشبّه الجيش العظيم بالإيوان[2]:

وأجْرَدَ مِنَ فُحُولِ الخَيْلِ طِرْفٍ كأنَّ على شَواكِلِهِ دِهَانَا

ويَحْمِي الحَيَّ أرْعَنُ ذو دُروعٍ مِنَ السُّلاّفِ تحْسَبُهُ إوَانَا [3]

وفُسر الإوان في شعر الأعشى بأنّه بيت مرتفع البناء غير مسدود الوجه وهو فارسي معرّب.

وقد أشار صاعد الأندلسي إلى ما تركه عرب الجاهلية من آثار عظيمة في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها[4]، ويمكن أن يكون الجانب العمراني من هذه الآثار التي تركها العرب آنذاك، ويكشف ما ورد في الشعر الجاهلي وروايات الأخباريين عن فن عمراني متقدّم يدلّ على ذلك هذا التعدّد في أشكال العمارة والبناء، والإخراج الهندسي المنظَّم.

---

[1] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية: ٢١.

[2] ديوان الأعشى: ١٨٧.

[3] الأرعن: الجيش العظيم. وسُلاف العسكر: مقدّمته.

[4] طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت٤٦٢هـ)، تحقيق حياة علوان، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥: ١١٢-١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: مواد البناء والعمارة:

صوَر الشعر الجاهلي مظهراً حضارياً آخر من مظاهر البناء والعمارة، وهو الأدوات والمواد الخام التي كانت تُصنع منها مختلف الأبنية، ولمّا كانت العمارة على هذا التنوّع والتنظيم والإحكام في الصنعة، فإنها احتاجت إلى مواد خام ساهمت في هندسة البناء وإخراجه بصورة حضارية جمالية.

وقد ذهب ابن خلدون إلى أنّ إحكام صنعة البناء بحاجة إلى الآلات من الحجر والرُّخام والجير وغير ذلك، ومن دونها تكون المساكن فاسدة، فقال: "اعلم أنّ الأمصار إذا اخْتُطّت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يُعالى على الحيطان عند التأنّق كالزُّلج[1]، والرُخام والرِّبْح والزُّجام والفسيفساء والصدف؛ فيكون بناؤها يومئذٍ يدوياً وآلاتُها فاسدة. فإذا عظُم عُمران المدينة وكثُر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذٍ، وكثُر الصّناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها ... ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقلّ جلب الآلات من الحجر والرُّخام وغيرها ..."[2].

وكأنّ ابن خلدون يُعلّق كثرة المباني وإجادتها وإحكام صنعتها، وبلوغ غايتها من التأنّق، بما يُستَحضر لها من مواد خام مثل الحجر بأنواعه والرّخام، والصخور الملساء والجير وغير ذلك.

وممّا يلحظ أنّ الأبنية تتفاوت في مواد البناء، فمنها ما بُني بالحجارة، ومنها ما بُني باللِّبن، ومنها ما بُني بالآجُرّ، وآخر بالطين والتراب[3].

---

[1] الزُّلج: الصخور الملساء.

[2] مقدمة ابن خلدون: ٦٤٠.

[3] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣٨٩/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار الألوسي إلى وصف البناء من الداخل والخارج، والمواد التي كانت تستعمل في البناء، فقال: "والعِلاة أعلى الحائط الذي لا يُغمّى، وقد يكون الطُّنُف قراميد، ويقال واحدها قرمد وهو الآجر الطويل، قال:

أو دُمْيَةٍ في مَرْمَرٍ مَرْفوعَـــــةٍ بُنيَتْ بآجُرّ يُشادُ بِقَرَمَـــــــــدِ

ويقال: المرادة من الخشب لأعالي الحيطان، والنّجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره، والعَرْس حائط أو اسطوانة يقام في البيت يوضع عليها طرف الجائز وهو العارضة، والروافد خشب فوق العارضة واللِّبن واحدته لِبنة، واللبَّان الذي يُضرب به، والملبن الذي يُضْرب به، والسّابل الذي ينقل عليه، والسَّميقان والأسمقة خشبات يدخلن في السّابل، والطّوب والآجرّ، والطَّواب الذي يطبخ أُنُّونه، والأطيمة أتّون الجرار والقِصاع ونحوهما، والبلاط الحجارة تُفرش بها الأرض، يقال: دِهليز مُبلَّط ودار مفروشة بالآجرّ والبلاط ويقال للبنّاء: الهَاجري"[1].

ومعظم هذه الأدوات والمواد التي استُعملت في البناء توافرت في مختلف البيئات العربية، وبعضها كان يُجلب من الأمم المجاورة مثل بلاد الروم وفارس، حتى إنّ العرب استعانوا بالبنّائين والصُنّاع من هذه البلاد، ولهذا جاء في الشعر وصف الأبنية الروميّة والفارسيّة، والمواد الخام الأوليّة.

وفي وصف الهمذاني لقصر (ذِي لَعْوة) يبدو ما بذله الصانع في إخراجه إخراجاً هندسياً رائعاً، وما استعان به من مواد خام، فقال: "ومنها قصر ذي لعوة المكعب، وذلك بكعاب خارجة في المعَازب[2]، حجارته على هيئة الدُّرق الصغار وذرعت في معزب منه سبعة أذرع إلا ثلثاً بالذراع التامة ...، وكان عليها سور

[1] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣٨٩/٣.

[2] المعازب: جمع معزب وهو قِطع الحجارة الكبيرة التي تجعل في المواثر والطابق الأول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملاحك[1] بالصخر المنحوت، وما فيها قصر إلا وتحته كريف للماء مُجوَّف في الصفا مُصهرج فما ينزل من السطح ابتلعه"[2].

والآجُرُ الذي كان يُستعمل في البناء ورد ذكره في الشعر الجاهلي لفظ فارسي معرّب معناه: اللبن إذا طُبخ لكي يستخدم في البناء واحدته آجرة، ومنه آجر الجدران والآجُر الحراري والمثقوب والمجوّف والمُزجَّج. والمستدير والمقلوب والمملوء والمهذّب ونحو ذلك، وكان الآجر من أهم المواد التي استخدمت في بناء العمارة المختلفة، لا سيّما في البلاد التي يندر فيها الحجر، ولم ينحصر استخدامه حينذاك في جزء معيّن من البناء دون الآخر، كما لم يتميّز به عهد دون عهد، وظهرت قوالبه بقياسات مختلفة[3].

وأمّا الطّوب الذي كان يُستخدم في البناء، فهو المضروب من الطّين مربّع أو مستطيل ليُبنى به، وهو إمّا محروق يُعرف بالآجر، وإمّا غير محروق يُعرف باللبن[4]. والتفت الشعراء الجاهليون إلى مثل هذه المواد التي كانت تُستعمل في البناء، إذ جاء ذكرها في الشعر عند حديث الشعراء عن أنواع المباني المختلفة وطريقة بنائها وتصميمها من الداخل.

ومن أكثر المواد المستعملة في البناء التي تكرّر ذكرها في الشعر الجاهلي الأحجار بأنواعها المختلفة، ومن أنواعها حجارة **الرُّضَام**، كانت تصفُّ بعضها فوق بعض فيتشكّل منها البناء، وقد ورد ذكرها في قول لبيد[5]:

---

[1] الملاحك: المتداخل بعضه في بعض حتى كأنّه حجرة واحدة.

[2] الإكليل: ٨/٨٣.

[3] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية: ١١.

[4] المرجع نفسه: ١٨٤.

[5] شرح ديوان لبيد: ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأصْبَحَ رَاسِياً بِرُضَامِ دَهْـــــرٍ وسَالَ بهِ الخَمائِلُ في الرِّمَـــــالِ

ومنها نوع يسمّى **الدِّن**، ويقال: إن البيت كان يُبنى بالدِّنان المسكورة التي تُظلَّل بالخُصف، قال عدي بن زيد[١]:

بَيْتُ جُلُوفٍ بَارِدٌ ظِلُّـــــــــهُ فِيهِ ظِباءٌ ودَوا خيلُ خُـــــوصُ [٢]

ونوع من الحجارة يسمّى **البَراطيل**، وهي حجارة مستطيلة الشكل، ورد ذكرهـــا في قول عبدة بن الطبيب يصف فرسه[٣]:

كَأنَّ فُرْحَتَهُ إذا قَامَ مُعْتَـــــدِلاً شَيْبٌ يُلَوَّحُ بالحَنَّاءِ مَغْسُـــــولُ

إذا أُبِسَّ بهِ في الألفِ بَـــــرَّزَهُ عُوجٌ مُركّبَةٌ فِيها بَرَاطِيـــــــلُ

ومن الحجارة نوع تُسمى **الأَعْبَل**، وهي حجارة بيض تُتّخذ للبناء، جاء ذكرها في قول الشاعر الفَهْري الهذلي[٤]:

وَفَزِعْتُ مِنْ غُصْنٍ تُزَعْزِعْه الصَّبَا بِثَنِيَّةِ النَّقْواءِ ذاتِ الأعْبَـــــــلِ

وذهب فيليب حتّي إلى أنّ العرب الجاهليين استعملوا في البناء الحجر الكلســـي، إذ كان يُحف بالشارع الرئيسي لمدينة تدمر نحو (٧٥٠) عموداً مـــن الحجـــر الكلســـي الأبيض الوردي، ارتفاع كل منها نحو خمسة وخمسين قدماً، ولا تـــزال بعـــض تلـــك الأعمدة قائمة فيها [٥].

وقد أشار الشعراء الجاهليون إلى الكِلس الذي تُتّخذ منه الحجارة، ومنـــه مـــادة تُصفَّح به الحجارة، ومن ذلك قول المتلمس[٦]:

---

[١] ديوان عدي بن زيد: ٧٠.

[٢] جلوف: جمع جلف وهو الدّن، ويعني به أصل الدّن.

[٣] ديوان عبدة بن الطبيب: ٧٨.

[٤] شرح أشعار الهذليين: ٨٠٩/٢.

[٥] تاريخ العرب، فيليب حتّي، ط٥، دار غندور، بيروت، ١٩٧٤: ١١٤.

[٦] ديوان المتلمس: ١٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتَبْني لَهُ جِيلانُ مِنْ نحْتِها الصَّفَا قُصُوراً تُعالى بالصَّفَحِ وتُكْلِـــسُ

وورد ذكر الحجر الكِلسي في قول الأعشى يصف حصن أبْلَق[1]:

يُوازِي كُبَيْداءَ السّماءِ وَدُونَـــهُ بَلاطٌ ودَارَتٌ وكِلسٌ وخَنْـــدَقُ

وقال يذكر الحجر الكلسي والقَرْمد[2]:

فَأَضْحَتْ كَبُنيانِ التِّهَاميِّ شَـــادهُ بِطينٍ وجَيّارٍ وكِلْسٍ وقَرْمَـــدِ

وفُسِّرَ الكِلس في بعض أشعار الجاهليين على أنّه مادة أو خليط يستعمل في الطِّلاء، ومن ذلك ما ورد في قول المتلمّس يصف قصر الجَوْن المُشيَّد في أرض اليمامة[3]:

ألم ترَ أنّ الجَوْنَ أصْبَحَ راسيـاً تُطيفُ بهِ الأيَّامُ مَا يَتأَيُّـــسُ

عَصَى تُبعَاً أيّامَ أُهْلِكَتْ القُـرى يُطَافُ على صُمِّ الصَّفْحِ ويُكْلَسُ

وأشار جواد علي إلى أنّ الجاهليين كانوا أحياناً يستعملون الحجارة الصناعية التي يُقال لها (طَابُوق)، أي الحجارة المكوّنة من الطين المشوي، ويراد بها (اللبن) أي الطين المُجفَّف، فعادة مزج الحجارة المصنوعة الطابوق بالحجارة الطبيعية المقلوعة سواء أكانت مصقولة أم غير مصقولة، وهي عادة معروفة في البناء في الشرق[4].

وبعض الحجارة كانت تُستعمل في البناء وفي أغراض أخرى، إذ كانت تُجمع لتمنع من السيل، ومنها حجارة تُسمى (الضَّفِيرة)، جاء ذكرها في قول مُلَيح الهذلي[5]:

إذَا اسْتَحْلَقَتْ مَأْطُورة يَسْتَقِلُّهَـــا مَحَالٌ كَدُكَّانِ الضَّفيرةِ مُدْمَـــجُ

---

[1] ديوان الأعشى: ٢١٧.

[2] نفسه: ١٨٩.

[3] ديوان المتلمس: ١١٧-١١٩.

[4] المفصل في تاريخ العرب: ٢١/٨، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٣٠٦.

[5] شرح أشعار الهذليين: ١٠٣٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أهم المواد الخام التي استُعملت في البناء، وبخاصة بناء القصور، الرُّخَام، إذ استُعمل لتغطية أوجه الجدران، أو في فرش أرض الغرف والقصور، فيعطيها مظهراً جمالياً، وقد أشار جواد علي إلى وفرة الرُّخام والحجارة الصَّلدة في اليمن، فاستعمل البنّاء الأعمدة العالية الجميلة ذوات التيجان في رفع السقوف وفي إقامة الرَّدهات الكبيرة، وفي واجهات المعابد بصورة خاصة[١].

وقد ورد ذكر الرُّخام في قول الأعشى يصف سدّ مأرب الذي بنته حمير من رُخام فهدمه سيل العرم[٢]:

فَفِي ذَاكَ لِلمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ ومَأْرِبُ قَفَّى عَلَيها العَرِمْ

رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِميَرٌ إذا جَاءهُ مَاؤُهُمْ لم يَرِمْ

ويمكن أن يستنتج من ذلك أنّ الرخام كان معروفاً عند العرب الجاهليين، وأنّ سدّ مأرب كان ذا أهمية كبيرة، لهذا استعمل في رصفه وبنائه حجارة الرُّخام، حتى تزيده قوة وصلابة.

وقال عمرو بن كلثوم يصف السّارية المبنية من الرُّخام والعاج[٣]:

وسَارِيَتيْ بَلَنْطٍ أو رُخَامٍ يَرِنُّ خَشَاشَ حَلْيهَمَا رنيْنَا [٤]

وورد ذكر الرُّخام في شعر حسّان بن ثابت مشيراً إلى بناء القصور التي يشغل الرخام فيها حيّزاً كبيراً، فقال[٥]:

نَشْرَبُهَا صِرْفاً ومَمْزوجَةً ثُمَّ نُغَنِّي في بُيوتِ الرُّخَامْ

---

[١] المفصل في تاريخ العرب: ٦/٨.

[٢] ديوان الأعشى: ٤٣.

[٣] ديوان عمرو بن كلثوم: ٢٠٣.

[٤] البلنط: العاج، والسارية: الأسطوانة.

[٥] ديوان حسان: ٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب فيليب حتّي إلى أنّ صناعة الرُّخام لم تكن محصورة في منطقة معينة من شبه جزيرة العرب، بل إنّ العرب الجاهليين استعملوه في مناطق مختلفة، فقد شُيّدت المنازل والدّساكر في زمن غسان بالرّخام الأسود، والقصور وأقواس النصر والحمّامات والأقنية الأرضية والمسارح[1].

واستعملَ البنّاء **الآجُرّ** في العمارة، وهو اللبن المطبوخ، وكانت تَصنع منه أشكال مختلفة، وهو يُعدّ من أهم المواد المستخدمة في بناء العمارة، وقد ورد ذكر الآجر كثيراً في أشعار الجاهليين، ومن ذلك قول ثعلبة بن خزاعي يشبّه ناقته بفدن ابن حيّة الذي شاده بالآجُر[2]:

تُضْحي إذا دَقَّ المَطِيُّ كَأَنَّهـــا فَدَنُ ابنِ حَيَّةَ شَادَهُ بالآجُـــــرِ

وقال بدر بن عامر الهذلي يذكر الحصن المشيد بالآجرُ[3]:

إنِّي وَجَدْتُ أَبَا العيَالِ ورَهْطَـهُ كَالحِصْنِ شِيدَ بِآجُرٍ مَوْضـــونِ

وورد ذكر الآجُر باسم (أشْياه) في قول لبيد يتحدّث عن عقر الهاجري الذي ابتناه باللِّبن والآجُر[4]:

كَعَقْرِ الهَاجِرِيِّ إذا ابْتَنَـــاهُ بِأَشْيَاهٍ حُذِيْنَ على مِثـــالِ

وجاء في الشعر الجاهلي لفظ اللّبن نفسه دَلالة على الآجُر، وهو اللفظ الفارسي المعرّب، ومن ذلك قول كعب بن زهير مشبّهاً جَنْبي الناقة المكسُوَّين باللحم، بالقصر الذي طُيّنَ باللِّبن[5]:

---

[1] تاريخ العرب: ١١٩.

[2] المفضليات: ١٢٩.

[3] شرح أشعار الهذليين: ٤٠٩/١.

[4] شرح ديوان لبيد: ٧٦.

[5] ديوان كعب بن زهير: ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُنَفَّجةُ الدَّفّينِ طُيّنَ لَحْمُهـــــــا كَما طِيْنَ بالضَّاحِي مِنَ اللِّبْنِ مِجْدَلُ[1]

ويبدو أنّ اللّبن كان يُستعمل مادة بديلة عن الحجارة، وهذا يعني أنّ وجوده كان يكثر في البلاد التي يقل فيها الحجر الذي يَصلُح للبناء.

والقَرْمَد من مواد البناء التي استعملت في العمارة، ويبدو أنّه نوع مـن أنـواع الآجُر نفسه، أو الجِبْص، وقد ورد في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول طرفة بن العبـد مشبّهاً ناقته بالقنطرة الروميّة التي شُيّدت بالقَرْمَد[2]:

كَقَنْطَرَةِ الرُّوميِّ أقْسَمَ رَبُّهّـــــا لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشادَ بِقَرْمَـــــــدِ

ووصف الأعشى بُنيان التِّهامي الذي شاده بالطّين والجَيَّار، والحجـارة الكِلْسـية، والقَرْمَد، فقال[3]:

فَأَضْحَتْ كَبُنيانِ التِّهاميِّ شَـــادَهُ بِطينٍ وجَيَّارٍ وكِلْسٍ وقَرْمَـــــدِ

ويظهر أنّ البِناء المُشاد بالقَرْمَد كان يتّصف بالإحكام والصّلابة، ولهذا تكرّر فـي الشعر الجاهلي تشبيه الناقة القوية بالبناء المُقَرْمد؛ ومن ذلك قول عنترة يشبّه ناقته التي تحتمل عناء السفر، بالبناء المحكم المُشاد بالقَرْمد[4]:

أبْقَى لهّا طُولُ السِّفارِ مُقرمِـــدَا سَنَداً ومِثْلَ دَعَائِمِ المُتخَيِّـــــمِ

وجاء في الشعر أيضاً ذكر **الجَصِّ أو الجِبْص**، وهو مادة خام تدخل في صناعة البِناء، يُخلط بالرمال، وهو أيضاً ضرب من الحجارة تُطْحن وتُحرق لتستخدم في البِناء، تُلاط به الجدران من الداخل والخارج[5].

وقد جاء ذكره في قول ابن مقبل بلفظ (جَيَّار)[1]:

---

[1] منفجَّة، مُنتفخة، والضّاحي: الظاهر للشمس، والمجْدِل: القصر.

[2] ديوان طرفة: ١٨.

[3] ديوان الأعشى: ٢٣٩.

[4] ديوان عنترة: ٢٠٣.

[5] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية: ٦٣-٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هَلْ تَعْرِفُ الدّارَ قَفْراً لا أنِيسَ بَها إلاّ المَغَانِي وإلاّ مَوْقِد النَّـــــارِ
فَطَامِسُ النُّؤْي عَافٍ لا يُثَلَّمُـــــهُ صَرْفُ اللَّيالِي ولم يُجْعل بِجَيَّـــارِ

وكثيراً ما كان يُستعمل **البَلاط** يُلصق بأرض الدّار أو البِناء، مما يُضـــفي عليـــه مظهراً حضارياً جمالياً، فكثُر استعمال البَلاط في بناء القصور التي احتاجت إلى مـــواد خام تجعلها أكثر جمالاً وصلابة، وقد التفت الشعراء الجاهليون إلى هذه المادة الهّامـــة فـــي بناء العمارة، ومن ذلك قول ابن مقبل يصف معبداً مشرفاً أُلصِق بأرضه البلاط[٢]:

أصْوَاتُ نِسْوانِ أنْبَاطٍ بِمَصْنَعـــــةٍ بَجَّدْنَ لِلنَّوْحِ واجْتَبْنَ التَّبَابِيْنَـــــا [٣]
في مُشْرِفٍ لِيطَ لَيَّاقُ البَلاطَ بِـــــهِ كَانَتْ لِسَاسَتِهِ تُهدى قَرابِينـــــا [٤]

ولأهمية حِصن أَبْلق كانت أرضه مرصوفة بالبلاط، قال الأعشى في وصفه[٥]:

يُوازِي كُبَيْدَاءَ السَّماءِ ودُونَـــــهُ بَلاطٌ ودَاراتٌ وكِلْسٌ وخَنْـــدَقُ

ويلاحظ من الحديث عن مواد البناء والعمارة أنّ اتّصال العرب بالعالم الخارجي كان له أثر كبير في تقدّم الفن العمراني وازدهاره، فالعرب قد استفادوا من أسلوب الفن البيزنطي النصراني، وبناء القناطر الرومية، واستعانوا بما لدى الفرس من مهارة فـــي طِراز البناء، فضلاً عن وجود مواد خام ساهمت في تشكيل صورة حضـــارية جماليـــة لمختلف أنواع المباني.

وقد أشار جواد علي إلى فن العمارة الجاهلي المتطوّر والتأثير الخـــارجي فيـــه، بسبب اتّصال العرب في ذلك العصر بالشعوب الأخرى؛ تبعاً لمختلف العوامل التجارية والسياسية، والجوار، قال جواد علي[٦]: "ولما كانت العربية الجنوبية على اتصال بالعالم

---

[١] ديوان ابن مقبل: ١٠٢.
[٢] المصدر نفسه: ٣٢٠.
[٣] بجّدن: أي لبَسْنَ البُجَد وهو جمع بجاد بمعنى الكساء. والتبابينا: السّراويل الصغيرة.
[٤] الليَّاق: البَلاك يُلصف بأرض الدّار.
[٥] ديوان الأعشى: ٢١٧.
[٦] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٢/٨، وانظر الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي: ٣٠٢-٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخارجي منذ عصور ما قبل الميلاد، وقد شهدت فتوحاً أجنبية، كما كانت لها صـــلات تجارية مع الروم والإفريقيين والهنود والفرس، فلا يُستبعد استخدام العرب الجنـــوبيين للأعاجم في أعمال البناء، وتأثّرهم بالأساليب المعمارية الأجنبية، ولا سيّما فـــي أثنـــاء الفتح الحبشي لليمن، فقد ذكر أهل الأخبار أنّ الحبش استعانوا بفعلة من الروم في بنـــاء (القليس)، كما أنّ الروم كانوا قد شيّدوا كنائس في عدن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، وقد بُنيت هذه الكنائس وفقاً لأسلوب الفن البيزنطي النصراني ولا شك. وقد كان بين الفرس مَن يُحسن البناء ويتقنه، كما كان لأهل العربية الجنوبية اتّصال بالفرس قبل هذا الفتح، وكانت فيها جاليات منهم ولا سيّما في الأقسام الجنوبية الشرقية، فأثَّروا بذلك في طـــراز البناء".

ومهما كانت درجة تأثُّر العرب بالشعوب الأخرى، فإنّهم كانوا على حظ كبير من الحضارة والرّقي، وقد بدا هذا واضحاً في تعدّد أنـــواع البنـــاء والعمـــارة، والطـــراز المعماري الرفيع الذي ظهر في مختلف البيئات العربية، إلـــى جانـــب المـــواد الخـــام الأوليـــة التي ساعدت على إضفاء سمات حضارية جماليّة على البناء والعمـــارة مـــن قصور وحصون وكنائس وأديرة وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الكتابة: مَوادّها وأدواتها

أولاً: شيوع الكتابة وموضوعاتها في الجاهلية

ثانياً: مَوادّ الكتابة وأدواتها

ثالثاً: الكاتِب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: شيوع الكتابة وموضوعاتها في الجاهلية:

كشف الشعر الجاهلي عن مظهر حضاري ارتبط بحياة العرب الفكرية في عصر ما قبل الإسلام، ويتمثّل هذا المظهر في معرفة العرب الكتابة التي اتّخذوها وسيلة لتسجيل علاقاتهم مع بعضهم من جانب، وتوثيق وقائعهم ومعاملاتهم مع غيرهم من الأمم الأخرى من جانب آخر، واحتاجوا في ذلك إلى جملة من المواد والأدوات التي تعينهم على ذلك.

وكَثُر الحديث عن معرفة العرب الكتابة في العصر الجاهلي، وتضاربت الآراء قديماً وحديثاً في شأن معرفتهم بها في ذلك العصر بين مؤيّد لِشيوعها في بعض البيئات العربية، ومنكرٍ لِمعرفتها لتجهيل العرب في ذلك العصر، استناداً على أدلّة واستنتاجات واهية لا يمكنها أن تدحض تلك الأدلّة الساطعة التي تؤكّد معرفة العرب الكتابة، وقد استوفى الدكتور ناصر الدين الأسد الحديث عن ذلك، وبسّط فيه القول بسطاً[1]، وستفيد الدراسة ممّا قدّمه الدكتور الأسد للكشف عن السمات الحضارية التي تتمثّل في موضوع الكتابة.

ويحسن قبل استنباط الأدلّة من الشعر الجاهلي الوقوف عند نماذج من الشواهد والقرائن الأخرى من حياة العرب وشؤونهم، فإنّ الإسلام جاء وقد كانت الكتابة العربية منتشرة في مواطن كثيرة من بلاد العرب، وكانت وسيلة من وسائل تسجيل فعلهم الحضاري، وشاهداً على معاملاتهم المختلفة.

ولعلّ من أكثر الأدلّة وضوحاً على معرفة الكتابة وشيوعها في الجاهلية ما تضمّنته بعض الآيات القرآنية الكريمة من إشارة إلى هذه المعرفة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وقالوا أسَاطِيرُ الأوّلين اكْتَتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً ﴾[2]. فالآية الكريمة

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٣-١٠٣.

[2] الفرقان: (٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشير إلى أنّ من العرب من كان يكتب في الجاهلية، وأنّ ما كان يكتبه كان يلقى عليه في المجالس صباح مساء.

وثمّة آيات قرآنيّة كريمة أكّدت معرفة الكتابة عند العرب الجاهليين، وذلك في معرض تحدّيهم للرسول عليه السلام، والطلب منه أن يضع بين أيديهم كتاباً من السماء حتى يقرؤوه، وفي هذا بيانٌ على أنّ من بينهم من كان يقرأ ويكتب، يقول الله تعالى: ﴿ولن نُؤمن لِرُقيِّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه. قُلْ سُبْحن ربِّي هَلْ كُنْتَ إلاّ بشراً رسولا﴾[1].

فكثير من الآيات الكريمة أكّدت معرفة العرب الكتابة في الجاهلية، وأمّا ما ذكر في القرآن من وصف العرب بالأميّة، فإنّ هذا لا يعني الأميّة الكتابية ولا العلمية، وإنّما يعني الأميّة الدينيّة؛ أي أنهم لم يكونوا مثل أهل الكتاب الذين كان أنزل إليهم التوراة والإنجيل، بمعنى أنّ العرب لم يكن لهم كتاب سماوي قبل القرآن الكريم، ومن هنا جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى أميّة العرب في عصر ما قبل الإسلام[2].

وأشارت كثيرٌ من الروايات والأخبار التي تناولت الحديث عن الخطّ العربي ومعرفة الكتابة إلى انتشار الكتابة في الجزيرة العربية، غير أنّه اخْتُلِفَ في أول من وضع الخطّ العربي، وفي انتقاله إلى الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام، فقد جاء أنّ أول من كتب الخطّ العربي "مرامرُ بن مرّة، وأسْلم بن سِدْرة، وعامر بن دُرَّة كما في القاموس، وهم طيء تعلموه من كاتب الوحي هود عليه السلام، ثمّ علّموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها، فتعلّمها بشر بن عبد الملك أخو أُكيْدِر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان له صحبة بحرب بن أميّة لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلّم حرب منه الكتابة، ثمّ سافر معه بشر إلى مكّة فتزوّج

---

[1] الإسراء: (٩٢-٩٣).

[2] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية: ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان، فتعلّم منه جماعة من أهل مكّة؛ فلهذا كَثُر الكُتَّاب في قريش يومئذٍ"[1].

وجاء في بعض المصادر أنّ الذي كتب بالخطّ العربي رجل من بني مخلد، فكتب حينئذٍ العرب، والذي حمل الكتابة إلى قريش بمكّة أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وقد قيل حرب بن أميّة، وتشير المصادر أيضاً إلى أنّه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم[2].

وذهب ابن خلدون إلى أنّ الخطّ بلغ مبلغ الجودة والإحكام في دولة التَّبابعة في اليمن؛ لأنها قد بلغت منزلة كبيرة من الحضارة والترف، ويُعرف هذا الخطّ بالخطّ الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة، ومن الحيرة إلى أهل الطائف وقريش[3].

ومن الأدلّة كذلك على معرفة الكتابة، اجتماع الأنصار في مجلس تذاكروا هجاء النجاشي إيّاهم، وقالوا من له؟ فقال الحارث بن معاذ بن عفراء الأنصاري حسان له، فأعظم ذلك القوم، فقال الحارث: فقال لي حسان اكتبها فألقها إلى صبيان الكُتَّاب[4].

وفي قصّة طرفة وخاله المتلمّس وصحيفتيهما، أنَّ المتلمّس مرَّ بفتىً وعرض عليه صحيفته فقرأها فإذا بها ما تخوَّف منه، فقال في ذلك[5]:

وأَلْقَيْتُها في الثِّنْي من جَنْبِ كَافِرٍ كَذلكَ أَقْنُو كُلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ[6]

وممّا يمكن أخذه من باب الأدلّة على شيوع الكتابة ومعرفتها عند العرب، ما أوردته المصادر من أسماء الكتّاب وبخاصةٍ كُتَّاب الوحي، فقد أشار ابن عبد ربه إلى

---

[1] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣٦٨/٣.

[2] الفهرست: ابن النديم شرح إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧: ١٤-١٥.

[3] مقدمة ابن خلدون: ٧٥٥-٧٥٦، وانظر في ذلك: الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء، شعبان عبدالعزيز، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧: ٨٤-٨٥.

[4] ديوان حسان بن ثابت: ١٧٧-١٧٩.

[5] ديوان المتلمّس الضبعي: ٥٧-٦٠.

[6] الكافر، النهر. والقِطّ: الكتاب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّ من أهل هذه الصناعة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وعثمان بن عفّان وكانا يكتبان الوحي، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه[1].

وأشار الجَهشياري إلى مهنة الكتابة والموضوعات التي كان يكتب بها الكتّاب، فعليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفّان كانا يكتبان الوحي، وخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان كانا يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة بن شعبة والحُصين بن نُمير يكتبان ما بين النّاس، وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء ابن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء، ورُوي أنّ مُعيقب بن أبي فاطمة حليف بني أسد كان يكتب مغانم رسول الله عليه السلام[2].

ويُعلّل انتشار الكتابة في مكّة قبل الإسلام بأنّها كانت مركزاً تجارياً، وكانت الحضارة فيها أوسع ممّا حولها[3]، ويبدو الجانب الحضاري في الكتابة من جهة أنّها حرفة وصناعة؛ ولهذا جعلها ابن خلدون من عِداد الصنائع الإنسانية، إذ ربط تطوّرها بالحضارة والعمران، وجعلها صنعة شريفة من خواصّ الإنسان[4].

ومهما يكن من أمر، فإنّ معظم الدارسين يُقرُّون بمعرفة العرب الكتابة في جاهليتهم، فقد أشار الدكتور ناصر الدين الأسد إلى ذلك بقوله: "كان العرب إذن يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقلّ تقدير بهذا الخطّ الذي عرفه بعد ذلك المسلمون. وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة، معرفة قديمة أمراً يقيناً، يقدّره البحث العلمي القائم

---

[1] العقد الفريد: ابن عبد ربه أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٩: ٤/١٤٦-١٤٧.

[2] كتاب الوزراء والكتّاب: الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)، تحقيق مصطفى السقّا وآخرون، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٨٠: ١٢. وانظر: كتاب المحبر، ابن حبيب، أبو جعفر بن محمد (ت ٢٤٥هـ)، رواية أبي سعيد السكري، تصحيح، إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت: ٣٧٧.

[3] إنشاء الكتابة عند العرب، عبد الحميد جيدة، ط١، دار الشمال، ١٩٨٦: ٣١.

[4] مقدّمة ابن خلدون: ٤١٧-٤١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الدليل المادّي المحسوس؛ وكل حديث غير هذا لا يستند إلى الحَدْس والافتـراض، ولا ريب في أنّ ما سيُعثر عليه في مُقبل الأيّام من نقوش في قلب الجزيرة سيدعم رأي الذين يذهبون إلى أنّ عرب الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة منذ قرون قبل الإسلام"[١]. وفي الشعر الجاهلي شواهد كثيرة على شيوع الكتابة وتعلّمها، وبخاصّة تلك الشـواهد التـي جاء فيها ذكر للكِتاب أو الصحف، وتشبيه الشعراء الجاهليين آثار الديار بعد رحيل القوم عنها بصحائف الكتاب، ومما جاء في ذلك قول زهير مشـبّهاً الـديار بـالوحي وهـو الكتاب[٢]:

لِمَن الدِّيارُ غَشِيتَها بِالقَرْفَـــــدِ؟ كالْوَحيِ في حَجَرِ المسيلِ المُخْلِـدِ

وقال ابن مقبل مشبّهاً آثار الديار الدّارسة بسطور الكتاب[٣]:

أَلاَ يَا لَقَوْمٍ لِلدِيَارِ بِبَـــــــدْوةٍ وأَنَّى مِراحُ المَزءِ والشّيْبُ شَامِلُـهْ

ولِلدّارِ مِنْ جنْبيْ قَرَوْرَى كأَنَّهـا وُحِيٌّ كِتابٍ أَتْبعَتْهُ أَنَامِلُـــــــــهْ [٤]

وفي شعرٍ لمُعوّذ الحُكَماء، معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب تبدو صورة القلم والكتاب المُحبَّر، وفي هذا دلالة أكيدة على تعلّم الكتابة، يقول[٥]:

---

[١] مصادر الشعر الجاهلي: ٣٣.

[٢] ديوان زهير بن أبي سلمى: ١٩٤. والمصدر نفسه: ١٠٢.

[٣] ديوان ابن مقبل: ٢٣٩.

[٤] قَرْورى: موضع بين المعدن والحاجر على اثني عشر ميلاً من الحاجر، وقال السكري: قَرْورى: ماء لبني عـبس بـين الحـاجر والنقرة. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٣٣٤/٤.

[٥] المفضليات: ٣٥٧-٣٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَإنَّ لَنا مَنازِلَ خَاوِيـــــــــاتٍ عَلى نَمْلَى وَقَفْتُ بِهَا الرِّكَـــابَا [1]

مِن الأجْزاع أسْفَلَ مِن نُميـــلٍ كَمَا رَجَّعْتَ بِالقَلَمِ الكِتَابَـــــا

كِتَابَ مُحَبَّرٍ هَاجَ بَصِيـــــــرٍ يُنمِّقُهُ وحَاذَرَ أنْ يُعَابَـــــــا

وغالباً ما شُبّهت رسوم الربع بسطور الكتاب المُرّقش، كما في قول طرفة بـــن العبد[2]:

أَشَجَاكَ الرّبْعُ أمْ قِدمُـــــــــهْ أمْ رَمَادٌ دَارِسٌ حِمَمُـــــــــــهْ

كسُطورِ الرَّقِّ رقَّشَـــــــــهْ بَالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُـــــــــهْ

وفي الشعر الجاهلي إشارة إلى الكتابة الحِميرية وانتشارها في بلاد اليمن، حتى شاع عند العرب ما عُرف بالكتابة الحِميرية، ويبدو هذا في قول ابن مقبل مشيراً إلـــى الكتاب الحميري الذي انطمست معالمه وسطوره[3]:

سَلْ المنازِلَ كيف صَرْمُ الواصِلِ أمْ هَلْ تُبِينُ رُسُومُها لِلسَّائـــلِ

عَرَّجْتُ أسْأَلُهَا بِقَارِعةِ الغَضَـــا وكأنَّها أَلواحُ سَيْفٍ ثامِـــــلِ

أوْرَدَ حِمْيرُ بيْنَهـــا أخبارَهـــا بِالحمْيريّةِ في كِتَابٍ ذابِـــــلِ

وفي خبر لقيط بن يعمر الإيادي، أنّه كان كاتباً عند كسرى، وأنّه حـــين ســـمع بتجهيز كسرى الجيش وإعداد العدّة لمهاجمة قومه، كتب صحيفة وأرسلها إلى قومه إياد ينبئهم بالخبر، فقال فيها[4]:

---

[1] نَمْلَى: ماء بقرب المدينة.

[2] ديوان طرفة بن العبد: ٧٤.

[3] ديوان ابن مقبل: ٢١٦-٢١٧.

[4] ديوان لقيط: ٢٨-٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَلاَمٌ في الصَّحِيفةِ من لَقيـــطٍ إلى مَنْ بالجَزِيرَةِ مِنْ إيـــــادِ

بأَنَّ اللَّيْثَ كِسْرِ قد أتاكُـــــمْ فَلاَ يُشْغِلَكُمْ سَوْقُ النِّقَـــــــادِ

أَتَاكُمْ مِنْهُمُ ستُّونَ أَلفَـــــــاً يَزُجُّونَ الكَتَائِبَ كالجَـــــرادِ

ومن أكثر الألفاظ التي جاءت في الشعر الجاهلي الدالّة على الكتاب كلمة (الزَّبْور)، فقد شُبّه به الطلل الدّارس الذي خفيت آثاره فلا يرى منه شيء، كما في قول امرئ القيس[1]:

لَمِنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فشَجَانِـــــي كَخطِّ زبُورٍ في عَسيبٍ يَمَـــــانِ

وقال امرؤ القيس مشبّهاً رسوم الديار بخطّ الزّبور في مصاحف الرُّهبان[2]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حبيبٍ وعِرْفانِ ورسْمٍ عَفَتْ آياتُهُ مُنْذُ أَزْمَـــــانِ

أَتَتْ حِجَجٌ بَعْدي فأصْبَحَـــــــتْ كَخَطِّ زَبورٍ في مَصَاحِفِ رُهْبَـــانِ

وقال المَرار بن مُنْقذ يذكر نقش الكتابة في الزُّبر[3]:

وترى مِنْهَا رُسُوماً قَدْ عَفَـــــتْ مِثْلَ خطِّ اللاّمِ في وَحيِ الزُّبُـــرْ

ومن الألفاظ التي وردت في الشعر دلالة على الكتاب (الوحي)، وكانت ترد في تشبيه الشاعر ما بقي من آثار الديار بسطور الكتاب، ومن ذلك قـول جِـرَان العَـوْد النُميري[4]:

هَلْ أَنْتُمْ وَاقِفُونَ على السُّطُـورِ فَتَنْظُرَ مَا لَقِينَ مِنَ الدُّهُـــــورِ

تُركْنَ بِرجْلِهِ الرَّوحَاءِ حَتَّـــى تنكَّرتِ الدِّيَارُ على البَصِيـــــرِ

كَوَحْيٍ بالحجارَةِ أوْ وُشُـــومٍ بِأَيْدي الرُّم باقِيَّةِ النُّـــــــؤْوَرِ

---

[1] ديوان امرئ القيس: ٨٥.

[2] المصدر نفسه: ٨٩.

[3] المفضليات: ٨٩

[4] ديوان جرّان العود: ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال لبيد بن ربيعة العامري يشبّه ما بقي من آثار الديار ورسمها بما بقي من الكتابة في الأحجار، وفي هذا إشارة إلى النقوش المكتوبة على الحجارة[1]:

عَفَتْ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فمُقَامُهـــــا بِمنىً تأبّدَ غَوْلُها فَرَجامُهَـــــــا

فَمُدَافِعُ الرَّيَانِ عُرِّي رسْمُهـــــا خَلَقاً كَما ضَمِنَ الوُحيِّ سِلامُهـا

وترد لفظة الكتاب صريحة عند بعض الشعراء، ومن ذلك قول بشر بن أبي خازم مشيراً إلى كتاب بني تميم، وفي هذه الإشارة دَلالة واضحة على أنّ بعض القبائل كان لها كتاب تسجّل فيه وقائعها وكل ما يتعلق بشؤونها[2]:

كَأنَّ حَفيفَ مَنْخَرِهِ إذَا مَـــــــا كَتَمْنَ الرَّبْوَ كِيرٌ مُسْتَعَـــــــارُ [3]

وَجَدْنَا في كِتَابِ بَنِي تَمِيـــــمٍ أَحَقُّ الخيْلِ بِالرَّكْضِ المُعَـــارُ

وقال عدي بن زيد يذكر الكتاب[4]:

ناشَدْتَنَا بِكِتَابِ اللهِ حُرْمَتَنـــــــا ولَمْ تَكُنْ بكتابِ اللهِ تَرتَفِـــــعُ

وقال كذلك[5]:

تَعْرِفُ أمْسِ مِنْ لَميسَ الطَّلَـــلْ مِثْلَ الكِتَابِ الدَّارس الأَحْـوَلْ

وتظهر صورة الكتاب المسطور في قول المتلمّس مشيراً إلى الصحيفة عند حديثه عن تقادم عهد الديار[6]:

فكَأنَّما هِيَ مِنْ تقادُمِ عَهْدِهـــــا رَقٌّ أُتيحَ كِتَابُها مَسْطُـــــورُ

[1] شرح ديوان لبيد: ٢٩٧.
[2] ديوان بشر: ١٣٧.
[3] حفيف منخره: يتحدّث عن صوت الفرس.
[4] ديوان عدي: ١٤٧.
[5] المصدر نفسه: ١٥٧.
[6] ديوان الملتمس: ٢٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في الشعر الجاهلي لفظة (الطِّرس)، وهي تعني الكتاب، قال لبيد[1]:

وَلَقَدْ دَخَلْتُ على حُمَيِّرٍ بَيْتَـــــهُ مُتنكِّراً في مُلْكِهِ كالأَغْلَـــــــبِ
فأجَازَني مِنْهُ بطِرْسٍ ناطِـــــقٍ وبكُلِّ أطْلَسَ جَوْبُهُ في المنكَـــبِ

- موضوعات الكتابة:

أشار الدكتور جواد علي إلى أنَّ أغلب الكتابات الجاهليّة التي عُثِر عليها هي في أمور شخصية في الغالب[2]، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ ثمّة موضوعات كـــان العـــرب يكتبون بها، إذْ إنَّ كثيراً من شؤون حياتهم كان يفرضها عليهم النشاط العملي أو العلمي أو الوجداني[3].

وذهب الدكتور ناصر الدين الأسد إلى أنّ أول هذه الموضوعات التي كانت تُدوّن وتُكتب، الكتب الدينيّة، فقد كان ورقة بن نوفل يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب[4].

وهناك من الروايات والأخبار والأحاديث التي تؤكّد كتابة بعض الصحف والكتب الدينية، فضلاً عن كُتّاب الوحي الذين تصدّوا لكتابة ما كان ينزل من القرآن الكريم[5].

وفي الشعر الجاهلي صورة واضحة لهذا النوع من الكتابات، ومن ذلـــك قـــول امرئ القيس مشيراً إلى مصاحف الرُّهبان[6]:

أتَتْ حِجَجٌ بَعْدي عَلَيها فأصْبَحَتْ كَخَطِّ زَبُورٍ في مَصَاحِفِ رُهْبَـــــانِ

---

[1] شرح ديوان لبيد: ١٥٥.
[2] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٤/١.
[3] مصادر الشعر الجاهلي: ٥٩.
[4] المرجع نفسه: ٦١.
[5] المرجع نفسه: ٦٠-٦٣.
[6] ديوان امرئ القيس: ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قول النابغة الذبياني تبدو صورة إنجيل النصاري[1]:

مَجَلَّتهُمْ ذاتُ الإلهِ وَدِيْنُهُـــــم قُويْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيَر العَواقِـــــبِ

ومن أهم الموضوعات التي كان يكتب بها عرب الجاهليّة، العهــود والمواثيــق والأحلاف التي تصوّر علاقاتهم أفراداً وجماعات، ولعلّ أشهر العهود والمواثيق صحيفة قريش التي تعاقدوا فيها: "على بني هاشم وبني المطلب علــى ألاّ ينكحــوا إلــيهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثــمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[2].

وعُرف في الجاهليّة حِلْف خُزاعة، بين عبد المطّلب بن هاشم جــدّ رســول الله عليه السلام ورجال من خُزاعة، وكتب لهم الحِلف أبو قيس بن عبد مناف بــن زهــرة وعلّقوا الكتاب في الكعبة[3].

وذهب الجاحظ إلى أنّ هذه الأحلاف والمواثيق كانت تُكتــب تعظيمــاً للأمــر، وتبعيداً عن النسيان، إذ كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهُدْنة[4].

وفي الشعر الجاهلي صورة واضحة لهذا النوع من الكتابات، ومن ذلك قول ابن مقبل مشيراً إلى الحلف الذي تمَّ مع ذبيان كلّها وعبس، إذْ دُوِّن هذا الحلف في كتاب[5]:

لَعَمري لَقَدْ حَالَفْتُ ذُبيَان كُلَّهـــا وعَبْسَاً على مَا في الأَدِيمِ المُمَرَّدِ

---

[1] ديوان النابغة الذبياني: ١٨.

[2] السيرة النبوية، ابن هشام: ٣٧٥/١-٣٧٦، وانظر مصادر الشعر الجاهلي: ٦٦، وأشار عمــر فــروخ إلــى هــذا النــوع مــن الموضوعات بقوله: "ومع أنّ عرب الجاهلية لم يكونوا أهل كتابة، فإنّ الكتابة عندهم لم تكن نادرة كما يتخيّل بعضهم، لقد كــان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال"، انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ط٥، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٤: ٣٨/١.

[3] مصادر الشعر الجاهلي: ٦٦.

[4] الحيوان: الجاحظ: ٦٩/١-٧٠.

[5] ديوان ابن مقبل: ١٢٧. قال أبو عمرو: كتبوا كتباً وتحالفوا على ما في الصحف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقْبَلْتُ مِنْ أرضِ الحِجَازِ بِحَلْيةٍ تَضِمُّ الفَضَاءَ كالقَطَا المتَبـــــدِّدِ

وأشار الحارث بن حِلّزة اليشكري إلى حلف ذي المجاز في شأن بكر وتغلب، فقال[1]:

واذكُرُوا حِلْفَ ذِي المَجازِ ومـا قُدِّمَ فِيه العُهودُ والكُفـــــلاءُ

حَذَرَ الجَوْرِ والتّعدِّي وهَلْ يَنْـــ ـقَصُ ما في المَهارِقِ الأهْواءُ؟

ويبدو أنّ ما ورد في الشعر الجاهلي من ذكر للصحف، ذو علاقة بالمواثيق والعهود التي تُعْقد بينهم وتُدَّون في الصحف، قال ابن مقبل يذكر العهود التي كانت تُدوّن في الصحف[2]:

إنّا ولَوْ قَدَّمُوا التي عَلِمُـــــوا أكْبادُنا مِن وَرائِهم تَجِـــــفُ

لمّا بَدَتْ غُدْوَةً جِبَاهُهُـــــــمُ حَنَّتْ إلينَا الأرْحَامُ والصُّحُـــفُ

ويتكرّر هذا المعنى في قول درهم بن زيد الأَوسيِّ في سياق تذكيره الخزرج بما بينهم من عهود مكتوبة على الصحف[3]:

وإنَّ ما بَيْنَنَا وبَيْنَكـــــــــمُ حِينَ يُقالُ: الأرْحَامُ والصُّحُـــــفُ

وهذه الإشارات إلى العهود التي سُجِّلت في الصحف دليل على حرصهم على تدوين كل ما كان يتم بينهم، لتكون حُجَّة لمن يحاول نقض العهود، أو التراجع عمّا كان قد اتُفق عليه.

وتشير بعض الدراسات التاريخيّة إلى أنّ القرشيين قد "عقدوا معاهدات مع أمراء العرب في الجزيرة العربية، مع شيوخ قيس وأقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسّان والحيرة، وكانت هذه المعاهدات تُسجَّل في مهارق وصحف أو على الأديم، ومن بين

[1] ديوان الحارث بن حِلِّزة: ٣٦.

[2] ديوان ابن مقبل: ١١٦–١١٧.

[3] مصادر الشعر الجاهلي: ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه المعاهدات المعاهدة التي عقدها رسول الله مع المكّيين في العام السادس للهجـــرة، وتُعرف بصلح الحديبية"[1].

ومن الموضوعات التي كان يكتب بها عرب الجاهلية الصُّكوك التي كانت تُسجِّل حساب تجارتهم وحقوقهم، وقد كانوا يحرصون على هذا النوع مـــن الكتابـــات؛ لأنّهـــا تخصّ جانباً مهماً من حياتهم، فإنّ منهم من كان يعمل في التجارة، وكان يكتب ديونـــه في صُكوك خاصّة، وقد جاء في كتاب الخراج ذكر لكثير مـــن المعـــاملات التجاريـــة وكتابة الصكوك التي يتمّ فيها تسجيل ما يستحق من مال وزروع[2].

واهتمّ الشعراء الجاهليون بهذا الجانب من حياة العرب، إذْ صوّروا هذا الضرب من الصُّحف التي كان يُسجَّل فيها حقّ القوم في الدين، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي يصوّر الكاتب الحميري الذي سجَّل ما له من دين، فتوافر الشهود العدول الذين يشهدون بأنّ المدين قادر على الوفاء بدينه في أجله[3]:

عَرَفتُ الدِّيَار كَرَقْمِ الـــــدَّوا ... ةِ يَزْبُرهُ الكَاتِبُ الحميَـــــــريُّ
بِرَقْمٍ وَوَشْمٍ كَمَا زُخرِفَـــــتْ ... بِمَيْشَمِهَا المُزدَهَاةُ الهَـــــــــدِيُّ
أدَانَ وَأنْبأهُ الأوّلُـــــــــــو ... نَ أنّ المُدانَ المَليُّ الوَفِـــــــيُّ
فَنَمْنَمَ في صُحُفٍ كالرِّيـــــا ... طِ فِيهِنَّ إرْثُ كِتابٍ مَحِـــــــيُّ

ولعلَّ شيوع هذا النوع من الصُّكوك يدلّ على أنّ من المدينين من كان يُنكر مـــا عليه من ديون، فيظلم ويجور، كما يستشفّ من قول عِلْباء بن أرقم بن عوف من بنـــي بكر بن وائل[4]:

---

[1] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٠٧.
[2] كتاب الخراج، يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـــ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة السَّلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـــ: ١٥٥-١٥٦.
[3] شرح أشعار الهذليين: ٦٤/١، وانظر مصادر الشعر الجاهلي: ٦٩-٧٠.
[4] الأصمعيات: ٣، ومصادر الشعر الجاهلي: ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَخَذْتُ بِدَيْنٍ مُطْمئنٍّ صَحِيفَـــةً وَخَالَفْتُ فيها كُلَّ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمْ

وورد في الشعر الجاهلي نوع آخر من الصكوك يُسمّى (الوِصْر)، يدلّ على مـــا كـــان يقطعه الأمير للمتعرّض لنواله[1]. وجاء ذكر الأوصار في قول عدي بن زيد[2]:

فأَيُّكُمْ لم يَنَلْهُ عُرْفُ نائِلِـــــــــهِ دَثْراً سَوامَاً وفي الأريَافِ أوصَارُ[3]

فاليَومَ إذْ مَا وقَاكَ اللهُ صَرْعَتَــهُ وزادَ أعداءهُ ذُلاً وإمْعَـــــــــارُ

وكان هذا الضرب من الصَّكاك يُسمَّى القِطّ، وقد جاء ذكره في قــول الأعشـــى مشيراً إلى أنّ النعمان كان يدفع إلى الناس صكوكهم بما أقطعهم أو بما قسم لهــم مـــن جوائز[4]:

ولاَ الملِكُ النُعْمانُ يومَ لَقِتْتُـــــهُ بِإمّتِهِ يُعْطِي القُطُوطَ ويَأْفِـــــــقُ

وأشار المتلمّس إلى القِطّ عند حديثه عن الصحيفة التي ألقاها في نهر الحيــرة، فقال[5]:

وأَلْقَيتُها بِالثّنيْ مِنْ جَنْبِ كافِـــرٍ كذلِكَ أُلْقِي كُلّ قِطٍّ مُضلّـــــــلِ

وضرب آخر من ضروب الكتابة هو كتابة الرسائل بــين الأفــراد، يحمّلونهــا أخبارهم ويضمّنونها ما تتطلّبه شؤون حياتهم، "وكانوا يكتبون الرسائل يطلبــون فيهــا العون والنُّصرة، ومن أمثلة ذلك كتاب قُصّي بن كلاب إلى أخيه ابن أمــه رزاخ بــن ربيعة بن حرام العذري يدعوه إلى نصرته، وكتاب السموءل إلى الحارث بن أبي شمَّر الغسَّاني يُوصي بامرئ القيس لعلّه يمدّه بما يحقّق له أمله"[6].

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي: ٧٠.

[2] ديوان عدي بن زيد: ٥٥.

[3] المعنى: أقطعكم وكتبَ لكم السجلات في الأرياف.

[4] ديوان الأعشى: ٢١٩، وانظر مصادر الشعر الجاهلي: ٧٠.

[5] ديوان المتلمّس: ٥٧-٦٠.

[6] مصادر الشعر الجاهلي: ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الشعر الجاهلي إشارة واضحة لموضوع آخر من موضوعات الكتابة، يتعلّق بالنقوش في الخواتم والتماثيل، ومن ذلك الخاتم الذي تُختم به الرسائل[١]. وجاء ذكر النقش في قول امرئ القيس[٢]:

وَصَبَّرني القُرْحُ في حُبِّـــــــةٍ تَخَالُ لَبيسَاً ولَمْ تُلْبَـــــــــــسِ

تَرَى أَثَرَ القَرْحِ في جِلْـــــــدِهِ كَنَقْشِ الخَواتِمِ في الجِرجِـــسِ [٣]

وقال امرؤ القيس مشيراً إلى نقش الصورة[٤]:

ويَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ ولَيْلَـــةٍ بِآنِسةٍ كَأَنَّهَا خَطُّ تِمثَـــــــالِ

وورد في شعره كذلك لفظ الرَّقم دَلالة على النقش، يقول[٥]:

أمِنْ طَلَلٍ لأُمِّ الجهْمِ عَـــــافٍ يَلُوحُ كَرَقْمِ أجنحةِ الجَـــــرادِ

وثمّة موضوعات أخرى كتب فيها عرب الجاهلية، من مثل كتابة النَّسب والأخبار والأشعار، وفي ذلك كله دَلالة واضحة على كتابة كل ما يتعلّق بحياتهم وشؤونهم الخاصة والعامة، أفراداً وجماعات.

---

[١] مصادر الشعر الجاهلي: ٧٥-٧٦.
[٢] ديوان امرئ القيس: ٣٣٩.
[٣] الجِرجس: الصحيفة.
[٤] ديوان امرئ القيس: ٢٩.
[٥] المصدر نفسه: ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: مَوادّ الكتابة وأدواتها.

يبرز المظهر الحضاري المادّي في جانبٍ آخر من جوانب الكتابة، وهو الأدوات التي استعان بها الكُتّاب في الكتابة، وقد أشار الألوسي إلى أنّ هذه الأدوات من أدلّة وجود الكتابة عند العرب، فلو لم يعرفوها لما وضعوا تلك الألفاظ لمعانيها[١].

ومنذ أن عرف الإنسان الكتابة والخطّ، فقد بدأ يبحث عن وسيلة يُدوِّن بها ما يريد كتابته، وهذا البحث يكون ملازماً للحضارة التي يُسهم تطوّرها وازدهارها في تحقيق التقدّم في مختلف المجالات.

وذهب بعض الدارسين الذين تحدّثوا عن الكتابة إلى أنّ استعمال الورق والبرديّات والألواح الخشبيّة في الكتابة كان منذ القِدَم، فقد استعمل الرومان الألواح الخشبيّة، إذ كتبوا بالقلم على المواد الخشبيّة بعد أن يُطلى الخشب بمادة بيضاء، وكتبوا الحروف كذلك بقلم معدني على ألواح خشبيّة مغطّاة بالشّمع[٢].

وقد ابتُكِرت صناعة الورق في الصين منذ القرن الثاني بعد الميلاد، إذْ كان أهلها يكتبون على الحرير والغاب الثقيل الوزن، ثمّ بحثوا عن وسيلة أخرى أقل ثمناً من الحرير، ثمّ اخترعوا الورق النشَّاف، ثمّ اكتشفوا الحبر بهباب المصابيح، وعُرِف بالحبر الصيني[٣].

وأخذ عنهم العرب الحبر بأنواعه، كما أخذوا بعض أدوات الكتابة ، ولكنهم كانوا يكتبون على جريد النخيل وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاة والإبل، وظل العرب،

---

[١] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/٢٧٠.
[٢] إنشاء الكتابة عند العرب: ٦٧.
[٣] المرجع نفسه: ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في العصر الإسلامي الأول يكتبون على سعف النخيل والكرانيف، وهي حجارة دقيقة ناعمة، كما كانوا يكتبون على الرِّقاع وقِطَع الأديم[1].

- المواد التي كانوا يكتبون عليها:

بحث أهل الكتابة من عرب الجاهلية عن أدوات يُدوِّنون عليها ما يكتبون من معاملاتهم وشؤون حياتهم، فأوّل هذه الأدوات التي اهتدوا إليها واستعانوا بها الجلد، وقد ورد في الشعر الجاهلي على أسماء مختلفة منها: الرَّق، والقضيم، والأديم. ويبدو أنّ بين هذه الأسماء فرقاً واضحاً، إذْ يرى صاحب اللسان أنّ الرَّق: هو ما يُكتب عليه وهو جلد رقيق، وأمّا الأديم: فهو الجلد الأحمر المدبوغ. وأمّا القضيم: فهو الجلد الأبيض يُكتب فيه[2].

وورد في الشعر الجاهلي ذكر لأسماء الجلد بأنواعه المختلفة مما يدلّ على كثرة استخدامه في الكتابة، ومن ذلك قول المرقش الأكبر يذكر الأديم والقلم الذي يكتب به على الجلد[3]:

هَلْ بِالدِّيَارِ أنْ تُجيبَ صَمَمْ لَوْ كانَ رَسْمٌ ناطِقاً كلَّمْ
الدّارُ قَفرٌ والرُّسُومُ كمَا رَقَّشَ في ظهْرِ الأدِيمِ قَلَمْ

ويبدو أنّ الأديم من كل شيء جلده، وهذا ما فُسِّرِ به الأديم الذي ورد في قول المتلمس[4]:

إِذَا مَا أديمُ القَوْمِ أَنْهَجَهُ البِلَى تَغرَّى وإن كَتَّبْتَهُ وتَخَرَّمَا

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي يذكر الرَّق وما كتب عليه من عنوان مزيّن محبّر[1]:

---

[1] إنشاء الكتابة عند العرب: ٦٨.
[2] لسان العرب: مادة رقّ، ومادة قضم، وانظر مصادر الشعر الجاهلي/ ٧٧.
[3] المفضليات: ٢٣٧.
[4] ديوان المتلمّس الضُّبعي: ٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لابْنَةِ حِطّانَ بنِ عَوْفٍ مَنـــــازِلٌ كَما رقَّشَ العُنوانَ في الرَّقِّ كاتِبُ

وقال طرفة بن العبد يذكر السطور المنمّقة المكتوبة على الرَّق[٢]:

أشْجَاكَ الرّبْعُ أمْ قِدمُـــــــــــهْ أمْ رَمَادٌ دَارِسٌ مُتمـُـــــــــــهْ

كَسُطُورِ الرَّقِّ رقَّشَـــــــــــهْ بِالضُّحى مُرَقِّشٌ يَشِمُـــــــــــهْ

وجاء ذكر الرَّق في شعر المتلمّس الضُّبعي، وقد فُسِّر الرَّق في شعره على أنّه صحيفة؛ لأنّ كل صحيفة رَقٌّ لرقِّة حواشيها، يقول[٣]:

فكَأنّما هِيَ مِنْ تَقَادُمِ عَهْدِهَـــــا رَقٌّ أُتِيحَ كِتَابُها مَسْطُـــــــورُ

وشبّه حسّان بن ثابت ديار زينب بخطّ الكتاب المنقوش على الرَّق، فقال[٤]:

عَرَفْتُ دِيَارَ زينبَ بالكَثِيـــــبِ كَخَطِّ الوَحْيِ في الرَّقِّ القَشِيــبِ

تَعَاوَرَهَا الرِّياحُ وكُلُّ جَـــوْبٍ مِنَ الوَسْمِيِّ مُنهَمِرٍ سَكـــــوبِ [٥]

وذكر حاتم الطائي الرَّق بقوله[٦]:

أتَعْرِفُ أطْلالاً ونُؤياً مُهَدَّمـــــاً كَخَطِّكَ في رَقٍّ كِتاباً مُنَمْنَمَـــــاً

وقد جاء ذكر الرَّق أيضاً في قول معقِّل بن خويلد الهذلي[٧]:

---

[١] المفضليات: ٢٠٤.
[٢] ديوان طرفة: ٧٤.
[٣] ديوان المتلمّس: ٢٨٧.
[٤] ديوان حسّان: ١٣٤.
[٥] الجوب: السحاب الأسود، والوسمي: مطر أو ربيع.
[٦] ديوان حاتم: ٢٣.
[٧] شرح أشعار الهذليين: ٣/٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَإنِّي كَما قَال مُمْلي الكِتـــــــا بَ في الرَّقِّ إذْ خَطَّهُ الكَاتِـــبُ

يَرى الشَّاهِدُ الحَاصِرُ المُطْمئِـنُ مِنَ الأثَرِ مَا لا يَرَى الغَائِـــبُ

وقد جاء ذكر الرَّق في القرآن الكريم أيضاً، قال تعـالى: ﴿ والطُّـور، وكتـابِ مَسْطور، في رَقٍّ مِنْشُور ﴾[1].

وذهب جواد علي إلى أنّ بعض مواضع الحجاز واليمن اشتهرت بترقيق الجلـد ودباغته ليصلح للكتابة، وفي جملته الرَّق، ومن أشهره المعمول من جلد الغـزال، فقـد ذُكِر أنّ الصحابة أجمعوا على كتابة القرآن الكريم في الرَّق؛ لتيسّره عنـدهم، ولطُـول بقاء الكتابة فيه، ومن أشهر أنواعه كذلك الرَّق المصنوع في خَوْلان، وهو الذي عُـرِف بـالأديم الخولاني[2].

وللرَّق الذي كان يُكتب عليه أهمية كبيرة، ولذلك استعمله الكُتّـاب فـي كتابـة موضوعات مختلفة، فقد أشار جواد علي إلى أنّ الكُتّاب كانوا: "يستعملون الـرَّق فـي المراسلات وفي السِّجلات وفي الكتب الدينيّة، فقد استعمل الفُرس جلود البقر المدبوغـة لكتابة كتبهم الدينيّة عليها، واستعمل العبرانيون جلود الغنم والمعـز والغـزال لكتابـة التوراة والتلمود عليها، وقد اشترطوا في الجلود أن تكون من جلود الحيوانات الطاهرة، استعملوها صحائف منفصلة، واستعملوها صفائح على هيأة الكتـب، كمـا اسـتعملوها مُدوَّرة ملفوفة مقطّعة واحدة يتصل كل رأس منها بقضيب، فتكون لفَّتين مُتَّصلتين، وذلك بربط قطع الجلود بعضها ببعض وتثبيتها لتكون صحيفة واحدة طويلة مستطيلة يقال لها: (مَجْلوت) أي المجلة"[3].

---

[1] الطُّور: ١-٣.

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٦٣/٨.

[3] المرجع نفسه: ٢٦٣/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في الشعر الجاهلي ذكر القضيم، ويَعْني الصحف المستعملة من الجلد، وذلك بأن تُقْطع وتُصْقل حتى تكون صالحة للكتابة، وقد ورد أنّ كُتَّاب الوَحْي استعملوا القضيم في جملة ما استعملوه من مواد الكتابة[1]، وقال امرؤ القيس يذكر القضيم[2]:

وَعَادَى عِداءً بَيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ وبَيْنَ شَبُوبٍ كَالقَضيمَةِ قَرْهَبِ

وقال زهير بن أبي سلمى يذكر القضيم أيضاً[3]:

كَأَنَّ دِمَاءَ المُؤْسِدَاتِ بِنَحْرِهَا أَطِيَّةُ صِرْفٍ في قَضِيمٍ مُسَرَّدِ

وأمّا الأدم: وهي الجلود المدبوغة، فقد كانت من أوسع مواد الكتابة استعمالاً في الجاهلية وصدر الإسلام؛ لوجوده عندهم ولرخص ثمنه بالنسبة إلى الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشام، وقد جاء في بعض الأخبار أنّ بعض مُكاتبات الرسول عليه السلام وكانت مكتوبة على الأدم[4].

وورد ذكر الأديم في قول المتلمّس الضُّبعي[5]:

إذَا مَا أديمُ القَوْمِ أَنْهجُه البِلَى تَفَرَّى وإِنْ كَتَبتُهُ وتخرّمَا

وقال المرقش الأكبر في ذكر الأديم[6]:

الدّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَا رقَّشَ في ظَهْرِ الأَديمِ قَلَمْ

ويظهر أنّ الكتّاب قبل استعمالهم لهذه الأنواع من الجلود كانوا يخضعونها لإعداد خاصّ، من حيث اختيار النوع الجيّد من الجلود، القابل للدّباغة والتجفيف ليصلح بعد ذلك للكتابة، وقد أشار جواد علي إلى ذلك بقوله: "وكان الدَّبَّاغون يدبغون الأهب

---

[1] اللسان: مادة (قَضَمَ)، وانظر مصادر الشعر الجاهلي: ٧٩.
[2] ديوان امرئ القيس: ٥٠.
[3] ديوان زهير: ٨٦.
[4] المفصل في تاريخ العرب: ٢٦١/٨.
[5] ديوان المتلمّس: ٤٠.
[6] المفضليات: ٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُصلحونها بصقلها، فإذا دُبِغَ الإهاب صار أديماً، وقد ذُكر أنّ أهل مكة كانوا يشترون قطع الأديم، ويكتبون عليه عهودهم ومواثيقهم وكتبهم"[1].

واستعمل الكتّاب في العصر الجاهلي **المهَارق** للكتابة، ويبدو أنّ هذه المهّارق كانت تصنع من القماش، فقد جاء في المعاجم اللغويّة أنها نوع من الثياب البيض أو الحرير الأبيض، تُسْقى بالصَّمغ وتُصْقل، ثمّ يُكْتب عليها، وقيل: هي الصَّحائف، الواحد مُهْرق[2].

وتُعدُّ المهارق من الألفاظ الفارسيّة المُعرّبة بمعنى الصحيفة تَعْريب مُهْرَه[3]، فقد عَرفت الأمم الأخرى وبخاصة الفرس أنواعاً متعدّدة من المهارق، وقد أشار الحارث بن حلزة إلى مهارق الفرس بقوله[4]:

لِمَنْ الدِّيَارُ عَفَوْنَ بالحُبْسِ آياتُها كَمَهَارِقِ الفُرْسِ

ويبدو أنّ المهارق كانت بحاجة إلى إعداد وتجهيز وإحكام في الصنع، ولمّا كانت المهارق تُصنع من القِماش أو الحرير فإنّها تُعدُّ باهظة الثمن؛ ولهذا لم تكن تستعمل إلاّ في كتابة الأمور المهمّة، وقد ذهب الجاحظ إلى أنّ الكتب لا يقال لها مهارق، حتى تكون كتب دين، أو كتب عهود، أو ميثاق أو أمان[5].

وذكر جواد علي نوعاً آخر من المهارق عُمِل من الكَرابس: "أي من الثياب البيض المصنوعة من الكِرباس وهو القطن الأبيض، وذلك بسقي الكِرباس بصِمغ، أو

---

[1] المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٦١/٨.

[2] اللسان: مادة (هرق)، والمخصص، ابن سيده: ٣٤٠/٤.

[3] معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة أدّي شير: ١٤٨.

[4] ديوان الحارث بن حلزة: ٢٤.

[5] الحيوان: الجاحظ: ٦٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطلائه بشيء آخر يَسُدُّ المسامات، ثمّ بصقله بالخرز، فهو إذن من النوع الجيّد الغالي بالنسبة إلى مواد الكتابة، ولذلك كانوا يستعملونه في الأمور الكتابيّة الجليلة"[1].

وقد ورد ذكر المهارق كثيراً في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول سلامة بن جندل[2]:

لَمِنْ طَلَلٌ مِثلُ الكِتَاب المُنمَّـــقِ خَلاَ عَهْدُهُ بينَ الصُّلَيبِ فَمُطـرِقِ
أكبَّ عليهِ كَاتِبٌ بِدَواتِـــــــهِ وحَادِثُهُ في العَيْنِ جَدَّةُ مُهْـــرَقِ

وقال سلامة بن جندل أيضاً[3]:

هَاجَ المنازِلُ رَحْلَةَ المُشتَـــاقِ دِمنٌ وآيَاتٌ لَبِثْنَ بَوَاقِـــــــي
لَبِسَ الرَّاومِسُ والجديدُ بِلاهُمـــا فتُرِكْنَ مِثْلُ المُهْرَقِ الأخْـــلاقِ

وقال عامر بن الطفيل يذكر مهاريق الفلُّوج؛ أي الكاتب[4]:

ألا نَادِيَا رَبْعي كُبَيْشَتَه باللِّـــوَى بِحاجَةِ مَحْزونٍ وإنّ لَمْ يُنادِيَـــا
تَوَضّحْنَ في عَلْيَاءِ قَفْرٍ كَأنَّهـــا مَهَاريقُ فلُّوجٍ يُعرِّضْنَ تَالِيَـــا

وقال أبو مروان الضَّبّي، يشبّه آثار الديار الدارسة بالكتابة على المهارق[5]:

أمِنْ دِمْنةٍ قَفْرٍ كأنَّ رُسُومَهـــا بِأسْفَلَ ذِي خيْمٍ مَهَارِيقُ سَاطِـــرِ

ويظهر أنّ المهارق كان لها قيمة كبيرة، ولهذا تكرّر ذكرها في أشعار الجاهليين، فقد استُخدِمت في كتابة المواثيق والأحلاف المهمّة، لنفاستها وجودتها، ومن ذلك ما جاء في قول الحارث بن حلزة عند حديثه عن حِلْف ذي المجاز[6]:

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨/٢٧٠.
[2] ديوان سلامة بن جندل: ١٥٣-١٥٤.
[3] المصدر نفسه: ١٣٢-١٣٣.
[4] ديوان عامر بن الطفيل: ١٤٢؛ وينسب البيتان إلى ابن مقبل، ديوانه: ٤٠٨.
[5] شعر ضبّة وأخبارها: ١٩٧.
[6] ديوان الحارث بن حلزة: ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذْكُروا حِلْفَ ذِي المجَازِ ومَـــا قُدِّمَ فيه، العُهودُ والكُفَـــــــلاَءُ

حَذَرَ الجَوْرِ والتَّعدِّي، وَهَـــلْ يَنْقُضُ مَا في المهارِقِ الأهْـوَاءُ

وفي شعر الأسود بن يعفر إشارة واضحة إلى مَهارق اليهود، إذ يقول[1]:

سُطُورُ يَهُوديّيْنِ في مُهْرَقَيْهِمَـــا مَجِيدَيْنِ مِنْ تَيماءَ أو أهْلِ مَدْيَـنِ

وورد ذكر المهرق أيضاً في قول للأعشى[2]:

سَلاَ دَارَ لَيْلَى: هَلْ تُبينَ فَتَنْطِـقِ وأنّى تَرُدُّ القَوْلَ بيضَاءَ سَمْلَّـــقُ

وقال الأعشى في المهارق[3]:

رَبِّي كَرِيمٌ لا يُكدِّرُ نِعْمَـــــةً وإذَا يُناشَدُ بِالمَهارِقِ أنْشَـــــدَا

ومن المواد الأخرى التي كان الكُتَّاب يكتبون عليها **العَسيب**، جاء في اللسان: "العَسيب: جريدة من النخل مستقيمة، دقيقة يُكشَط خُوصُها؛ أنشد أبو حنيفة:

وَقَلَّ لها مِنِّي على بُعْدِ دَارِهـــا قَنَا النّخلِ أوْ يُهْدَى إليكِ عَسِيـبُ

قال: إنما استهدته عَسيباً، وهو القَنا، لتتّخذ منه بزَّة وحَفَّة، والجمـع أعْسِـبة وعُسُـب وعُسُوب"[4].

ويبدو من هذا الوصف للعَسِيب أنّ الكاتب كان يبذل في تحضيره جهداً كبيـراً، فإذا ما يَبِس أخذ يَكْشط خوصَه ويُهيّئه ليغدو صالحاً للكتابة.

وورد في الشعر الجاهلي ذكر العَسِيب، ومن ذلك قول امرئ القيس[5]:

---

[1] ديوان الأسود بن يعفر: ٦٣.

[2] ديوان الأعشى: ٢٢٩.

[3] المصدر نفسه: ٢٣١.

[4] اللسان: مادة (عَسَب).

[5] ديوان امرئ القيس: ٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَمِنْ طَلَلٌ أبْصَرتُهُ فَشَجَانِـــــي كَخطِّ زبُورٍ في عَسيبٍ يَمَـــــانِ

وورد ذكر العَسيب أيضاً في شعر لبيد بن ربيعة العامري[1]. وقد استعملت الألواح في الكتابة، وهي التي تُؤخذ من خشب بعض أنواع الشجر، وفي القرآن الكريم ذكرٌ لها، قال تعالى: ﴿بلْ هو قُرآن مَجِيد في لَوْحٍ مَحْفُوظ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وكَتبْنا لَهُ في الأَلْواحِ من كُلِّ شيءٍ مَوْعِظةً﴾[3].

وذهب جواد علي إلى أنّ بعض الصَّحابة والتابعين كانوا: "يستعملون الألواح لتقييد ما يريدون حفظه من أموال الرسول عليه السلام ومن سيرته أو غير ذلك. فَذُكِر أنّ ابن عبّاس، كان يأتي أبا رافع ويسأله: ما صَنَعَ رسول الله يوم كذا؟ ومع ابن عبّاس ألواح يكتب فيها. وأنّ مجاهداً كان يسأل (ابن عبّاس) عن تفسير القرآن ومعه ألواح يكتب فيها ما يُمليه عليه، وعُرف اللوح بـ (السبورجة) وهي لفظة فارسيّة الأصل"[4].

وفي الشعر الجاهلي ذكر للألواح التي يُكتب عليها، ومن ذلك قول النابغة الذبياني يشبّه الوشم الذي تحلَّت به ذِراع محبوبته ببقيّة الكتابة في الألواح[5]:

وأبْدَتْ سَوَاراً عن وشُومٍ كأنَّهَـا بقيّةُ أَلْوَاحٍ عَليهِنَّ مُذْهَـــــــبُ

وقال لبيد بن ربيعة يذكر الألواح[6]:

فكَأنَّ مَعْروفَ الدِّيارِ بِقَـــــادِمٍ فبُراقِ غَوْلٍ فالرِّجامِ وُشُـــــومُ

أوْ مُذْهَبٌ جَدَدٌ على أَلْـــوَاحِـــ ـــهِنَّ النّاطِقُ المَبْروزُ والمخْتومُ[7]

---

[1] شرح ديوان لبيد: ١٣٨.
[2] البروج: (٢١-٢٢).
[3] الأعراف: (١٤٥).
[4] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨/٢٦٤-٢٦٥.
[5] ديوان النابغة: ٥٨.
[6] شرح ديوان لبيد: ١١٨-١١٩.
[7] المذهب: اللوح عليه ذهب. والجُدد: الطرائق التي في الكتاب، واحدها جُدة. والمبروز: المكتوب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الشعر الجاهلي حديث عن النُّقوش على الحجارة والصخور، وقد استعملها الجاهليون لتدوين كثير من أمورهم المهمّة، قال جواد علي[1]: "والحجارة هي المورد الرئيسي الذي استخرجنا منه علمنا بتأريخ العرب الجنوبيين وبتأريخ أعالي الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب ويضاف إلى أوامرهم وأحكامهم وخواطرهم ورسائلهم وذكرى نزولهم في مكان، فالفضل يعود إلى هذه الكتابات في حصولنا على أخبار الجاهليين المذكورين".

وقال لبيد بن ربيعة العامري، يذكر النقش على الحجارة[2]:

عَفَتْ الدِّيَارُ محلُّهَا فَمُقامُهـــــا بمنىً تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهـــــــا

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّي رَسْمُهـــا خَلَقاً كَما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُهـا

وقال زهير بن أبي سُلمى يذكر الحجر الأملس الذي كُتب عليه[3]:

لَمِنْ الدَّيارُ، غَشيتُها بِالفَدْفَـــــدِ كَالوَحْي، في حَجَرِ المَسيلِ المُخْلِدِ

ويمكن أن يكون العرب في العصر الجاهلي قد عرفوا نوعاً من الورق استعانوا به في الكتابة، وقد ناقش الدكتور ناصر الدين الأسد أغلب الروايات التي نفت أو أيّدت معرفة العرب للورق، وبخاصة ورق البردي، وقال: "إنّ العرب لم يغادروا وسيلة يكتبون عليها إلا التمسوها، سواء أكانت قد أُعدّت للكتابة أو أن تكون عارضة طارئة؛ فكتبوا على ورق البَرْدي، والحَرِير النَّاعم، والقُطن المصقول، والجِلد الرقيق، وكتبوا على السَّعف والخشب والعِظَام والحِجَارة، بل لقد كتبوا حين ألجأتهم الضرورة على أكفّهم ونعالهم"[4].

---

[1] المفصل في تاريخ العرب: ٢٦٥/٨.

[2] ديوان امرئ القيس: ٢٨٨.

[3] شرح ديوان لبيد: ٢٤٧.

[4] مصادر الشعر الجاهلي: ٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الشعر الجاهلي ذكر للورق والقرطاس، ويبدو أنّه نوع خاصّ يختلف عمّا استخدم من ورق الأشجار والعَسيب وغير ذلك، وممّا جاء في الشعر قول حسّان بن ثابت[1]:

عَرَفْتُ دِيَارَ زيْنَبَ بَالكَثِيبِ كَخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ

وقال المتلمّس يذكر الورق[2]:

كَأَنَّ الذي غَيَبْتَ لَمْ يلْهُ مِنَ الدَّهْرِ والدُّنيا لها وَرَقٌ نَضْرُ

وقد جاءت الإشارة إلى القرطاس في قول طرفة بن العبد يصف النّاقة[3]:

طَحُورَانِ عُوَّارَ القَذَى، فَتَراهُما كمَكحُولَتيْ مَذْعُورةٍ أُمِّ فَرْقَدِ

وخَدٍّ كقِرطاسِ الشَّآمِي ومِشفَرٌ كَسِبْتِ اليَمانِي، قِدُّهُ لَمْ يُحَدِّدِ

ولعلّ فيما سلف، ما يوضّح أهمّ المواد التي كان العرب يكتبون عليها في الجاهلية، وما يوضّح أيضاً ما كانوا يبذلون من جهدٍ في إعداد هذه الكتابة.

- المواد التي يُكتب بها:

في الشعر الجاهلي صورة أُخرى تتعلّق بأدوات الكتابة، التي كان العرب يكتبون بها، ومن أهمّ هذه الأدوات **(القلم)**، وقد أشار الدكتور ناصر الدين الأسد إلى أنّ القلم في الجاهلية كان مصنوعاً من القصب، يُقطُّ ويقلَّم أو يُبْرى ثمّ يُغمس في مداد الدَّواة ويُكتب به[4].

---

[1] ديوان حسان بن ثابت: ١٣٤.

[2] ديوان المتلمّس: ٢٥٦.

[3] ديوان طرفة: ٢٣.

[4] مصادر الشعر الجاهلي: ٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء ذكر القلم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ن والقَلَمِ ومَا يَسْطُرون﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ولَوْ أنّمَا في الأرْضِ من شَجَرةٍ أقلامٌ والبَحر يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِه سَبْعة أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله إنّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾[2].

وتتكرّر في الشعر الجاهلي صورة القلم الذي استعمله الكُتَّاب في الخطّ والنقش، ومن ذلك قول كعب بن زهير[3]:

أتَعْرَفُ رَسْماً بَيْنَ رَهْمَانَ فالرَّقَمْ إلى ذِي مَراهِيطٍ كَمَا خُطَّ بِالقَلَمِ[4]

وقال لبيد بن ربيعة يذكر القَلَم الذي استُعمل في الكتابة على العُسُب[5]:

مُتعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعيدُ بِكَفِّهِ قَلَماً على عُسُبٍ، ذَبُلْنَ وبَانِ

وقال يذكر الأقلام أيضاً[6]:

وجَلاَ السُّيولَ عَنْ الطُّلُولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُهَا

وورد ذكر القلم في قول عدي بن زيد[7]:

لِمَنْ الدَّارُ تَعَفَّتْ بِخَيْمْ أصْبَحتْ غَيَّرهَا طُولُ القِدَمْ

مَا تَبينُ العَيْنُ مِنْ أياتِهَا غيْرَ نُؤْيٍ مِثْلِ خَطٍّ بِالقَلَمْ

وجاء ذكر اليَراع في قول بشر بن أبي خازم يشبّه صوته بصوت الرعد[8]:

---

[1] القلم: (١)
[2] لقمان: (٧)
[3] ديوان كعب بن زهير: ٦١.
[4] رهمان والرقم ومراهيط: مواضع متقاربة.
[5] شرح ديوان لبيد: ١٣٨.
[6] المصدر نفسه: ٢٩٩.
[7] ديوان عدي بن زيد: ٧٣.
[8] ديوان بشر بن أبي خازم: ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَجَنْبُ عُنيزةٍ فَذَواتِ خَيْـــــمٍ بِهَا الغُزْلانُ والبَقَرُ الرِّتَـــــاعِ

عَفَاها كُلُّ هَطَّالٍ هَزِيـــــمٍ يُشْبِهُ صوتَهُ صَوْتُ اليَـــــرَاعِ

وتدلّ شواهد كثيرة من الشعر الجاهلي على انتشار صناعة الأقلام في الجاهلية، واستعمالها في الكتابة[1].

واستعمل العرب في الجاهلية الحبر الذي يُعرف بالمِداد، مادة يُكتب به، وقد ذُكِر المِداد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ لو كان البحر مِداداً لِكَلماتِ ربِّي لَنَفِد البَحــرُ قبلَ أنْ تنفَدَ كلماتُ ربِّي ولَوْ جِئنا بِمِثْلِهِ مَدَدَا ﴾[2].

وذهب جواد علي إلى أنّ: "حبر الجاهليين لم يكن يختلف عــن أنــواع الحبــر المستعملة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد، وأبسطها الحبر المصنوع مــن الفحــم المسحوق، مضافاً إليه الماء وقليل من الصَّمغ في بعض الأحيان. والحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار وعصارتها، أو من مسحوق عِظــام الحيوانات المحروقة، أو من بعض الأوراق المؤكسدة بالحديد وبعض المعادن"[3].

ويُستدلّ من ذلك، أنّ العرب في العصر الجاهلي كانوا يصــنعون الحبــر ممّــا يتوافر في بيئتهم من مواد خام تُسهم في صناعة مادة ضرورية يحتاج إليها الكُتّاب فــي كتابة موضوعاتهم المختلفة.

وأمّا **الدَّواة** أو **المِحبرة**، فهي أداة حفظ الحبر التي كان يحملها الكاتب معه أينما ذهب؛ لأنّه يحتاج إليها في كل حين.

---

[1] انظر على سبيل المثال: المفضليات: ٢٣٧، وشرح أشعار الهذليين: ٦٤/١.

[2] الكهف: (١٠٩).

[3] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٥٧/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرد ذكر الدَّواة والمداد في الشعر الجاهلي مراراً، وغالباً ما كان الشاعر الجاهلي يذكرها في معرض حديثه عن الديار والكاتب والكتابة، فمن ذلك قول عبد الله ابن غنمة الضَّبي يتحدّث عن الديار التي لم يبقَ منها إلاّ آثار، تشبه خطّ المِدَاد[1]:

فَلَمَّا رَأَيْتُ الدّارَ قَفْراً سَأَلْتُهَا فَعَيَّ عَلَيْنَا نُؤْيُها ورَمَادُهَا

فَلَمْ يَبْقَ إلاّ دِمْنَةٌ ومَنَازِلٌ كَما رُدَّ في خطِّ الدَّواةِ مِدَادُهَا

وورد ذكر الدواة في شعر سلامة بن جندل[2]، وفي شعر ثعلبة بن عمر العبدي[3].

وجاء في الشعر الجاهلي لفظ **النَّقس** ويعني المِداد، قال حُميد بن ثور الهلالي[4]:

لَمِنْ الدِّيارُ بِجَانبِ الحُبْسِ كمُخطِّ ذِي الحَاجَاتِ بِالنَّقسِ [5]

وقال زهير بن مسعود يذكر النّقس[6]:

وكأنَّ رَحْلي فَوْقَ ذِي جُدّدٍ بِثَواهُ والخَدَّيْنِ بِالنَقْسِ

وكانت المواد المكتوبة ترد بأسماء مختلفة في الشعر الجاهلي، منها الكتاب، والزبور، والوحي، وجاء في الشعر ذكر الصحيفة التي كانت تدلّ أحياناً على الكتاب أو الرسالة، أو الشيء المكتوب، وممّا ورد فيه ذكر الصحيفة قول عَدي بن زيد[7]:

أَلْقِ الصَّحيفةَ – لا أبالكَ إِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْكَ من الحِبَاءِ النِّقرِسُ [8]

وقال المتلمّس الضُّبعي يشير إلى صحيفته[9]:

---

[1] المفضليات: ٣٧٩. الشاعر هو عبد الله بن غنمة بن حرثان بن ثعلبة، وهو شاعر مخضرم، انظر المصدر نفسه: ٣٧٨.

[2] ديوان سلامة بن جندل: ١٥٣–١٥٤.

[3] المفضليات: ٢٨١.

[4] ديوان حميد بن ثور: ٥٣.

[5] الحُبس: موضع في ديار غطفان. والمخطِّ: الكتابة بالقلم.

[6] شعر ضبّة وأخبارها: ١٠٤.

[7] ديوان عدي بن زيد: ١٨٦.

[8] النِّقرس: الداهية.

[9] ديوان المتلمس: ١٧٧–١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَوْدَى الذي عَلِقَ الصَّحيفَةَ مِنْهُمَا ونَجَا حَذارِ حَبائهِ المُتلمّـــــــسُ

أَلْقى صَحيفَتهُ ونَجَتْ كُـــــوُرهُ عَنْسُ مُدَاخِلةُ الفَقَارةِ عِرْمَـــــسُ [1]

وفي الشعر الجاهلي نماذج أُخرى جاء فيها ذكر الصَّحيفة[2]، ممّا يُشير إلـــى أنّ كثيراً من كتابات العرب أو المواد المكتوبة كانت تُسمّى صحيفة.

[1] العنس: الصخرة، والفِقارة: واحدة من عظام سلسلة الظهر.

[2] انظر على سبيل المثال: المفضليات: ٢٨١؛ وشرح أشعار الهذليين: ٦٤/١؛ وديوان زهير بن أبي سلمى: ٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: الكاتب.

بدت في الشعر الجاهلي صورة حضاريّة أخرى تتعلّق بالكتابة، وهي صورة الكاتب الذي أكبَّ على كتابهِ يُنمّق خطّه ويُحبّره، ويمضي في ذلك وقتاً كبيراً؛ لإخراج الكتابة إخراجاً أنيقاً، وكان الكُتّاب يذهبون في الكتابة مذاهب الإتقان والتجويد، حتى يخرج الكتاب بصورة مُكتمِلة.

وعُرف في العصر الجاهلي مجموعة من الأشخاص الذين احترفوا مهنة الكتابة وكان من بينهم عدد من الشعراء، منهم المُرقِّش الأكبر وأخوه حرملة، تعلّما الكتابة على أحد النصارى من أهل الحيرة[١]، إلى غيرهما من كتّاب الوحي، الذين سبق ذكرهم عند الحديث عن معرفة الكتابة وشيوعها بين عرب الجاهلية، والذين امتنهوا الكتابة قبل الإسلام. وذهب ابن قتيبة إلى أنّ عدياً بن زيد العبادي كان ترجمان أيرويز وكاتبه بالعربية[٢].

وحفظ الشعر الجاهلي صوراً متنوّعة للكاتب الذي اعتنى بكتابه يرتّب سطوره ويُحبِّرها، حتى تبدو في صورة متقنة، ومن ذلك قول ثعلبة بن عمرو العبدي يشبّه الدِّمن بالصحائف التي استفرغ كاتبها وقتاً طويلاً في تجويدها، وأعاد النظر فيها مراراً[٣]:

لَمِنْ دِمَنٌ كأنّهُنَّ صَحَائِفُ قِفارٌ خلا مِنْها الكَثِيبُ فَواحَفُ [٤]

فَما أحْدَثتْ فِيها العُهودُ كأنَّها تَلْعبُ بالسَّمَّانِ فِيها الزّخّارِفُ [٥]

---

[١] دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٦٨.

[٢] المعارف، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧: ٣٦٠.

[٣] المفضليات: ٢٨١.

[٤] الكثيب وواصف: موضعان.

[٥] السَّمَّان: الأصباغ التي يُزخرف بها في السُّقوف وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكَبَّ عَليها كَاتِبٌ بِدَواتِـــــــهِ يُقيمُ يَدَيْهِ تَارَةً ويُخالِـــــــــفُ

رَجَا صُنْعَهُ ما كَانَ يَصْنَعُ سَاجِياً ويَرْفَعُ عيْنَهُ عن الصُّنْعِ طَــارِفُ

وتبدو صورة منازل المحبوبة في شعر الأخنس بن شهاب[1]، كأنّها العنوان كتبه الكاتب على الرَّق وجوّده وحسّنه، يقول[2]:

لاِبْنَةِ حِطّانَ بنِ عَوفٍ مَنـــــازِلٌ كَمَا رَقَّسَ العُنوانَ في الرَّقِّ كاتِــبُ

ويقول المرقش الأكبر مشيراً إلى الكتاب الذي نمَّقه الكاتب وحسَّنهُ فــي الأديــم مستعيناً بالقلم[3]:

هَلْ بالدِّيارِ أنْ تُجيبَ صمَـــــمْ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقاً كَلَّـــــــمْ

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَـــــا رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَـــــمْ

وتظهر صورة الكاتب مرتبطة بمكان معين أحياناً، ومن ذلك ما جاء في قــول الأسود بن يعفر يشير إلى كاتبين يهوديّين مُتقنين من تيماء أو مدين من أهل اليمن[4]:

كَأَنَّ بَقَايا رَسْمِها بَعْدَ مَا خَلَّـــتْ لكَا لرِّيح مِنْها عَنْ مَحَلٍّ مُدْمَـــنِ

مَجَالِسُ أيْسَارٍ ومَلْعَبُ سَامِـــرٍ ومَوْقِدُ نَارٍ عَهْدُهَا غيرُ مُزْمِـــنِ

سُطورُ يَهُوديَّينِ في مُهْرِ قَيْهِمـــا مُجِيديْنِ مِنْ تَيْماءَ أوْ أهْلِ مَدْيَــنِ

وتبدو في الشعر الجاهلي صورة الكاتب مرتبطة بالزّمان الذي يكتب فيه، ومــن ذلك قول طرفة يصوّر الكاتب وهو يكتب وقت الضُحى، حرصاً منه على تجويد الكتاب الذي يكتبه[5]:

---

[1] هو الأخنس بن شهاب بن شريعة بن تمامة بن عدي، وهو شاعر جاهلي قديم، انظر المفضليات: ٢٠٤.

[2] المفضليات: ٢٠٤، وانظر: شرح حماسة أبي تمّام: ١٤٨/١.

[3] المفضليات: ٢٣٧.

[4] ديوان الأسود بن يعفر: ٦٣.

[5] ديوان طرفة بن العبد: ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَشْجاكَ الرّبْعُ أمْ قِدَمُـــــــــهْ أمْ رَمَادٌ، دَارِسٌ حِمَمُـــــــــهْ
كَسُطُورِ الرَّقِّ رقَشَـــــــــهُ بِالضُّحَى، مُرَقِّشٌ يَشِمُـــــــــهْ

ويدلّ ذلك على أنّ الكاتب كان يتأنَّى في الكتابة، ويبذل فيها جهداً كبيراً، مُـدَقِّقاً ومُمحّصاً، كما كان يتخيّر أجود المواد والأدوات التي يكتب عليها حتى تخرج الكتابـة في أحسن صورة.

وتبرز في الشعر الجاهلي صورة الكاتب اليَمني الحمْيري؛ لأنّ أصل الكتابة من اليمن، على ما أشارت كثير من المصادر القديمة، وقد بدا ذلك في قول لبيد بن ربيعـة يذكر الكاتب الوليد اليمان، الذي أخذ يُعيد بكفّه قلماً على عَسيب النخل وورق البان[1]:

دَرَسَ المَنَا بِمُتالَعٍ فَأَبَـــــــانَ وتَقادَمَتْ بِالحُبْسِ فَالسُّوبَـــــــانِ
فَنِعَاف صَارةَ فالقنَانِ كَأَنَّهـــــا زُبُرٌ يُرَجِّعُها وليدٌ يَمَـــــــانِ [2]
مُتعوِّدٌ لَحِنٌ يُعيدُ بِكَفِّـــــــــهِ قَلَماً عَلى عُسُبٍ ذَبُلْنَ وبَـــــانِ

وتظهر صورة الكاتب اليَمني الذي اتّخذ من عسيبِ النخل أداة يكتـب عليهـا؛ وكان أهل اليمن يكتبون على عسيب النخل عهودهم وما يتعلّق بكثير من شؤون حياتهم، ومن ذلك قول امرئ القيس[3]:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجانِـــــي كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبٍ يَمَـــــانِ

وتبدو صورة الكتاب اليَمني الذي زيّنته سطوره في قول عبد الله بـن عجـلان النّهـدي[4]:

وَعَاوَدَ عَيْني نَصْبُها وعُزُورُهـــا أهَمٌّ عَناهَا أمْ قذَاها يُعُورُهـــــا

---

[1] شرح ديوان لبيد: ١٣٨.
[2] النّعاف: رؤوس الأودية. وصارة: موضع، والقنان: جبل.
[3] ديوان امرئ القيس: ٨٥.
[4] المفضليات: ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمْ الدّارُ أمْسَتْ قَدْ تَعفَّتْ كأنَّهـــا زبُورُ يَمَانٍ رَقَّشتْهُ سُطورُهـــــا

وقال أبو ذؤيب الهذلي يشبّه آثار المنازل بكتابة الكاتب الحميري المنمّقة التـــي تشبه العروس المزينة[1]:

عَرَفْتُ الدِّيارَ كَرَقْمِ الـــــدَّوا ةِ يَزْبِرُها الكاتِبُ الحِمْيَـــــــرِيُّ

بِرَقمٍ وَوَشْمٍ كما زَخْرَفَـــــتْ بِمَيْشِمِها المُزْدَهاةُ الهَـــــــــدِيُّ [2]

وذكر ابن مقبل في شعره، أنّ الكاتب الحميري كان يكتب الأخبار في الصـــحف باللغة أو الكتابة الحميرية، يقول[3]:

أوْرَدَ حِمَيرُ بَيْنَها أخْبَارَهـــــــا بِالحِمْيريِّةِ في كِتابٍ ذَابِـــــــلِ

وكان الكاتب يُسمَّى أحياناً بالفلُّوج، وقد ورد ذلك في قول عامر بن الطفيل يُشبّه آثار الديار بصحائف الكاتب التي تجدّد كتابتها[4]:

ألاَ نَادِيَا رَبْعِي كُبَيْشَةَ باللِّـــوى بِحَاجَةِ مَحزُونٍ وَإنْ لم يُنادِيـــــا

تُوضَّحْنَ في عَلْياءِ قَفْرٍ كَأنَّهـــا مَهَارِيقُ فلُّوجٍ يُعَرَّضْنَ تَالِيَـــــا

وقد أشار ابن خلدون إلى أصل الكتابة الحميرية، إذ كان الخط العربي يتّصـــف بالإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغته من الحضارة والترف، وهذا الخطّ هو المُسمَّى بالخطّ الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة، لما كـــان بها من دولة آل المنذر نُسباء التبابعة في العصبيّة والمجددين لملك العرب بأرض العراق[5].

---

[1] شرح أشعار الهذليين: ٩٨/١-٩٩.

[2] الميشم: الإبرة التي تضرب بها المرأة على يدها وكَفِّها.

[3] ديوان ابن مقبل: ٢١٧.

[4] ديوان عامر بن الطفيل: ١٤٢، والبيتان منسوبان لابن مقبل، انظر ديوانه: ٤٠٨.

[5] مقدّمة ابن خلدون: ٤١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الشعراء الجاهليون يذكرون اسم الكاتب أحياناً، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى يذكر الكاتب أبا الحُويرث[1]:

أُخْبِرْتُ أنَّ أبَا الحُوَيْرِث قَدْ خَطَّ الصّحِيفةَ، أيْتَ لِلْحِلْمِ [2]

وورد في شعر عامر بن جُوين الطّائي ذكر لكاتبين آخرين هما ابنا منذر، يقول[3]:

هَاجَ رسْمٌ دَارِسٌ طَرَبَا فَطَويلاً ظَلْت مُكْتَئِباً
أَنْ رأيْتُ الدّارَ مُوحِشَةً بِلِغاظٍ لم لَهَا رَجَبا
دارَ هِنْدٍ بِالسِّتَارِ وَقَدْ رَثَّ حَبْلُ العَهْدِ فانْقَضَبا
بِينَ سَيْلِ الوَادِيَيْنِ كَمَا نَمْنَمَ ابْنَا مُنذرٍ كُتُبَا

ووردت كذلك في الشعر الجاهلي صورة الكاتب الغُلام الذي يكتب على الصخر، ويبدو هذا في قول عبد الله بن سُليم بن الحارث الأزدي[4]:

لِمَنْ الدِّيارُ تَلُوحُ بِالغَمْرِ دَرَسَتْ لِمرِّ الرِّيحِ والقَطْرِ
فَبَشْطٌ بِسيّان الرِّياغِ كَمَا كَتَبَ الغُلامُ الوَحْيَ فِي الصَّخْرِ

ويتّضح ممّا سبق، أنّ الشعر الجاهلي تضمّن شواهد كثيرة على وجود الكتّاب في العصر الجاهلي، وأنّهم كانوا يبذلون جهدهم في تدقيق ما يكتبون وتحسينه وتزيينه، ليبدو في صورة رائعة رائقة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ العرب قد عرفوا الكتابة في الجاهلية، وأنّهم استعانوا فيها بمواد وأدوات كثيرة، مثل الرَّق، والأديم، والمهارق، والقلم، والمداد، وغيرها، وأنّهم كانوا يُعْنَوْن بإعدادها وتهيئتها، وأنّ كتّابهم كتبوا بها غير قليل من أمورهم وشؤون حياتهم، ويدلّ ذلك على مظهر من مظاهر الحضارة المادية عندهم.

---

[1] ديوان زهير بن أبي سلمى: ٢٧٦.

[2] أَيْتَ مخففّة: عجباً، وفي الأصل عجباً له، ويُقال أَيْتَ لهذا الأمر وويْتَ له أي: عجبت لحِلْمِه كيف عزب عنه.

[3] المفضليات: ١٧٨.

[4] المصدر نفسه: ٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة:

يبدو في حقيقة الأمر أنَّ للموقع الجغرافي أثراً واضحاً في نظام المجتمع وتركيبته، وذلك من حيث الجوانب الاجتماعية والسِّياسية والاقتصادية، والتي تبدو من خلال ممارسة معظم النشاطات الإنسانية المختلفة، وهو الأمر الذي يؤدّي إلى إرساء أسس ودعائم راسخة لمظاهر حضارية متنوّعة.

ووفقاً لهذه المعطيات، فإنّ معظم البيئات العربية في عصر ما قبل الإسلام قد اتَّسمت بمكانة وموقع جغرافي مهم، مهَّد لقيام حضارة بلغت منزلة كبيرة من الرُّقي والتَّطوّر؛ وهو ما كشف عنه الشعراء الجاهليون.

وفي ضوء دراسة جزئيات البحث تبيَّن أنّ كثيراً من البيئات العربية توافر فيها ما يمكن أن ينهض بقيام حضارة راقية، وبخاصة ما ارتبط بالمواد الخام الأولية اللازمة للصناعات والحرف والعمران وغير ذلك، فلمَّا كانت الحضارة ترجمةً لممارسة معظم النّشاطات الإنسانية، فإنّ العرب في العصر الجاهلي عرفوا ضروباً من جوانب الإبداع، ومارسوا جملة من النشاطات التي هيَّأت في معظمها لقيام حضارة، فضلاً عمّا اختصَّت به البيئات العربية من موقع جغرافي، ومناخ ملائم ساعد في إبراز جوانب حضارية مختلفة في العصر الجاهلي.

وتبيّن من خلال دراسة نماذج من الشعر الجاهلي الجانب الحضاري المادي في حياة العرب الاجتماعية، فقد عرف العرب صناعة أنواع كثيرة من الملابس، واطّلعوا على ما عند الأمم المجاورة، وأضافوا إليها ما توافر في بيئتهم، إذ كان لتوافر الصُّوف والشَّعر والوبر في الجزيرة العربية دورٌ كبير في تنوُّع أصناف الملابس، التي تمثّل في طريقة صُنعها وتحضيرها ملمحاً حضارياً بارزاً، استطاع الشعراء أن يُعبِّروا عنه بوضوح.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبحكم اتّصال العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، فقد عرفوا صِياغة أصناف كثيرة من الحُلِيِّ، لما اختصّت به كثير من بيئات العرب بوفرة المواد التي استعان بها الصَّاغة في تجهيز ضروب الحُلِيِّ المختلفة.

ومن المظاهر الحضارية الاجتماعية المادية، ما عُرِف عند العرب من صناعة أنواع العطور وتعدّد أصنافها، فقد أشارت المصادر القديمة إلى أنّ البيئة العربية داخل الجزيرة وخارجها توافر فيها مقوّمات هذه الصناعة، لِما عُرِف فيها من الأعشاب التي يمكن أن يُستخرج منها أنواع من الطِّيب، وقد تجلّى الجانب الحضاري في صناعة الطِّيب، وتلك الأوعية التي استخدمها العطَّارون في حفظ أنواعه المختلفة.

وصوَّر الشعر الجاهلي جانباً آخر من الجوانب الاجتماعية الحضارية ارتبط بحديث الشعراء عن أواني الطعام والشَّراب، فاستعمل العرب في معظم المناسبات أواني خاصة للطعام والشراب، منها ما هو بسيط في صنعه وفي مادته الأولية التي يتشكّل منها كالجلود وعسف النخل وغير ذلك، ومنها ما وصل إليهم من الأمم الأخرى عن طريق التجارة.

ومن الملاحظ أنّ كثيراً من الأواني التي جاء ذكرها في الشعر الجاهلي هي فارسية الصُّنع، من مثل الكوز، والإبريق، والفنجانة، والكأس وغيرها، وفي هذا دَلالة على سَعة أفق الحضارة العربية، وما كان عليه عرب الجاهلية من تحضُّر.

ومن الصور الحضارية الأخرى في هذا الجانب ما جاء في الشعر الجاهلي من ذكر لآلات الموسيقا، فقد عرفت البيئات العربية آلات الموسيقا التي كانت في أغلبها فارسيّة، إذ جاء في الشعر ذكر الطَّنبور، والمِزهر، والمُسْتق، والمَوْشي وغيرها، ولعلّ انفتاح العرب واطّلاعهم على حضارات الأمم الأخرى ساهم بشكل كبير في إبراز

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة حضارية مُشرقة للعرب في العصر الجاهلي، وهو ما بدا في أشعار الجـــاهليين عند حديثهم عن المظاهر الاجتماعية المختلفة.

وهيَّأت الظروف بعض البيئات العربية لقيام نشاط اقتصادي واضح، فقد عـــرف العرب كثيراً من ضروب الصناعات والحرف، بفضل ما أمدّتهم بيئتهم ببعض المـــواد الخام اللازمة لقيامها، وبخاصّة تلك المناطق التي شهدت استقراراً، فمن الحرف التـــي شاعت في الحواضر العربية صناعة الأسلحة وآلات الحرب، إذ بيَّنت الدراســـة كيـــف اهتمَّ الحدّاد بصناعة أنواع من الأسلحة مثل سنان الرمح، والسيف، والدُّروع وغير ذلك. فتنوَّعت الأسلحة وتعدّدت أشكالها، وكثُرت أسماؤها، دَلالة على براعة الصّـــانع الـــذي نهض بصناعة ما احتاجه العرب في العصر الجاهلي من السلاح في عصر المنازعات والحروب.

وأشارت الدراسة إلى حِرفة الحِياكة والنَّسيج، فقد شاعت هذه الحرفة في كثير من الحواضر العربية بفضل ما توافر فيها من مواد أولية كالصُّوف والوَبَر والقُطن والكتَّان، إذ برز الجانب الحضاري في طريقة الصُّنع والأدوات التي استعان بها الحائِك والنَّسَّاج في نَسج وحياكة البُسط والوسائد وكثيرٍ من أنواع الملابس، ومن هذه الأدوات الصَّيْصَة والمداد والكُفَّة، وغيرها.

وتبيّن أنّ العرب في العصر الجاهلي قد عرفوا المصنوعات الخشبية، فشـــاعت حِرفة النِجارة في بعض البيئات العربية، لا سيّما تلك التي توافر فيها أنواع خاصة من الأخشاب اللازمة لهذه الحرفة، حتى إنّ بعض أنواع الأخشاب كان يُجلب مـــن الأمـــم الأُخرى، والتي استعان بها النجَّار في صناعة الأثاث الفاخر.

وظهرت في الشعر الجاهلي جملة من المصنوعات الخشبية التـــي نهـــض بهـــا النجَّارون من أهمّها، الأبواب، والكراسي، والسُفن، والقوارب، وبعض آلات الحـــرب،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأدوات المنزلية، كما ذكر الشعراء الأدوات التي كان يستخدمها النَّجارون في حرفتهم مثل الفؤوس والمِبرد والقَدوم، والسِّندان، وغيرها.

وتُعدُّ الزراعة ضرباً من ضُروب الحِرف التي انتشرت في بعض الحواضر العربية التي عُرِفت باستقرارها، وتوافر فيها مقوّمات وظروف هيَّأت لقيام نشاط زراعي، من هذه المقوِّمات المناخ المعتدل، والتربة الخصبة، وعيون الماء والآبار، وهو ما شهدته مناطق اليمن والحجاز والعراق واليمامة وغيرها.

ومن أشهر المزروعات التي عرفتها المناطق العربية النَّخيل، والقطن، وبعض أنواع الحبوب، وأنواع من الأشجار المثمرة، ويبدو أنّ الجانب الحضاري المادي برز في تلك الأساليب التي اتّبعها الزُّرَّاع في حِراثة الأرض وتجهيزها للزراعة، وأساليب الرَّي وسقي المزروعات، وإنشاء القنوات وجداول الماء، فقد استعانوا بالبكرة والدِّلاء في الرَّي، واتّبعوا طرقاً متنوعة في الحفاظ على المزروعات والثمر مثل، إقامة الرُّجب تحت الأغصان لتثبيتها، والتّشذيب لمنع تساقط الثمر وغيرها من الطرق.

ومن الملاحظ أنّ الشعر الجاهلي تضمّن وصفاً دقيقاً لهذا المظهر الحضاري، إذ كانت أساليب الحِراثة والزراعة والسَّقي مادة للصورة الشعرية، فكثيراً ما كانت تتكرّر في الشعر صورة البكرة واستخدامها في نضح الماء من البئر، وانسيابه في الجداول لِسقي النخيل.

وكشفت الدراسة عن جانب حضاري مادي آخر تجلّى بوضوح في أشعار الجاهليين، يتعلّق هذا الجانب بالمظاهر العمرانية التي انتشرت في كثيرٍ من البيئات العربية، ساهم في وجودها أنّ معظم البيئات العربية كانت مهداً لحضارات متعاقبة، اشتهرت بفنّ عمراني مزدهر؛ ولهذا فقد عرفت معظم البيئات العربية أنواعاً كثيرة من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبنية، إذ صوّر الشعراء الجاهليون القصور وطريقة بنائها وتصميمها من الدَّاخل، وتبيّن معرفة العرب بناء الآطام، والحصون، والقناطر، والأديرة، والكنائس وغيرها.

وتضمّن الشعر ذكراً لأدوات البناء التي استعان بها البنَّاءون في حرفتهم، وهي الحجارة بأنواعها، والرُّخام، والقَرْمد، والكِلْس وغير ذلك.

وخَلُصت الدراسة في ضوء استقراء نماذج من الشعر الجاهلي والرِّوايات والأخبار التي ذكرتها المصادر التاريخية والجغرافية، إلى أنّ أشهر مواطن البناء كانت بلاد اليمن والحجاز، وبعض حواضر الشام، وكشفت الدراسة عن فنّ عمراني مزدهر في مثل حواضر البيئات العربية في العصر الجاهلي، وهو ما دلّت عليه نماذج كثيرةٍ من أشعار الجاهليين.

وأشارت الدراسة إلى مظهر حضاري آخر ارتبط بمعرفة العرب الكتابة وشيوعها في بيئات عربية مختلفة، وبخاصة في اليمن والحجاز، فقد عرف كثير من العرب الجاهليين الخط العربي وكتبوا به، إذ أيَّدت معظم الأخبار والرِّوايات هذه المعرفة، فضلاً عن النَّماذج الشعرية التي جاء فيها ذكر للكتابة والكاتب وأدوات الكتابة.

ويمكن أن يبرز الجانب الحضاري المادي في كل ما استعمله الكُتَّاب من مواد للكتابة عليها أو الكتابة بها، من مثل الجُلود بأنواعها، والورق وعسب النَّخيل، والأقلام، والمِداد، والحجارة، والألواح وغيرها، إذ تضمّن الشعر الجاهلي وصفاً دقيقاً لهذا المظهر الحضاري.

ويمكن القول في ضوء دراسة الجزئيات السابقة من فصول الدراسة بأنّ الشعر الجاهلي كشف عن مظاهر حضارية مادية مزدهرة في معظم البيئات العربية في العصر الجاهلي، يمكن من خلالها أن يخرج الباحث بنتيجة مفادها أنّ كثيراً من البيئات العربية في ذلك العصر قد شهدت نشاطاً حضارياً متقدّماً، كان بسيطاً في بعض البيئات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصحراوية، إلاّ أنّه كان مزدهراً في أغلب البيئات التي عرفت الاستقرار، وهو أمر استرعى انتباه الشعراء الجاهليين.

وبعد، فإنّ هذه الدراسة المتواضعة لا تخلو من نقص وقع فيه الباحث، إلاّ أنّها محاولة في حقل البحث العلمي القائم على الأسس العلمية، فإنْ أصبت فيها فمن الله عزّ وجلّ، وإنْ أخطأت فحسبي من ذلك نصيب المجتهد، وما أنا إلاّ بشر أُصيب وأُخطئ.

والله أسأل أن ينفعنا بما قدّمنا، إنّه نِعمَ المولى ونِعْمَ المجيب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

Aspects of Materialistic Culture in the Pre-Islamic Poetry

Prepared by:

Maher Mubaideen

Supervisor:

Professor Hussein Atwan

The study focuses on the portrayal in the Pre-Islamic poetry of materialistic aspects in the Arab Pre-Islamic culture. These aspects are the social culture, the industries and crafts, design and architecture, and writing and its tools.

The social aspects represented in the Pre-Islamic poetry consist in types of garment, clothes manufacturing and fabrics, types of jewelry and embellishments whose crude materials were found in various environments of the Arab Peninsula, types of perfumes, perfume manufacturing and storage, and finally types of containers and cultery for food and drink. In addition, some Arab people have known many kinds of musical instruments, most of which were Persian-made.

In terms of the industries and crafts, the Pre-Islamic poets presented images of the crafts of quilting and wearing and their fabric, the craft of making weapons and war equipment, wood crafts and carpentry, in addition to the crafts of farming the method invented then in cultivating and irrigation.

Building design and architecture became a popular art in various Arab environments, especially in Yemen where the availability of crude materials made possible sophisticated design of buildings. The Pre-Islamic poets described the different types of building like palaces, castles and fortresses, and they described in details the materials used in buildings like stones, marbles, etc.

The craft of writing was also popular among the Arabs of the Pre-Islamic age. The poets described in details this craft, and the writer and his book.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- المصادر:

- القرآن الكريم.
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت٨٥٤هـ): المستطرف في كل فن مستظرف، طبعة جديدة ومنقّحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث، بيروت، ١٩٩٤.
- الأخفش الأصغر، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل (ت٣١٥هـ): كتاب الاختيارين، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٧٦.
- الأسود بن يعفر النهشلي التميمي (ت٦٠٠م): الديوان، صنعة نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٦٨.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦هـ): الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣.
- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت٢١٦هـ): الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، ١٩٥٥.
- الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس (ت٧هـ): الديوان، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٠.
- الأفوه الأودي ، هدارة بن عمر بن مالك: الديوان، تحقيق محمد التونجي، ط١، بيروت، ١٩٩٨.
- امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت٥٤٥م): الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أمية بن أبي الصلت (ت٦٢٦م): الديوان، تحقيق عبد الحفيظ السطلي، ط٢، دمشق، ١٩٧٧.
- أوس بن حجر، أوس بن حجر بن مالك التميمي (ت٦٢م): الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، ط٢، دار نصّار، ودار بيروت، ١٩٦٠.
- بشر بن أبي خازم الأسدي (ت٥٩٨م):الديوان، تحقيق عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢.
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ):
  ١- جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، مطبعة دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٧.
  ٢- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي: شرح حماسة أبي تمّام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ): فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط١، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٤هـ):
  ١- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
  ٢- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جران العود النميري: الديوان، صنعة أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق نوري حمودي القيسي، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٢.
- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ): كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٨٠.
- الجوهري، أبو نصير إسماعيل بن حماد الفارابي الجوهري (ت٣٣٩هـ): الصحاح: تاج اللغة وصحاح اللغة العربية، تحقيق أحمد عبد الغفار العطار، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.
- حاتم الطائي: الديوان، صنعة عيسى بن مدرك الطائي، رواية هشام الكلبي، تحقيق عادل سليمان، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠.
- الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن بن ثعلبة: ديوان شعر الحادرة، تحقيق ناصر الدين الأسد، القاهرة، ١٩٦٩.
- الحارث بن حلزة اليشكري (ت٥٨٠هـ): ديوان شعر الحارث، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.
- ابن حبيب، أبو جعفر بن محمد (ت٣٤٥هـ): كتاب المحبر، رواية أبي سعيد السكّري، تصحيح إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- حسّان بن ثابت، حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي (ت٥٤هـ): الديوان، تحقيق عبدالرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت.
- الحطيئة، أبو مليكة، أوس بن جرول: الديوان، رواية ابن حبيب، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.
- حميد بن ثور الهلالي (ت نحو ٣٠هـ): الديوان، صنعة عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ): المقدّمة، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو السليمية (ت٢٤هـ): الديوان، تحقيق أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، ١٩٨٨.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ): الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- أبو دؤاد الإيادي، جارية بن الحجاج (ضمن دراسات في الأدب العربي لغوستاف)، ترجمة إحسان عبّاس وآخرون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩.
- ابن الدَّيبغ الشيباني الشافعي: نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن القحطانية، صنعة أحمد راتب خموش، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢.
- الرَّازي، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٤٦٠هـ): تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين ابن عبد الله العمري، ط٣، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ١٩٨٩.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسين بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢.
- الزّبيدي، السيد محمد بن محمد بن الحسن (ت١٢٠٥هـ): تاج العروس، تحقيق إبراهيم الترزي، مكتبة حكومة الكويت، ١٩٧٢.
- الزَّجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن الزَّجاجي (ت٣٤٠هـ): الأمالي، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت.
- زهير بن أبي سلمى المزني (ت١٣ ق.هـ): شرح الديوان، صنعة الإمام ثعلب، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤.
- أبو زيد الطائي، حرملة بن المنذر (ت٦٢هـ): شعره، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧.
- أبو زيد القرشي، أبو محمد بن أبي الخطاب (ت١٧٠هـ): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦.
- سُحيم عبد بني الحسحاس (ت٤٠هـ): الديوان، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.
- السكّري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت٢٧٥هـ): شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستّار أحمد فرّاج، مطبعة المدني، مصر.
- سلامة بن جندل بن عمرو التميمي (ت٢٣هـ): الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- السُّليك بن السَّلكة: أخباره وأشعاره، تحقيق حميد ثويني وكامل سعيد، مطبعة العالي، بغداد، ١٩٨٧.
- ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٤٥٨هـ): المخصَّص، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧.
- الشَّابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ): الدِّيارات، تحقيق كوركيس عواد، ط٢، دار الغرب، بيروت، ١٩٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الشَّماخ، الشَّماخ بن ضرار الذبياني (ت٢٢هـ): الديوان، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- الشنفرى: الديوان، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١.
- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت٨٥٤هـ): طبقات الأمم، تحقيق حياة علوان، ط١، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.
- طرفة بن العبد: طرفة بن العبد بن سفيان البكري (ت٥٦٤م): الديوان، تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصَّقال، مطبوعات مجمع اللغة العربي، دمشق، ١٩٧٥.
- طفيل الغنوي، الطفيل بن عوف الغنوي (ت٦١٠م): الديوان، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.
- عامر بن الطفيل، عامر بن الطفيل بن مالك العامري (ت١٠هـ): الديوان، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، ودار بيروت، ١٩٦٣.
- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (ت٣٢٨هـ): العقد الفريد، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٩.
- العبّاس بن مرداس السلمي (ت١٨هـ): الديوان، جمع وتحقيق، يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١.
- عدي بن زيد العبادي (ت٥٩٠م): الديوان، تحقيق محمد جبّار المعيبد، شركة دار الجمهورية، للنشر، بغداد، ١٩٦٥.
- عروة بن الورد العبسي (ت٥٩٤م): الديوان، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علقمة الفحل، علقمة بن عبده بن ناشرة التميمي (ت٦٠٣م): الديوان، تحقيق لطفي الصقّال، ودريّة الخطيب، ط١، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٦.
- عمرو بن كلثوم التغلبي: الديوان، جمعه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١.
- عمرو بن معديكرب الزبيدي (ت٦٤٢م): شعره، جمعه وحقّقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٤.
- عنترة بن شدّاد العبسي (ت٥١٦م): الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣.
- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت٣٣٩هـ): كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق غطّاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد: مختصر كتاب البلدان، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨.
- ابن قتيبه، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ):
  ١- الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار صادق، القاهرة.
  ٢- المعارف، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- القتّال الكلابي: الديوان، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.
- القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠.
- قيس بن الخطيم بن عدي (ت٦٢٠م): الديوان، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- قيس بن زهير بن حذيفة العبسي (ت٦٣١م): شعره، جمعه عادل جاسم البياتي، مطبعة الآداب، بغداد، ١٩٧٢.
- كعب بن زهير بن أبي سلمى: الديوان، صنعة أبي سعيد السُّكّري، تحقيق حنّا ناصر الحتي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.
- لبيد بن ربيعة العامري (ت٤١هـ): شرح الديوان، شرح وتحقيق إحسان عبّاس، ط٢، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢.
- لقيط بن يعمر الإيادي (ت٣٨٠م): الديوان، تحقيق خليل إبراهيم العطية، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٦٨.
- المبرد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ): الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أحمد الدالي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣.
- المتلمّس الضُّبعي، أبو عبد المسيح جرير بن عبد العزّى (ت٥٦٩م): الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، ١٩٧٠.
- المثقّب العبدي، العائذ بن محصن بن ثعلبة (ت٥٨٨م): الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، ١٩٧١.
- مجموعة من الشعر الجاهلي: قصائد جاهلية نادرة، جمع يحيى الجبوري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، تحقيق يوسف أسعد داغر، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- المسيّب بن علس، زهير بن علي بن عمر المسيّب (ت٥٧٥م): شعره، جمع وتحقيق ودراسة أنور أبو سويلم، ط١، منشورات جامعة مؤتة، مؤتة، ١٩٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المفضّل الضَّبي، المفضَّل بن محمد الضَّبي (ت١٧٨هـ): المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.
- ابن مقبل، تميم بن أُبي بن مقبل بن عجلان (ت٦٥٧م): الديوان، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢.
- المقدسي المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدّمته محمد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- الميداني، أبو الفضل النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت.
- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية الذبياني (ت٦٠٤م): الديوان، تحقيق محمد الطّاهر، الشركة التونسية للنشر والشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٦.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي اليعقوب: الفهرست، شرح إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.
- ابن هشام، الإمام محمد عبد الملك بن هشام (ت٢١٨هـ): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السَّقا وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت.
- الهمذاني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٣٤هـ): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن الأكوع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.
- الهمذاني، أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمذاني (ت٣٥٠هـ): الإكليل، تحقيق محمد ابن علي الأكوع، ١٩٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (ت٣٩٥هـ): التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق عزة حسن، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩.
- ياقوت الحموي، الإمام شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥.
- يحيى بن آدم القرشي (ت٢٠٣هـ): كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة السَّلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- المراجع الحديثة:

- أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥.
- أدى شير: معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة، مكتبة لبنان، ١٩٨٠.
- الألوسي، محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق بهجت الأثري، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
- جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ودار النهضة، بغداد، ١٩٦٩.
- حسن عيسى: شعر ضبَّة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٤.
- حسين الحاج حسن: حضارة العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤.

دوزي رينهارت: المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، دار الحرمين، بغداد، ١٩٧١.

زينب العمري: السمات الحضارية في شعر الأعشى، دراسة لغوية وحضارية، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣.

- سامح كمال الدين: العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٧.
- السيد عبد العزيز سالم:

١- تاريخ العرب في العصر الجاهلي، دار النهضة، ١٩٧٠.

٢- دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- سعد زغلول: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- شعبان عبد العزيز: الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧.
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط٩، دار المعارف، القاهرة.
- عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط١، مكتبة مدبولي.
- عبد الحميد جيدة: إنشاء الكتابة عند العرب، ط١، دار الشمال، ١٩٨٦.
- عبد الرحمن علي: أضواء على الحضارة والتراث، شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر.
- عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤.
-علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، ط٣، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦.
- عفيف عبد الرحمن: ديوان شعر الأيّام، ط١، دار صادق، بيروت، ١٩٩٨.
- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.
- فيليب حتي: تاريخ العرب، ط٤، دار غندور، بيروت، ١٩٧٤.
- مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ الحضارة والفنون، القاهرة.
- محمد خريسات وآخرون: تاريخ الحضارة الإنسانية، دار الكندي، إربد، ١٩٩٩.
- ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥.
- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نديم مرعشري وآخرون: الصحاح في اللغة والعلوم: معجم وسيط، دار الحضارة العربية، ١٩٧٥.
- نصر محمد عارف: الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، ط٢، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤.
- واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ط١، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٨١.
- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ط٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨١.
- يحيى الجبوري: الملابس العربية في الشعر الجاهلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩.

ج- الرسائل الجامعية:

- خليل الرفوع: مظاهر النشاط الاقتصادي العربي في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧.
- ليلى العمري: مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥.
- محمود محمد أحمد: الملابس عند العرب في شمال ووسط الجزيرة العربية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- بحوث منشورة في الدوريّات:

- حسين مؤنس: الحضارة دراسة في أصول وعوامل ثباتها وتطوّرهـا، مجلـة عـالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع٢٣٧، ١٩٩٧.
- خليل الرفوع: إشارات إلى بعض الأبنية في بعض البيئات المحاذية لنجد في الشـعر الجاهلي، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م٢٧، ع١، ٢٠٠٠م.
- عبد الحميد المعيني: المُشقَّر في الشعر الجاهلي، خصوصية المكان، مجلة الدّرعيّـة، السعودية، العددان السادس والسابع، ١٩٩٩م.
- محمد عبده غانم: اليمن في الشعر غير اليمني، حتى أواخر العصر العبّاسي، مجلـة كلية الآداب، ع٣، صنعاء، ١٩٨١.
- يحيى الجبوري: الزينة في الشعر الجاهلي، حوليـات كليـة الإنسـانيات والعلـوم الاجتماعية، ع٦، قطر، ١٩٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit